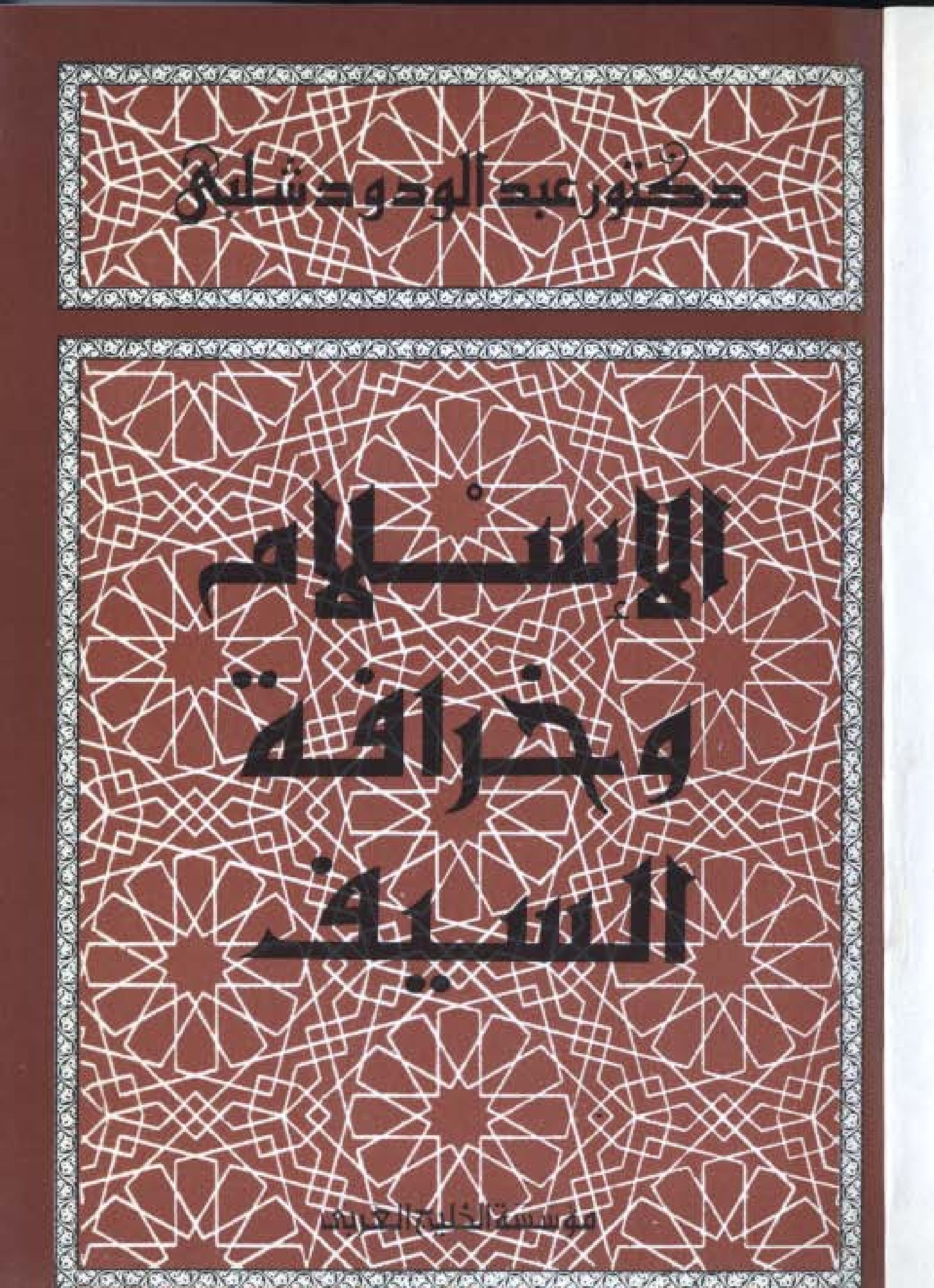

دكتور عبد الودود شلبي
الإسلام وخرافة السيف
مؤسسة الخليج العربي

دكتور عبد الودود شلبي

الإسلام وخرافة السيف

مؤسسة الخليج العربي

الطبعه الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مؤسسة الخليج العربي
استيراد تصدير طباعة نشر
١٩٥ شارع ٢٦ يوليو - العجوزه - القاهرة
تليفون ٣٤٧٢١٨٣ - ٣٤٧٢٢٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا

النساء «٧٥»

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن
يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ
صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ
عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ
وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

الحج «٣٩ - ٤٢»

عندما أجري هذا الحوار لم يكن على هذا النحو من الشمول والتوسع فهناك فرق بين الكلام المرسل من وحي الخاطر . . . . وبين الكتاب الموثق بالمصادر والمراجع . . .

«لم ننس . . . ولن ننسى»

لقد اعتاد الكتاب في الغرب أن يلصقوا بالإسلام تهمة التعصب . أفلا يتذكر هؤلاء أنه لم يترك مسلم واحد حياً في إسبانيا وفي صقلية ، وفي أبوليا؟

هل نسينا أنه لم يترك مسلم واحد حياً ، ولا مسجد واحد قائماً في اليونان في أعقاب الانقلاب الذي وقع عام ١٨٢١ . . حيث قتل من المسلمين ثلاثمائة ألف بمن فيهم من الشيوخ والنساء والأطفال؟

هل نسي هؤلاء أن المسلمين كانوا أغلبية في دول البلقان ثم تحولوا بعد ذلك إلى أقلية بسبب التعذيب والإرهاب والقتل؟

أفلا يتذكر هؤلاء كيف عاش غير المسلمين في كنف الإسلام ، وكيف شاركوا المسلمين في الإدارة والحكم والسلطان حتى إذا سقط علم الخلافة وأتيحت لهم الفرصة استباحوا دم المسلم وعرضه أو يترك الإسلام؟

محمد بكتال مارمادوك

المسلم الإنجليزي

«وليكن ما يكون»

أنا لا أحفل. أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية طريقة أخرى. . .

فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار. . .

لندعها تكافح بأيديها وأرجلها وأظافرها. . .

توماس كارليل
المفكر البريطاني

«العقيدة الديمقراطية»

إني أعتقد كما يعتقد كل المفكرين أن الإسلام هو العقيدة الديمقراطية الوحيدة التي لا تزال حية فعالة باقية في عالمنا إلى اليوم. ولا يمنعني من أن أقول ذلك إنني مواطن هندي تربى على العقيدة الهندية. بل أنني أقرر أن ديانتي لم تنجح في أن تحقق عملياً الوحدة بين بني الإنسان، وليس تحت دين آخر مهما كانت فلسفته وعمقه قد نجح في أن يجسد فكرة الوحدة الإنسانية وتساوي الناس أمام خالقهم سوى الإسلام.

السير راما سوامي
المفكر الهندي

مُقدمات

الإسلام
كما يتصورونه في أوربا وأميركا

- محمد يتهيأ للعودة . . . !
- الخوف الذي يجتاح العالم من الإسلام . .
- نيويورك تايمز New-york Times والمسلمون الزنوج . .
- من قتل مالكولم إكس . . . ولماذا قتل؟
- تهديد سافر من الديلي تلجراف The Daily Telegraph .
- لوموند Le Monde وألف مليون مسلم يستعدون للموت . .
- مجلة تايم Time والتحريض ضد المسلمين . .
- مذبحة المسلمين في بلغاريا . . . ولماذا؟
- لماذا ومتى قرر الجنرال ديجول الانتحار؟

«محمد يتهيأ للعودة»

في الولايات المتحدة الأمريكية، ومنذ أكثر من خمسين عاماً نشرت مجلة التاريخ الجاري The Current History Magazine مقالاً ـ تحت هذا العنوان ـ تقول فيه:

«في جزائر الفليبين، وفي الجامعات المصرية، وفي قصور ملوك الشرق وخيام التتر، وفي البرلمان اليوغسلافي، وبين أكواخ الزنوج عند الشاطىء الذهبي في آجام أفريقيا، وفي صحارى آسيا.. يترقب المسلمون كل يوم.. بل كل ساعة مطلع (المهدي) الذي يتجسد فيه محمد عليه السلام، وقد تيقظت قوة الإسلام واتخذت لها شكلاً سوياً في عالم السياسة، ولا تزال «التعاليم المحمدية» سارية منتشرة بين الشعوب الملونة التي تجد في هذه التعاليم ما لا تجده في المسيحية أو اليهودية، وهناك عامل آخر من عوامل هذه الحركة وهو إخصاب الشعوب الإسلامية وتوالدها في الوقت الذي أصيبت فيه الشعوب البيضاء بالعقم وقلة النسل بينما يتوالد المسلمون كالأرانب...!

* * *

وفي الولايات المتحدة أيضاً ومنذ حوالي ربع قرن. نشرت

صحيفة «نيويورك تايمز» The New York Times [1] وفي صدر صفحتها الأولى وتحت عنوان: المسلمون السود يزحفون على واشنطن، هذا المقال الذي ننقل بعض فقراته بالحرف:

وصل مالكولم إكس اليوم ليتولى قيادة المسلمين في عاصمة الدولة حيث توترت العلاقات العنصرية بصورة تدعو للقلق.

ولقد صرح مالكولم إكس بأنه سيظل القائد للحركة في مدينة نيويورك وسيحتفظ بمسكنه هناك بالإضافة إلى مسكنه في واشنطن، وقد أعفى القائد المحلي للحركة من أعباء وظيفته بسبب فشله في الاستفادة من الفرص السانحة لتوسيع الحركة في واشنطن.

ووصف مالكولم إكس العلاقات العنصرية في الولايات بأنها تنذر بالانفجار، وقال إنه ما لم تعمل أغلبية البيض بسرعة على منح الحقوق السياسية الكاملة للزنوج فإن الوضع قد يؤدي إلى إراقة الدماء.

إن البيض لا يفتحون الباب للسود أبداً، وعلى السود الاعتماد التام على أنفسهم وعليهم أن ينهضوا لتحسين كافة أحوالهم الإنسانية.

وقال قائد المسلمين السود (إن الزنوج في هذه البلاد قد

(١) في يوم ١٠/ ٥/ ١٩٦٣ م.

فقدوا الأمل في الرؤساء ويئسوا من إصرار البيض على عدم منحهم لحقوقهم المشروعة).

وقال مالكولم إكس: أنه ينوي الإشراف على كل الاجتماعات الجماهيرية للسود التي تعقد في أمسيات الأحد بواشنطن، وقال إنه يمنع البيض من حضور هذه الاجتماعات، ليستطيع السود مناقشة مشاكلهم بصراحة تامة وبدون أي خوف، وبذلك يتوصلون إلى النتائج المطلوبة، وقال إن ٥٤٪ من سكان المدينة من الزنوج.

وقال إن حل أزمة الزنوج في واشنطن هو في اعتناقهم للإسلام ـ دين المسلمين ـ. إن المسيحية هي دين الرجل الأبيض وهي دائماً تركز اهتمامها بالدور الذي يلعبه الرجل الأبيض، أما الإسلام فلا يعترف بالألوان ولكنه يعترف فقط بالشخصية الإنسانية.

وفي مناقشته للنسبة العالية للجريمة في أوساط الزنوج، قال: إن الظروف التي خلقها البيض هي السبب في ذلك. إن كل منظمات الإجرام في تجارة المخدرات، والرقيق الأبيض والميسر يديرها البيض.. إنك لن تجد زنجياً واحداً يحتل منصباً كبيراً في هذه المنظمات.. إن الزنوج لا يملكون السفن والطائرات التي تستخدم في تهريب المخدرات إلى هذه البلاد.. إن الزنوج هم في الواقع من ضحايا المجرمين البيض.

إن قادة التنظيمات الزنجية المعروفة قد فشلوا فشلاً ذريعاً، وذلك قياساً بالنتائج التي تحصل عليها السود في مطالبتهم بالحقوق المدنية.

إننا نحن المسلمين السود لا نتكلم كثيراً، ولكن نفضل أن يحكم علينا الناس بأعمالنا.

إننا لا نبشر بالبغض والعنف، ولكننا نؤمن أنه إذا هاجم كلب له أربع أرجل أو رجلان أحد السود فينبغي أن يقتل الكلب.!!!

فمن هو مالكولم إكس؟

لقد ولد مالكولم إكس في قلب المجتمع الأمريكي حيث يعتبر الزنجي الأسود مخلوقاً منحطاً لا قيمة له، وقضى أكثر من طفولته خادماً لأسر أمريكية من البيض، تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة للبيض في مدينة (مايسون) بولاية ميتشجان، ولكن معاملة البيض له زرعت في نفسه بذور الحذر منهم وعدم الثقة بهم منذ حداثة سنه.

فقد سأله مدرس اللغة الإنجليزية مرة عن نوع المهنة التي يرغب مزاولتها في المستقبل فأجاب مالكولم إكس «المحاماة».. إلا أن مدرسه نصحه بالعدول عن الفكرة والاتجاه نحو تعلم التجارة ومزاولتها. هذا مع أنه كان دائماً أحد الثلاثة الأوائل في فصله.؟!

ترك مالكولم ولاية ميتشجان في صيف عام ١٩٤٠ وهو في الخامسة عشرة من عمره واتجه إلى مدينة بوسطن على الساحل الشرقي من الولايات المتحدة ليعيش مع أخت كبرى له هناك.

وكانت تلك الرحلة نقطة تحول هامة في حياة مالكولم كما يروي هو عن نفسه في ترجمته الشخصية. لقد كانت رحلته نَقْلَةً إلى فصل آخر من فصول «مدرسة الحياة» التي كان مالكولم إكس تلميذاً من أشهر وأنجب تلامذتها.

دخل مالكولم المراهق ـ آنذاك ـ في بوسطن عالم الليل ينظف الأحذية في النوادي الليلية ويغسل الصحون في المطاعم والقطارات. كما دخل أيضاً عالم السوق السوداء والقمار والمخدرات وتجارة البغاء حيث يسود قانون الغاب، وحيث تبنى الحياة كلها على الخداع والممالأة والتحايل والمكر والدهاء.. دخل مالكولم ذلك الخضم.. وأخذ نصيبه وافراً كاملاً.. ونزل إلى أعماق مواخير الحياة الأمريكية حتى صار مدمن مخدرات، مما دفعه إلى عالم الإجرام والسرقة وانتهى به الأمر إلى السجن. يقول مالكوم عن نفسه:

لقد صرت أعتقد أن المرء يجب أن يقوم بأي عمل يجد في نفسه كفاية من المكر والسوء أو الوقاحة تمكنه من القيام به.. وأن المرأة لا تزيد عن كونها شيئاً من الأشياء».

قبض على مالكولم في جريمة سرقة، وحكم عليه بالسجن

لمدة عشر سنوات في فبراير ١٩٤٦ وهو ما يزال دون الحادية والعشرين من عمره، وكان السجن أيضاً نقطة تحول جديدة. وفصلاً آخر من فصول المدرسة التي تخرج منها مالكولم بتفوق عجيب ألا وهي مدرسة الحياة.

في داخل السجن استأنف مالكولم تعليمه بمجهوده الشخصي.. وفي داخل السجن تعلم مالكولم فن الخطابة والنقاش..

وفي داخل السجن أيضاً تعرف مالكولم على الإسلام، وآمن به فكان ذلك أخطر تحول في حياته، وبداية مرحلة جديدة شاء الله أن تستمر حتى انتقل مالكولم إلى ربه مؤمناً مجاهداً مرضياً.

تعرف مالكولم على الإسلام عن طريق منظمة تدعو إلى الإسلام بين الزنوج في الولايات المتحدة تسمى «بدولة الإسلام» ويرأسها رجل يسمى (ألايجا محمد) يدعي أنه رسول الله.. وأن الله سبحانه وتعالى ـ قد جاء إلى أمريكا في هيئة رجل ـ في عام ١٩٢٨ (يسمى والاس فارض) وقابل ألايجا محمد وحمله رسالة الإسلام لنشرها بين السود في أمريكا من أجل الارتفاع بهم وتحريرهم من قبضة «الشيطان» الذي هو الرجل الأبيض.

كان مفهوم مالكولم للإسلام عند خروجه من السجن مبنياً على ما وصله عن طريق ألايجا محمد وأتباعه. وكان ألايجا

محمد شخصياً يكتب الرسائل لمالكولم إكس أثناء سجنه، ودخل مالكولم منظمة «دولة الإسلام» ليكون من أنشط رجالها العاملين. فقد كان إيمان مالكولم وحساسيته وشعوره القوي بالمشكلة يدفعه دفعاً للعمل ونشر الإسلام بين السود، وكان لحركته وقدراته ومؤهلاته التي حصل عليها في السجن الدور الكبير في جعله الرجل الثاني بعد ألايجا محمد في «دولة الإسلام». وزاد عدد أتباع ألايجا محمد عشر أضعاف في خلال ثمان سنوات بمجهودات مالكولم إكس ونشاطاته.

وأهم من هذا وذاك أن مالكولم قد بدأ إذ ذاك يعرف حقيقة الإسلام الصحيح وبدأ يتبين سمو هذا الدين. وأنه الطريق الوحيد لبناء مجتمع إنساني راق، لا محل فيه لتفرقة عرقية، ولاستغلال فئة من البشر فئة أخرى، ووضحت لمالكولم إكس إذّاك تلك الشقة الهائلة بين حقيقة الإسلام، وبين تلك الدعوة الشوهاء التي يدعو إليها ألايجا محمد باسم الإسلام وهي ليست من الإسلام في شيء، وتفتحت في نفس مالكولم عندئذٍ رغبة أصيلة وقوية في معرفة هذا الدين معرفة وثيقة كي يصلح ما ساعد على بنائه من حركة زائفة تتسمى باسم الإسلام.

وخرج مالكولم من الولايات المتحدة في أوائل ربيع ١٩٦٤، ميمماً شطر مكة وقاصداً أداء فريضة الحج.

وكان الحج تجربة هزت كيانه من الأعماق. فقد شهد في

عرفة ومنى ومكة حقيقة المساواة بين الناس التي ينادي بها الإسلام، ويطبقها المسلمون، وكتب إلى صديق له يقول:

«لقد شهدت هنا ما لم أحلم به من قبل في حياتي. لقد عشت أسبوعاً في خيمة واحدة مع أناس كانت شعورهم أشد صفرة من الذهب وعيونهم في مثل زرقة السماء، ولم ألمس شيئاً في حديثهم يدل على أن كلمتي «أسود» و «أبيض» تعنيان بالنسبة لهم أي شيء أكثر من إشارتهم إلى اللونين اللذين تدلان عليهما. ولقد تبينت أن ذلك إنما ينبعث من التربية التي يغرسها دينهم في نفوسهم.

قضى مالكولم إكس شهرين بعد الحج في البلاد الإسلامية، يعمل جاهداً على تعلم أكبر قدر ممكن عن الإسلام وتشريعاته وأسسه التي يقوم عليها، وعاد إلى الولايات المتحدة، وكتب يقول:

«إن مهمتنا الأولى هي تحطيم ما أنفقنا عشر سنوات في بنائه»، فقد هاله أن يكون عمله السابق إنما يسهم في إقامة ذلك الزيف الذي يتسمى باسم الإسلام ويخدر السود بأحلام عذبة، دون أن يكون وراءها شيء من الحقيقة، وقد بدأ مالكولم إكس سعيه وجهاده في هذا السبيل بتكوين منظمة أسماها «المسجد الإسلامي الاتحادي» تعمل على نشر الإسلام الصحيح وتقصر نشاطها على البرامج الإسلامية الصرفة.

وأخذ مالكولم من جهة أخرى يعمل في سبيل تحرير السود

في أمريكا ورفع مستواهم في المجالات التعليمية والاقتصادية والروحية وكون لهذا الغرض منظمة «الوحدة الأفريقية الأمريكية» وجعل من أوائل أهدافها رفع قضية السود في أمريكا إلى محكمة العدل الدولية والأمم المتحدة، على أساس أن السود يطالبون بحقوقهم الإنسانية.. لا بحقوقهم المدنية فحسب، وكان يقول: «إذا لم تعط حقوقك الإنسانية فإن من المستحيل عليك أن تصل إلى حقوقك المدنية».

بلغ نشاط مالكولم إكس ذروته بعد عودته من الحج وكانت طفرة شاسعة. تلك التي نقلت الفتى المتشرد الذي سار شوطاً واسعاً في طريق الإجرام وجعلت منه ذلك الإنسان العملاق الداعية إلى الخير والهدى والطريق المستقيم. نعم إنها لطفرة واسعة تلك التي وصلت بمالكولم إكس إلى أن يكون تلميذاً من تلامذة معلم الخير «صلى الله عليه وسلم» وأن يكون داعية إلى الله على بصيرة وهدى من الله. وفي فبراير ١٩٦٥ وقف مالكولم ليخطب داعياً إلى الله.. فإذا بالرصاص ينهال عليه ويخر مالكولم شهيداً في سبيل الله.؟!!

* * *

أما عن الإسلام كما يتصورونه الآن في بريطانيا وغيرها من أقطار الغرب.. فإن هناك هلعاً وفزعاً من هذه الصورة وهذا التصور.

لقد تصوروا صورة الكنائس بعد أن خلعت منها الصلبان ليحل محلها الهلال . . . . وتصوروا المذبح بعد أن تحول إلى قبلة في اتجاه مكة إلى الشرق ، وتصوروا الإبل . ورغاؤها يجلجل في ركن الخطباء بحديقة هايد بارك Hyed Park ولم تتخلف صحيفة واحدة عن هذه الحملة الصليبية بدءاً من التايمز The Times وانتهاء بالصنداي تلغراف The Sunday Telegraph وقد نشرت هذه الأخيرة أي الصنداي تلغراف مقالاً تقول فيه تحت هذا العنوان : «مواجهة الخطر الإسلامي[1]» "Meeting The Islamic Threat" .

لم يحدث في تاريخ البشرية كله أن حقق رد الفعل الديني ثمرات هائلة من هذا القبيل إذ يبدو أن الدول العربية توشك أن ترث العالم كله دون أن تحتاج إلى الأخذ بشيء من المبادىء والأساليب التي يفترض أنها تحقق التقدم (مثل الجدية والعمل الدائب والتعليم والديمقراطية والمنهج الحر) أو التخلي عن المبادىء والأساليب التي يفترض أنها تعيق التقدم (مثل الغموض الديني والقسوة والقمع والفساد والكسل . . . إلخ) .

ولهذا فإن الناس في بعض الدول العربية قد أخذوا يجددون إيمانهم بالإسلام وذلك بسبب الآلام التي تعرضوا لها بعد ردتهم عنه ، أما في بعض البلاد العربية الأخرى فإن الناس

(١) العدد الصادر يوم ١٧ ديسمبر ١٩٧٨ م ص ١٨ .

أخذوا يعمقون إيمانهم بالإسلام بسبب الخيرات التي عادت عليهم من التمسك به . . إلا أن الشيء الذي يشترك فيه الفريقان هو أنهما أصبحا يحتقران الأوثان الغربية التي باتت في أعينهم مصدراً للعجز والتفسخ .

ومن نافلة القول أن هذا الانطباع عن قوة الإسلام وعجز الغرب ما هو إلا وهم خالص ، فلو أن الغرب أراد أن يستعمل قوته الاقتصادية ، فضلاً عن قوته العسكرية لاستطاع أن يحطم المسلمين دون أية صعوبة . إلا أن شعور الغرب بالإثم أي شعور ما بعد الاستعمار في أوروبا وما بعد فيتنام في الولايات المتحدة ـ شعور من القوة بحيث يجعل الغرب يحجم عن استخدام قوته هذه وبذلك يشجع المسلمين على تجديد إيمانهم بأنفسهم وبمصيرهم .

وإلى أن يتم أولاً فهم هذا الاندفاع الإسلامي الجديد في إطار الدوافع الراسخة التي تقوم من ورائه فإنه لا يمكن إيجاد الحلول الصحيحة والمناسبة ولا بد أن يكون من بين هذه الحلول إمكان استخدام القوة المسلحة . فتشجيع الانطلاقة الإسلامية الجديدة على تصور أنها تستطيع أن تشن طرازاً جديداً من الجهاد دون أن يقابل عنفها بعنف من جانبنا يعني في الواقع الحكم على العالم النصراني بمصير مهين يجلبه على نفسه قدر ما يستحقه . ! ! !

* * *

أما في فرنسا فقد نشرت جريدة Le Monde الليموند سلسلة من المقالات المثيرة تحت عنوان «ألف مليون مسلم يستعدون للموت في سبيل الله» وفي واحد من هذه المقالات تقول صحيفة الليموند:

بعد انتهاء الحرب العالمية صحا الإسلام من نوم دام ألف عام حيث يبدأ الإسلام في الانتقام. . . ، فبعد جهاد كبير لتحرير أنفسهم من الاستعمار أصبح المسلمون أحراراً في أوطانهم، ولو استبعدنا إسرائيل التي تعد كجزيرة وسط ملايين العرب مع القليل من المسيحيين اللبنانيين يمكن أن نقول أن الشرق الأوسط من طهران للقاهرة ومن كابول للخرطوم يكوّن محيطاً إسلامياً حقيقياً أي أكثر من ١٠٠٠ مليون من المسلمين.

وكثيراً ما نتخيل أن جنوب شرقي آسيا مقسمة بين أرض بوذا وكارل ماركس بينما هي تحتضن أهم الجماعات الإسلامية في العالم ونحن نكشف عن ١٣٠ (مائة وثلاثين مليوناً) في أندونيسيا و ٨٠ (ثمانين مليوناً في الباكستان) و ٧٠ (سبعين مليوناً في بنجلاديش و ٧٠ (سبعين مليوناً في الهند)، كما يوجد في الصين الشعبية حوالي ٣٥ (خمسة وثلاثين مليون) مسلم مركزين في منطقة سبنكيانج[1] حول قبائل الأويجورس

(١) عدد المسلمين في الهند لا يقل عن ١٠٠ مائة مليون.
عدد المسلمين في الصين لا يقل عن ٩٠ تسعين مليوناً، كما أن عدد=

والكازاخ، وحصلوا من النظام الصيني الحاكم الجديد على إذن لفتح المساجد العديدة وإعادة طبع القرآن مع السماح لهم بالحج إلى الكعبة.

وحسب تعداد ١٩٧٩ الذي نشر عام ١٩٨٠ فإن عدد المسلمين في الاتحاد السوفيتي يفوق بكثير عن ٤٣ مليوناً[1] من بين ٢٦٢ مليون مواطن سوفيتي أي أن هناك مواطناً روسياً مسلماً بين كل ستة سوفيت، وروسيا بذلك تصبح خامس قوة إسلامية في العالم بعد أندونيسيا وباكستان والهند وبنجلاديش، هذا دون أن ننسى التزايد المذهل بين المسلمين ونسبة الخصوبة المنخفضة بين الروس والسلاف في الاتحاد السوفيتي.

ويقدر من الآن أنه في أواخر القرن العشرين سيمثل المسلمون ربع إذا لم يكن ثلث عدد السكان السوفيت. أما أفريقيا الشمالية فيمكن أن يقال أن سكانها جميعاً مسلمون.

والإسلام بالنسبة لأفريقيا السوداء يعيش أحسن أيامه في الانتشار، وأنه من بين ٢٠٠ مليون شخص موجودين في جنوب الصحراء فإن نصفهم تقريباً مسلم، وأكثر التركيز السكاني موجود

= المسلمين في أندونيسيا حوالي ١٣٠ مليوناً وفي بنجلاديش لا يقل عدد المسلمين عن ٩٠ مليوناً.

(١) عدد المسلمين في الاتحاد السوفيتي تجاوز الخمسين مليوناً.

في نيجيريا حيث يوجد ٣٨[1] مليون مسلم وهو حوالي نصف عدد السكان في دولة تعتبر من أكثر الدول الأفريقية تعداداً.

وفي أثيوبيا هناك ١٢ (اثنا عشر مليوناً) من المسلمين[2]، وفي السنغال أكثر من ٤ مليون أما في موريتانيا فهم مليون ونصف، وفي أفريقيا السوداء تدخل قرى بأكملها في الإسلام مثلما حدث لرئيس الجابون البيربرنار بونجو الذي أصبح منذ أن أشهر إسلامه الحاج عمر بونجو. ولا شيء يمكنه إيقاف الإسلام في تحركه لا الغابات الكثيفة ولا الصحراء الشاسعة يمكن أن توقف انتشار هذا الدين.

في تركيا ذات التاريخ الضخم لديها أكثر من ٤٠ (أربعين مليوناً)، أما في ألبانيا فإن ٧٠٪ من السكان مسلمون وأن الإسلام هو الاهتمام الأول لهؤلاء السكان، ويقول الكاتب أن أكثر المحللين تشاؤماً يمكن أن ينظروا إلى ألبانيا على أنها رأس الجسر التي سيعبر عليها الإسلام فاتحاً أوروبا[3] . . . !!!

وهناك على الأقل دولة أوروبية بها عدد أكثر من المسلمين في ألبانيا، وهذه الدولة هي فرنسا، فألبانيا بها مليون ونصف

---

(١) عدد المسلمين في نيجيريا لا يقل عن ثلثي السكان أي حوالي ٥٥ (خمسة وخمسين مليوناً).

(٢) المسلمون في أثيوبيا أو الحبشة أكثر من ٦٥٪ من مجموع السكان.

(٣) يقولون هذا عن مسلمي ألبانيا بالرغم من القهر الشيوعي الذي يعاني منه المسلمون في ألبانيا.

مليون مسلم، أما فرنسا ففيها ٢ مليون مسلم منهم نصف مليون مواطن فرنسي وبالأخص (الهاركي) وهم الجنود السابقون الذين هربوا من الجزائر.

ولا بد أن المفكر الفرنسي (رينان) يتقلب حالياً في تربته فهو الذي كان يعد أكثر الناس عداءً للإسلام والذي كتب عام ١٨٩٢ **«إن الإسلام هو التعصب، الإسلام هو احتقار العلم، الإسلام يمحو المجتمع المتمدن . . فالإسلام هو البساطة المفزعة للفكر السامي الذي يحجب عن الفكر الإسلامي كل فكرة طيبة وكل مشاعر رقيقة وكل بحث عقلاني»** . . . ؟!

فالإسلام يقوم حالياً بعملية إبهار وصلت به إلى درجة التأثير على شخصيات أوروبية مرموقة فكرياً دخلت الإسلام منهم مصمم الباليه المعروف موريس بيجار وميشيل شركيوفتس المثقف البولندي الأصل وصاحب دار نشر معروفة في فرنسا ومترجم الخواطر الروحية للمجاهد المغربي عبد القادر، فضلاً عن دخول الأستاذ الجامعي فانش مونتي الذي كتب عدداً من الكتب عن الإسلام، والفيلسوف روجيه جارودي الذي ظل فترة طويلة من أنصار ماركس، وعالم التاريخ الكبير بيبيربنواميثان الذي كتب تاريخ حياة ابن سعود.

وبسبب المهاجرين العرب عاد المؤذن في القرية الأندلسية بعد خمسة قرون من استرجاع الملوك الكاثوليك وطرد آخر العرب من هناك، والأندلس المقدسة التي يلجأ إليها

المسيحيون للبركة تسمح الآن اسم الله (في آذان المؤذن المسلم).

* * *

وقد كتب أحد المفكرين الفرنسيين مقالاً تحت عنوان: هؤلاء الفرنسيون اختاروا الله يقول فيه[1]:

الكونت «دو. . .» يمثل في نظري فرنسا القديمة بملوكها وكنيستها، إنه يمت لي بصلة القرابة عن بعد، وكان مصوراً فوتوغرافياً للبابا بولس السادس، وهو مغرم بعلم اللاهوت، وإلى جانب ذلك فهو من كبار الجامعين للمؤلفات الفنية.

اعتاد في ولائم الأسرة أن يصف لنا آخر صورة للسيدة العذراء التي أتم رسمها كما كان كثيراً ما يقودنا إلى تاريخ القساوسة الطويل، ويصف أعمال القديسين الباهرة. . .

وفي العام الماضي تفجرت بيننا مفاجأة مذهلة. . . كنا جلوساً حول المائدة عندما صاح الكونت (المسيح ابن الله، ومريم أم الإله، هذا كلام ما عاد محتملاً. . هيا. . دعونا من هذا فالله ليست له أم وليس له ولد. . وفوق كل ذلك فهو ليس الكائن الذي أخبرونا عنه، بأنه ظهر في القدس يصنع المعجزات منذ ألفي عام، الله ليس هذا الإنسان). .

قال الكاتب الفرنسي: «غلبتنا الدهشة لهذا التحول

---

(١) نقلاً عن كتاب «مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه» فضيلة الشيخ محمد الغزالي ص ١٥ وما بعدها.

الخارق، بيد أننا لم نضطرب بعدما تكشفت لنا الحقيقة، وعرفنا أن الكونت «دو. . .» قد اعتنق الإسلام. .

إن آخرين فعلوا مثله، فليس هو الوحيد الذي غير دينه.

هذا «روجيه جارودي» أعلن إسلامه، وهو مفكر فرنسي نابه، عضو قديم في الحزب الشيوعي، والقائد «كوستو» أسلم هو الآخر. .

و «موريس بيجار» أسلم وانضم إلى المذهب الشيعي. .

و «ديران سوفلان» مراسل جريدة «لومند» دخل الإسلام أيضاً.

ثم «فانسان مونتيل» المتخصص في الدراسات الإسلامية هو كذلك أحد المرتدين ـ يقصد الكاتب أنه ارتد عن المسيحية ـ وهناك عشرات من المفكرين والفنانين والمغامرين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام، بل هناك أضعاف ذلك من الشبان الحدثاء الأسنان الذين عرفوا الإسلام في المغرب، والهند، والباكستان أعمارهم بين الخامسة والعشرين والثلاثين، وقد قرروا أن يعبدوا الله وحده، ومضوا في الطريق الذي آثروه. .

وكنيسة باريس السيئة الظن بالأمور ـ هكذا يقول الكاتب ـ تحصي الذين اعتنقوا الإسلام من أصل فرنسي بمائة ألف مسلم، وهذا الإحصاء لم يجمد، فمنذ سنتين أو ثلاث يزيد هذا العدد، هل زاد عشرين ألفاً؟ أو خمسين ألفاً؟ . . . لا ندري . . .

ويستأنف «تييري دي بومون» حديثه قائلاً: إنني استطعت أن أفهم حركة المنضمين إلى المذاهب المنحرفة خلال السبعينات من أتباع «صن يونج مون»، و «جوروماراجي» «وهاري كريشنا».

بيد أنني كنت على مسافة مائة ميل من التفكير في أن فرنسيين يعتنقون الإسلام.. أتكون هذه القضية مغالطة تاريخية أخرى؟ أم ماذا؟

ورأيت إشباعاً لفضولي أن أذهب لرؤية الكونت، أعرف شقته التي يقطنها إنها تشبه المتحف الذي يضم تراث الأجداد، وبها أخشاب مزخرفة، وأثاث من القرن الثامن عشر، وتماثيل غريبة..

ورأيت أمام المدفأة الموجودة بالصالون تمثالاً «لجان دارك» وهي تشير بيدها في اتجاه الدهليز، وبينما أنا غارق في التأمل سمعت الكونت يقول لي: ألا تحب أن تزور الغرفة التي أصلي فيها؟

وتبعته في ممر مظلم، ومررنا أمام حمام، فأشار إلى مغسل قديم ـ بانيو ـ من القصدير ـ وكان قطعة أثرية رائعة حقاً ـ وقال: هنا أتطهر أولاً للصلاة، ثم انتقلنا إلى غرفة صغيرة بها كرسي، وسجادة، ولاحظت أن هناك خطاً أبيض مرسوماً على الأرض «الباركيه»، لعله يحدد القبلة..

قال الكونت: في هذه الغرفة كان يجتمع رهط من كبار العلماء، ومن الشيوخ الصالحين، كنا نقيم الصلاة هنا.. خلف كنيسة «سانت جيرمان دي بري».

قال الكاتب الفرنسي: عندئذٍ خامرني إحساس غريب، لقد تغيرت نظرتي للمتعصبين الفوضويين الذين يعلنون على الغرب حرباً مقدسة، أن هذه النظرة تلاشت وحل مكانها شعور آخر.. أساسه أن فرنسا إذا أسلمت فسيتم ذلك من الداخل، لا من غزو خارجي..؟!

ومضى تفكيري في مجراه: إذن في الأوقات المختلفة فجراً أو عصراً سوف يفرش آلاف الفرنسيين سجاجيدهم، وسوف يركعون ويسجدون بعد أن يستمعوا إلى مؤذن منهم يصيح: الله أكبر الله أكبر.... أما النساء فيضعن على رؤوسهن مناديل من القماش، وينفردن في صفوف خاصة.

وتخيلت فرنسا كلها وقد اعتنقت الإسلام.. ماذا سيحدث؟ لن تجد سكارى في الطرق ولن تبقى هناك تماثيل، ولا إعلانات جنسية، ولا برامج منوعات وستتحول الكنائس إلى مساجد، ويعاد طلاؤها باللون الأبيض.. والمحال التي تبيع لحم الخنزير ستغلق أبوابها..

ومضى الكاتب في خياله يقول للفرنسيين: إن شيئاً من ذلك لم يخطر ببالكم وأنتم ترون العمال المسلمين النازحين إلينا

يخرون سجَّداً أمام مصانع السيارات التي يعملون بها وهم يؤدون صلواتهم.

وصحا الرجل من خياله على صوت الكونت يقول له: هذه نسخة من القرآن المجيد إن الإسلام هو المولود الأخير بين الديانات الكبرى.. وهو يقبل اليهودية والنصرانية لأنه جاء بعدهما..

وعاد الكاتب يحدث نفسه.. يبدو أن الكونت مقتنع كل الاقتناع بالدين الذي ارتضاه، أما أنا... فإنني أتساءل بجد: هل يجيب الإسلام عما يهجس في نفسي في هذا الشأن؟ لقد توقفت أبحاثي في العبادة عند تعاليم الدين المسيحي، وقد تلقيت دروساً إجبارية ومنفرة Catedusm عن القانون الديني.. بيد أني لم أصدق يوماً بها، ولم أعتقد في الإنجيل أو المعجزات أو قيامة المسيح..

يمكن أن أعاود أبحاثي في العبادة التي انقطعت من عشر سنوات، لا سيما وأن أقراني الذين اشتغلوا بالسياسة ارتدوا خائبين، ومن حسن حظي أني لم أغامر بالدخول في ميدان السياسة.. اليوم أستطيع استئناف نشاطي القديم، والذي رفضته في الكنيسة لن أجده في الإسلام.. إن عبادة الصور المقدسة والصلبان نوع من التمثيل الخطر، هذا، وليس في الإسلام تفاوت بين العابدين، فالمسلمون جميعاً متساوون».

* * *

أما في ألمانيا الغربية.. فقد نشرت مجلة «دير شبيجل» الشهيرة سلسلة من المقالات تحت عنوان «القرآن وحده هو الذي يقود» وقد حذرت هذه المجلة من الصحوة الإسلامية التي لو قدر لها النجاح فسوف لا تقف في طريقها أية قوة بعد ذلك في العالم[1].

وفي ألمانيا الغربية أيضاً كتبت صحيفة "Bonner Sonntags Blatt" في عددها الصادر في اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس ١٩٨٠ هذا المقال الذي طفح حقداً وكراهية:

«إن المواطنين خائفون... خائفون من المسلمين.. وهؤلاء المواطنون الفزعون تتمثل أمامهم صورة إيران التي يقرأون عنها يومياً أخباراً جديدة تثير في نفوسهم الذعر...

ويرى أحد علماء الطبيعة أنه أحب لديه أن يبنى مفاعل ذري أمام باب منزله من أن يبنى مركز إسلامي، وذلك لأن المفاعل الذرى يمكن أن يحسب حسابه»[2] وهو يعني بذلك في المقابل أن المرء لا يستطيع أن يتنبأ بما يأتي من أخطار من جانب المسلمين.؟!

ومنذ عدة سنوات تنشر الصحافة الألمانية اتهامات قاسية ضد المدارس القرآنية، تلك المدارس التي تنشر ـ كما يزعمون ـ

---

(١) العدد ٤١ الصادر يوم ٣/ ١٠/ ١٩٧٧.

(٢) Bonner Sonntags Blatt, 24/8/80.

التعصب الديني الذي يؤدي بدوره إلى التحريض ضد كل من يكون له تفكير مختلف، ولا يقتصر الأمر على الجهل التام بالتعاليم الأساسية للإسلام فحسب، بل نجد أيضاً ـ كما يعترف الجانب الكاثوليكي[1] أن مستوى معلومات المسيحيين الألمان عن «القيم والعادات الدينية والعادات الحياتية في العالم الإسلامي ضعيف جداً»، ولذلك تأخذ الجماهير بدون أي نقد الأمثلة المزعومة لأسلوب الحياة وطريقة التفكير الإسلاميين والتي تنشرها الصحف في أخبار الفضائح المصطنعة، وأحد الأمثلة على هذه الأخبار هو المدارس القرآنية، وفيما يلي بعض النماذج من عناوين مثل هذه المقالات «التلاميذ يضربون في المدارس القرآنية»[2].

- «خصوم المدارس القرآنية يجوز قتلهم»[3].
- «الحركات السرية لله في ألمانيا»[4].
- «بالقرآن والهراوات الحرب الصليبية تقودها المراكز الإسلامية في ألمانيا الغربية»[5].

وجاء في المقال الأخير أن المدارس القرآنية تقوم ـ على

(١) Christ Und Welt, 21/2/76.
(٢) Frankfurter Rundschau, 6/6/77.
(٣) Stuttgarter Zeitung, 1/6/78.
(٤) Rheinseher Merkur, 1/1/78.
(٥) Vorwaerts 31/1/80.

سبيل المثال ـ بتعليم الأطفال الأتراك أنه لا يجوز لهم أن يعقدوا صداقات مع الأطفال الألمان لأن هؤلاء مسيحيون ولا يغطون رؤوسهم.. كما تعلمهم أيضاً أن النساء يجب أن يسيروا في الشارع خلف الرجال لأنهن أقل قيمة من الرجال.

كما لا يجوز للمرأة أن تعارض رأي زوجها. وكل ما يدرس في المدارس الألمانية باطل، وأن العقيدة الإسلامية ستغزو العالم كله، وأن الراديو والتليفزيون من المحرمات لأنها أجهزة اخترعها مسيحيون ولم يخترعها مسلمون، وهذه الأمور التي يتعلمها الأطفال لا يجوز لهم أن يتحدثوا عنها خارج المدارس القرآنية وإلا عوقبوا بالضرب. أما المدرسون الذين يقفون موقفاً معارضاً للمدارس القرآنية فإنه يجوز قتلهم.؟!

* * *

أما عن روسيا أو الاتحاد السوفيتي ومن يدور في فلكه من شعوب شرق أوروبا فلا يزال موقف هذه الكتلة من الإسلام معروفاً.. فالمذابح وحروب الإبادة هي الأسلوب الأمثل لدى هذه الكتلة، وما يجري في أفغانستان شاهد حي على صدق ما نقوله في هذه المقدمة ولا تزال أيديولوجيتها تنتهج هذا المنهج مع كل حركة تهدف إلى التخلص من ربقة الشيوعية.

وبالرغم من شدة القمع وإهدار كل القوانين الإنسانية في مواجهة أي تمرد على أسلوب النظام أو الحكم فإن روسيا ترتعد

من أية صحوة إسلامية، وتحسب ألف حساب لأتفه تحرك من الشعوب المقهورة بين يدي قبضتها الدموية..

وقد نشرت مجلة نيوزويك الأمريكية عن هذه المخاوف مقالاً تحت عنوان «موسكو تقبض على الزمام بشدة» وفي هذا المقال تقول هذه المجلة:

ليس هناك في مدينة «أوش» السوفيتية أية مئذنة تشير إلى أن هذه المدينة مدينة إسلامية ولكن على بعد مبان قليلة من وسط هذه المدينة القابعة في وسط آسيا أخليت المساكن المرتفعة التي بنيت على النظام المسكوفي مكانها لمساكن عائلية قامت جدرانها من الطمى، وفي الشوارع الضيقة يرتدي الرجال أغطية الرأس السوداء المربعة التي يلبسها أهل (أزبك) الذين يشكلون واحدة من أكبر الأقليات الإسلامية السوفيتية، وما إن تغرب الشمس هناك حتى ترتفع كلمة (الله) وتدوي من خلال الأغصان الكثيفة لشجرة (الأكاسيا). وهنا يصعد المؤذن وهو رجل كهل ذو لحية يضع على رأسه عمامة بيضاء، ينحني على لوح من الخشب مهتز يرتفع إلى خمسة عشر قدماً بين أوراق الشجرة، ومن هذه المئذنة المؤقتة يؤذن الرجل ويدعو المؤمنين إلى الصلاة.

وقد أصبح مثل هذا المنظر مرئياً بصورة متزايدة في الاتحاد السوفيتي حيث يشكل المسلمون من مختلف القوميات نحو

٤٣[1] مليون مواطن سوفيتي، تصل نسبتهم إلى ١٦,٧٪ من إجمالي عدد السكان ويمكن أن يرتفع رقم المواليد قبل عام ٢٠٠٠ إلى أن يصل عدد المسلمين إلى ٦٤ مليون، أي نحو ٢١٪ من مجموع عدد السكان. وهذه النقلة في عدد السكان ستخلق معها مشكلات عديدة للقيادة السوفيتية فستجبر حالة النقص في العمالة في روسيا الأوروبية الحكومة إما إلى إعادة نقل المصانع إلى آسيا الوسطى أو إلى أن تقنع سكان آسيا الوسطى بالانتقال إلى الشمال، وبسبب تزايد عدد المسلمين هناك مشكلات أخرى داخل القوات المسلحة السوفيتية وذلك لأن كثيراً من المجندين المسلمين لا يتحدثون بالروسية إلا بصورة ضعيفة، وهنا لا يسع الكرملين إلا أن يشعر بالقلق إزاء حركة القومية الإسلامية المتطرفة التي تسود الآن إيران وأفغانستان وباكستان...

* * *

إن الحرب ضد الإسلام في قمتها.. شرقاً وغرباً.. لا خلاف بين أمريكا أو روسيا في هذه الحرب.. كلاهما يعمل على تدمير الإسلام ومحوه من فوق هذه الأرض، وكلاهما يسعى لاجتثاث جذوره وعقائده من كل قلب، وكلاهما يخادع ويناور في استدراج الضحية إلى شراكه كي يقضي عليها في

---

(١) المسلمون في الاتحاد السوفيتي لا يقلون عن ستين مليوناً.

هدوء وصمت . . يحدث هذا كله والمسلمون في غفلة . . بل يتم تنفيذه على أيدي بعض الزعماء والحكام في أكثر من دولة .

و « . . في خاطري[1] صورة عمرها أكثر من أربعين سنة ، لا هي تغيب ، ولا أنا أنساها ، أو أمل التذكير بها . . صورة نقلتها الصحف عن إحدى المجاعات في الهند خلال الأربعينات ، فشاعت وذاعت ، مثلما انتشرت صورة الطفلة الفيتنامية التي كانت تجري والنار تشتعل في جسدها من النابالم الأمريكي . . ولكن الصورة الهندية كانت مختلفة تماماً ، فهي صورة فلاح هندي أنهكه الجوع فقط بلا حراك إلا عيناه التي تدور وتنبىء باستمراره حياً . . وفي الصورة نرى ذراعه ممتدة إلى جانبه ، وقد برزت عظامها حتى كأنها بلا جلد ، وكلب جائع مسعور ينهش هذه اليد ، والرجل ينظر إليه ولكنه عاجز عن نهر الكلب ، عاجز عن جذب يده من أنيابه ، عاجز حتى عن الصراخ . . وإنما نظرة غريبة ليست من هذا العالم نظرة ميت لو كان الموتى ينظرون . . . جثة تأخر دفنها ، وكائن حي فقد كل خصائص الحياة . . أربعون عاماً ، وهذه الصورة تقفز إلى خاطري ، كلما واجهت أمتنا كارثة أو اعتداء وعجزت حتى عن التألم . . . فنحن في حالة من العجز والشلل تشبه حالة هذا الفلاح الهندي ، ونحن على هذا الحال منذ قرون عديدة قد تتجاوز

(١) هذا الكلام للأستاذ محمد جلال كشك نقلاً عن كتابه «إنهم يبيدون الإسلام في بلغاريا» ، ص ٧ ـ ١٦ .

الأربعمائة سنة بدأت بتخدر ثم شلل في الأعصاب ، أفقدنا الحس والتجاوب والقدرة بل حتى الرغبة في المقاومة ، فقد كان العثمانيون يدقون أسوار «فيينا» ولكنهم لم يحركوا ساكناً لإنقاذ ثمانية ملايين مسلم ومسلمة في الأندلس ، حيث جرت أول وأضخم عملية إبادة جماعية لشعب بأكمله على يد الكنيسة والدولة الكاثوليكية في إسبانيا والبرتغال ، وتلك الجريمة التي تحلل منها الضمير العالمي ، بحذفها من ذاكرة التاريخ ، فهي لم تقع . . . . ولا يوجد مرجع غربي حاول أن يفسر ، ولا أقول أن يدين ، لغز اختفاء شعب بأكمله ، وزوال حضارة دامت حوالي سبعمائة سنة ، ولا حاجة للحديث عن كمية ما نشر عن الستة ملايين يهودي ، بل ما نشر عن اختفاء السبط الثاني عشر من بني إسرائيل أو اليهودي التائه أو ما أثير حول أصل الفلاشة . . ولكن لا أحد يهتم بالبحث عن شعب الأندلس الضائع ، لا أحد يقدم أمام محكمة التاريخ واقعة إبادة هذا الشعب . . لا أحد استقصى أصل ودين العبيد الذين نقلوا من العالم القديم إلى العالم الجديد في سفن الأوروبيين ، وفي طليعتها إسبانيا والبرتغال ، ولا كلمة عن مئات الألوف الذين ماتوا على المجداف في هذه السفن وتحت ضربات السياط ، أو في حقول أمريكا ، والذين ما زالت أسماؤهم ودماؤهم وألفاظهم في دول أمريكا اللاتينية تشي بأنهم مسلمو الأندلس وسواحل أفريقيا ، وتشير بأصابع الاتهام إلى الجريمة التي ارتكبتها حضارتهم وما

زالت مستمرة بالإصرار على تجاهلها وحذفها من التاريخ . .
ولأن الفكر العربي المعاصر هو مجرد مسخ للفكر الأوروبي ، فإن كتابنا لم يكتفوا بجهل مأساة إبادة الأمة الأندلسية وتناسيها ، بل نجد بعض كتابنا إذا ما أراد التشهير بالإسلام والمسلمين يصرخ قائلاً : «تريدون إعادة محاكم التفتيش؟» . . ويظن جيل الجهل من تلاميذ هذه المسوخ ، أن محاكم التفتيش ظهرت في العالم الإسلامي ، أو أنها اختراع إسلامي ، أو استخدمها المسلمون ضد مخالفيهم في العقيدة أو لتغيير دين الشعوب التي خضعت للسلطة الإسلامية . . .

وكلنا نعرف أن السلطة الإسلامية هي أول سلطة في تاريخ البشرية اعترفت بحق رعاياها في اعتناق دين مخالف للدين الرسمي للدولة أو دين الفئة الحاكمة . . . وأنه في تاريخنا عبر ألف سنة لم يعدم أو يعذب إنسان بسبب معتقداته ، وإنما لأسباب سياسية وللصراع على السلطة .

أما الحقيقة التي لا يكاد يذكرها أحد ، فهي أن محاكم التفتيش ظهرت أولاً وأخيراً وفقط في أوروبا الكاثوليكية ولكن أهم من ذلك أنها ظهرت أولاً وأساساً ضد المسلمين ولتنظيم إبادتهم في جنوب أوروبا وبالذات في إسبانيا والبرتغال حيث كان الشعب الأندلسي المسلم . . . ومحاكم التفتيش هذه ، التي كانت باكورة هدايا الحضارة الغربية الناهضة للجنس البشري ، هي التي عذبت المسلمين حتى الموت أو الردة عن

الإسلام ، وحققت هدفها بنجاح لم يستطعه طاغية عبر التاريخ الدموي للبشرية ، ولا حتى في حالة الهنود الحمر ، فقد بقيت بقية من هؤلاء إلى اليوم ، ولكن في ظل الحضارة الأوروبية وعصر النهضة وسلطة الكنيسة الكاثوليكية، اختفى شعب بأكمله فلم يبق في ما كان يعرف بالأندلس أو إسبانيا والبرتغال اليوم ، لم يبق مسلم واحد ولا ناطق بالعربية ولا مسجد واحد وأحصوا عدد غير المسلمين وعدد الكنائس في البلدان التي حكمها المسلمون . . .

نحن الذين لم نجبر مسيحياً واحد في الأندلس على الإسلام ، ولا أغلقنا كنيسة في وقت كان بوسعنا إبادة جميع المخالفين دون خسائر مادية . . . نحن الذين تركناهم يتمتعون بالقدرة على الحركة والتآمر حتى انقضوا على الدولة الإسلامية كنا أول ضحايا محاكم التفتيش ، ومع ذلك تجد المفكرين الغربيين إذا تحدثوا عن «محاكم التفتيش» لا يذكرون المسلمين بحرف . . . وإنما يروج هؤلاء أن ضحاياها هم اليهود أو المذاهب المسيحية المنشقة . . .

(وليس إلا في كتابات حديثة جداً بدأ الاعتراف بوجود المسلمين في تلك الفترة وأن إجراءات الإبادة والقهر العقائدي كانت موجهة لهم «أيضاً» وهذا يأتي عرضاً في سياق الحديث عن اضطهاد اليهود . . . وصحيح أن هذه المحاكم نالت بعذابها اليهود ثم المخالفين والمنشقين من المسيحيين ، وهذا

تطور طبيعي من قبل كل سلطة ديكتاتورية، أن تبحث باستمرار عن وقود لنار إرهابها، ولا شك أن أفول شمس الحضارة الإسلامية، كان بداية عصر مظلم من العنصرية والشوفينية والخلافات المذهبية التي حسمت كلها بالحديد والنار والقمع، وقارن التسامح الذي كان سائداً في الامبراطوريات الإسلامية من الهند إلى الأندلس، بما أعقبه من حروب قومية وتصفيات دينية مع نهضة أوروبا وسيطرتها على حركة التاريخ). . .

ونفس التجاهل أو الحذف من التاريخ نجده إزاء إبادة المسلمين في الفلبين حيث كانوا الأغلبية على زمن «ماجلان» فتحولوا إلى أقلية تجرى إبادتها إلى اليوم، ونفس الموقف من الْتهام روسيا المقدسة بقيادة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، للعالم الإسلامي الإيراني حيث كان السكان مائة بالمائة مسلمين، وحيث عاشت وازدهرت حضارة إسلامية من أرقى الحضارات التي عرفها الإنسان، بنجوم شوامخ في تاريخ الفكر البشري. . . سقطت كلها تحت قبضة الاستعمار الروسي عبر مجازر وحروب وثورات لا تكاد تجد لها مكاناً في التاريخ، تماماً كما نقلت السلطة الروسية هذه الممالك خارج هامش التاريخ. . . وإلا فأين هو العالم الذي ظهر في ظل السلطة الروسية، القيصرية والشيوعية، الذي يصل إلى فك سيور حذاء البخاري أو ابن سينا؟ . . .

ونفس الشيء عن الإبادة والتجاهل في دول إفريقيا التي

كانت أغلبيتها مسلمة، وها هو مؤلف رواية «الجذور» عندما راح يفتش عن جذور الأمة الزنجية في أمريكا لم يستطع، رغم أنه مسيحي، أن ينكر حقيقة كون هؤلاء السود الذين اختطفوا واسترقوا ونقلوا إلى الولايات المتحدة، جاؤا من بلدان إسلامية وعائلات وقبائل مسلمة، ولكن هذه الحقيقة محيت محواً من ذاكرة الإنسان الأبيض، ومن ثم جهلها أو تجاهلها الببغاوات التي تكتب بالعربية. . .

وما لنا نذهب بعيداً، وهذا القس الذي يحكم تنزانيا[1] التهم في النصف الثاني من القرن العشرين دولة مسلمة ذات تاريخ عريق وأمجاد غابرة، وفرض عليها شريعة كنيسته ثم غزا أوغندا المسلمة وأسقط السلطة الإسلامية، وسلمها لمتعصبين متوحشين حيث ينفذون الآن أبشع عملية إبادة للمسلمين، ورغم الاتفاق «العالمي» على الصمت والتجاهل فإن رائحة الجريمة تتسرب هنا وهناك بما يكفي لإدانة التاريخ كله.

وتكفي مقارنة الحملة الضارية التي كانت في أجهزة الإعلام العالمية ليل نهار ضد «عيدي أمين» الذي لم يتجاوز الحد المسموح به بين طغاة العالم الثالث في معاملة خصومه السياسيين الذين ثبت الآن أنهم كانوا يتلقون الوحي والمدد من

(١) جوليوس نيريري الذي استقال أخيراً من منصب الرياسة ليحكم شعب تنزانيا المسلم بغير مساءلة من وراء الستار.

قوى خارجية معادية، ولكن ما من أحد اتهم «عيدي أمين» بالإبادة الجماعية أو الحرب الدينية، وهو عين ما يجري الآن في أوغندا ضد القبائل المسلمة مع صمت الإعلام الغربي وتابعه العربي وتجاهل العالم الحر... إن قبائل بأكملها تباد في أوغندا اليوم بالقتل والتجويع لمجرد أنها مسلمة...

الحملة على «عيدي أمين» والصمت على جرائم الذين خلعوه، لم تكن استثقالاً لدمه ولا رفضاً لديكتاتوريته، وإلا فما فضل «موبوتو» أو «نيريري»... إلخ وإنما لأن «عيدي أمين» كان يمثل «سلطة إسلامية» بصرف النظر عن مستواها... وهناك قوى معينة جد معروفة، جعلت هدفها الأول، هو إزالة السلطة الإسلامية من إفريقيا، لتتمكن من إبادة المسلمين وإزالة الإسلام من إفريقيا... وهي تستخدم كل الأساليب، وتكشف كل الأوراق حتى الخفية وتضم خليطاً عجيباً يحتار العقل العادي في فهم تجمعهم واتحادهم... ويكفي أن تتأمل الحلف الغريب المدهش الذي تجمع حول الحبشة ضد الصومال في الصراع حول مسلمي إقليم أوغادين الذي تحتله الحبشة وتبيد المسلمين فيه...

«هيلا مريم» الذي ذهب إلى أول مؤتمر إفريقي يحضره يناشد زعماء إفريقيا التصدي «للخطر الإسلامي» في إفريقيا... من المعقول أن تقف معه الولايات المتحدة وروسيا وإسرائيل ومجلس الكنائس العالمي في سبيل هذا

الهدف... ولكن فسروا لنا كيف ولماذا تقف معه اليمن الجنوبية وليبيا؟

كذلك أبيد المسلمون ويبادون في بولندا واليونان ويوغوسلافيا ورومانيا وقبرص، كلها كانت تضم نسبة مؤثرة من المسلمين، وبعضها كانت الأغلبية فيه مسلمة، ثم سقطت في قبضة السلطة اللا إسلامية بتدبير وتنفيذ القوى الغربية التي لم تنس عداءها للإسلام لحظة واحدة، ولا كفت عن كيدها وحربها ضد المسلمين... ومن الغريب أن بعض «الرحالة» المسلمين يهتز فرحاً عندما يزور هذه البلدان ويكتشف «حفريات» إسلامية هناك... ويحسب أن هذا من انتصارات الإسلام المعاصر وهو لا يدري أنه يشهد بقايا المذبحة...»[1]

* * *

وبعد...

فعندما سقطت... باريس... تحت جحافل فرق «البانزرت» الألمانية في بداية الحرب العالمية الثانية... قرر شارل ديجول الانتحار... لكنه قبل أن يطلق على نفسه الرصاص أرسل في استدعاء أحد القساوسة ليعترف أمامه بجرائمه وخطاياه...

---

(١) انتهى من كتاب «إنهم يبيدون الإسلام في بلغاريا»... للأستاذ جلال كشك.

وهنا سأله القسيس: لكن... لماذا تقدم على الانتحار؟

فأجابه ديجول: لأن سقوط «باريس» معناه سقوط الغرب، وسقوط الغرب يعني انتصار الإسلام، وأفضل لي أن أنتحر وأموت قبل مجيء هذا اليوم الذي ترتفع فيه راية الإسلام...!!!

* * *

أرأيتم إلى أي مدى يتغلغل الحقد والكراهية للإسلام؟ أما لماذا؟... فقصة يرجع تاريخها إلى ألف وأربعمائة عام...

وسواء أكان هذا الحقد سببه الخوف، أو تصورهم بأن الإسلام يعني القتال أو السيف... فقد كان إجراء هذا الحوار عن «الإسلام والحرب» ضرورة يفرضها الإيمان بالواجب والحق، ويفرضها الإيمان بالإنصاف والعدل، ويفرضها الإحساس بجسامة الإهمال والتقصير من جانب المسلمين تجاه الإسلام وما يتعرض له المسلمون من أباطيل وافتراءات في الشرق والغرب...

دكتور
عبد الودود إبراهيم شلبي

غرة رمضان المبارك ١٤٠٦ هـ
القاهرة.

الحوار الأول

- **الارتباط بين كلمتي الإسلام... والسلام...**
- **الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي...**
- **رفض وتآمر من الروم والفرس...**
- **ولهذا كانت الحرب...**
- **كارليل Carlyle... والدفاع عن الحق...**
- **أسباب أخرى للمواجهة بين امبراطوريتي الشر...**
- **دور قديم للأمم المتحدة...**
- **الإسلام حركة تحريرية لكل الشعوب...**
- **السؤال اليهودي...؟**
- **الاتهام الذي يكذب نفسه...**
- **شهادات لا تقبل الطعن...**
- **من وصايا النبي والخلفاء للجيوش...**
- **بين اتفاقيات جنيف... ومبادىء الإسلام...**
- **القاضي الذي حكم بانسحاب جيش المسلمين...**

كان الوقت مساء يوم أحد، وكان العمل في المسجد أو المركز الإسلامي يبلغ ذروته في مثل هذا اليوم، واليوم الذي قبله . . . أي يوم السبت.

لقد عدت إلى بيتي في ضاحية أشفيلد Ashfield محملاً بتلك الهموم التي أفرزتها الغربة . . . هموم من نوع غريب قلما تجده أو تحسه في بلد إسلامي العقيدة والعاطفة. وبالرغم من توفر أسباب العيش والراحة . . . فلسوف تفاجأ بهذه الهموم في كل رجل تقابله. وفي كل إنسان تعرفه أو تصادفه . . .

كنت في مسيس الحاجة إلى ساعة واحدة من النوم . . . فقد تعودت على الاستيقاظ في الساعة الخامسة صباح كل يوم، وليس من السهل تغيير عادة مارستها حوالي نصف قرن . . . كما أنه من «الشؤم» أن تفوتني صلاة الفجر أو قراءة القرآن بعد صلاة الفجر . . . !

وفجأة . . . وبدون توقع هبت عاصفة رعدية من تلك العواصف الناشئة عن تخلخل طبقات الجو فوق مياه المحيط الباسفيكي أو الهندي . . . فأستراليا تتصل بكلا المحيطين من جهتي الغرب والشرق . . . وكثيراً ما تتعرض لمثل هذه

العواصف التي يتحول فيها الأفق إلى ميدان حرب، وتتوالى فيه الانفجارات في الطبقات العليا من الجو. . . !

* * *

تجاوزت عقارب الساعة السابعة صباحاً. . . ودبت الحركة في الشوارع غدواً ورواحاً. . . إن الحياة في مثل هذه البلاد لا تتوقف أبداً، وقد أعدوا أنفسهم لمثل هذه الظواهر التي ألفوها نهاراً وليلاً. . .

لقد تذكرت على الفور قصتي مع السيدة ماري صاحبة البيت الذي كنت أقيم فيه بمدينة كمبردج Cambridge حين رأتني واقفاً وراء باب البيت في انتظار توقف هطول المطر المنهمر خارج البيت. . . ولم تكد تعرف ذلك حتى استغرقت في الضحك، واستدارت إلى الداخل لتحضر مظلة تقيني من المطر. ثم ودعتني بعد أن قالت:

إذا كنت تنتظر توقف المطر فابق واقفاً في مكانك إلى الأبد، وإلى أن تنتهي حياة البشر فوق هذا الكوكب. . .

* * *

كان بيتي في شارع ألت Alt street أحد الشوارع الهامة في ضاحية أشفيلد، وكان هذا الشارع متفرعاً من شارع رئيسي آخر هو شارع إليزابيت Elizabeth st وفي الجانب المقابل من شارع إليزابيث يوجد محل بقالة أو «ملك بار» Milk Bar تعودت شراء

حاجياتي منه، كانت تدير هذا المحل سيدة تعودت رؤيتها صباح كل يوم. غير أني فوجئت برجلين يحلان مكانها في إدارة هذا المحل. . . كانت سحنتهما غريبة، ونظراتهما مريبة، وشارباهما يذكرانك بشارب الجنرال جريفاس Grivas زعيم منظمة «أيوكا» الإرهابية الشهيرة. . .

لقد أحسست بنظرات هذين الرجلين وكأنها سهام موجهة، وفطنت إلى ما يدور بخلدهما نحوي من أول نظرة.

لقد عرفت بعد ذلك أنهما قبرصيان. ومن فئة متطرفة في العداوة للمسلمين والإسلام. . . كنت أظن أنهما سيرحبان بي كمصري. . . فقد كان لمصر ـ في الستينات ـ موقف سياسي من قضية قبرص. تجاوزت فيها السياسة ـ آنذاك ـ حقوق إخوة الإيمان والعقيدة، وتناست فيها تاريخ هذه الجزيرة التي كانت إسلامية خالصة. . .

ولا أنسى حتى هذا اليوم زيارة الأسقف «مكاريوس» للقاهرة، واستقبال شيخ الأزهر الإمام محمود شلتوت له بحفاوة. كما لم أنس إنعام القيادة السياسية عليه بأرفع وسام تنعم به على شخصية أجنبية زائرة. لقد تواردت الخواطر في ذهني توارداً يشبه العاصفة. . .

والعجيب أنني حين رجعت إلى القاهرة، وبدأت أجمع أوراقي المبعثرة لأعيد صياغة هذا الكتاب في صورته الحالية.

فوجئت بعاصفة خريفية صفقت باب المكتب فتناثرت الأوراق واختفت، أو توارت بين أكوام الكتب، أو هرب بعضها بعيداً خارج حجرة المكتب. . . ؟ . . .

كيف نربط بين هذه الأحداث الصغيرة، وبين موضوع هذا الكتاب الذي يتعرض لأخطر قضية تتصل بالإسلام عقيدة وشريعة. وتاريخاً وحضارة؟ ورسالة ودعوة؟

* * *

غادرت بيتي إلى محطة القطار القريبة من البيت، وفي الطريق إلى المحطة اشتريت نسخة من صحيفة سيدني مورنينج Sydney morning herald التي تعودت قراءتها صباح كل يوم. لقد لفت نظري في هذه الصحيفة مقال ـ كان الثالث ـ من سلسلة مقالات نشرت تحت عنوان Behind the hatred أي ـ بعيداً عن الكراهية ـ كان المقال يتحدث عن الإسلام والمسلمين وتاريخهما الذي شوه عمداً في أوكار الاستشراق والتبشير، وإلصاق تهمة العنف والقسوة بهذا الدين. . .

لقد استغرقت في قراءة المقال حتى وصولي إلى محطة القطار الرئيسية في مدينة سيدني Central station، ومن هناك استأنفت رحلتي اليومية مشياً على الأقدام إلى منطقة سري هيلز Surry hills حيث يقع المسجد والمركز الإسلامي في شارع الكومونولث Commonwealth street . . . في مدخل المسجد كانت تجلس فتاة بجوار جهاز التليفون المثبت عند المدخل.

كان اسم هذه الفتاة أو الآنسة «فيكي» Vieki أو مس فيكي كما قدمت نفسها إلي.

ـ مرحبا بك هنا أيتها الآنسة. . .

قلت ذلك وفي فمي ضحكة مكبوتة كتمتها قسراً. حتى لا تسيء بي الظن. . . وحتى تشرح قصة مجيئها إلى المسجد في هذا اليوم الرديء الطقس. . .

ـ هل قرأت ما كتب عن الإسلام في صحيفة سيدني مورنينج هيرالد؟

ـ تقصدين سلسلة هذه المقالات التي نشر آخرها صباح هذا اليوم؟

ـ هذا ما كنت أقصده بالضبط.

لقد قرأنا هذه المقالات التي كانت تنشر تباعاً في هذه الصحيفة وتباحثنا عمن يمكن مراجعته حول ما نشر في هذه المقالات من قضايا فكرية خطيرة، وقد استقر رأينا على الحضور إليك وبخاصة بعد ما سمعناه عن لقاءات أخرى سابقة في جامعتي سيدني وسان دي فنست، وفي الكنيسة المتحدة في استراثفيلد[1]. قلت للآنسة فيكي Vieki :

---

(1) راجع ما كتبناه حول هذه اللقاءات في الكتب التالية: «التزوير المقدس»، «لماذا يخافون الإسلام»، «في محكمة التاريخ».

ـ لكن متى تريدون إجراء هذا اللقاء؟

ـ سوف أتصل بزملائي للاتفاق، وإذا لم يكن لديك مانع فقد يكون يوم الخميس القادم مناسباً لإتمام هذا اللقاء.

* * *

مرة ثانية... هل يمكن تفسير هذه الأحداث والظواهر؟ لقد قضيت ليلتي السابقة ـ كما قلت ـ مهموماً ومؤرقاً، وتعرضت مدينة سيدني الجميلة لعاصفة رعدية استمرت وقتاً طويلاً... وقصة هؤلاء القبارصة...؟ هل يمكن إسقاطها عن تسلسل هذه الأحداث التي فرضت نفسها فرضاً؟.

هموم ورعد، وحكايات قديمة عن التعصب والكراهية والحقد، ثم هذا اللقاء مع هذه الفتاة التي جاءت تحدثني عن المقالات الثلاث التي نشرتها صحيفة سيدني مورنينج هيرالد... وأخيراً هذا الحوار عن «الإسلام والسيف» أو «الإسلام والقسوة والعنف»...

* * *

في يوم الخميس... وفي الساعة الواحدة بعد صلاة الظهر. دلفت إلى ساحة المسجد طلائع هذا الهجوم المترقب. ثم توالى دخول «الفرسان» على صهوة جياد التبشير المذبذب.!. فتيان وفتيات في مقتبل العمر، ورجال ونساء ممن تقدمت بهم الأعمار والسن.

الآنسة فيكي Vieki والآنسة ماري دي سوزا Mary de Susa والآنسة سيليفيا Sylivia والآنسة أريس Iris والآنسة أليس Alice والآنسة كريستين Kristin والآنسة كارولين Carolyne والآنسة روث Ruth والسيدتان ليندا أرنولد Linda Arnold ونانسي هارولد Nancy Harold أي ثماني آنسات وسيدتان.

أما عن الشباب والرجال فكان عددهم اثني عشر فتى ورجلاً. السيد ماكفرلين Makfarlane والسيد فوكس Fox والسيد بول Paul والسيد إدوارد Edward والسيد جون John والسيد رتشارد Richard والسيد ماكميلان Macmiland والسيد ديفيد David والسيد جوزيف Joseph ـ وهما يهوديان ـ والسيد متشيل Micheal والسيد أندرو Andrew وأخيراً السيد جراهام Graham.

* * *

قلت للآنسة فيكي مازحاً:

ـ في البدء «كان الكلمة» كما يقول المقدس، فهل عندك ما تقولينه إلى زملائك وزميلاتك في هذا المجلس؟...

وهنا أشارت الآنسة فيكي إلى السيد جراهام... ليبدأ الكلام وليوجه أول سؤال في هذا الحوار.

لقد قال جراهام Graham :

ـ نحن لا نعرف عن الإسلام شيئاً كما يجب، وحتى ما نعرفه

قليل لا يصلح في الحكم على ما نقرأه في الصحف أو الكتب، وقد تعرض الإسلام في الآونة الأخيرة لحملات دعائية قاسية تتهمه بالقسوة والعنف والتعصب، ومن بين ما نشر في هذه الحملة هذه المقالات الثلاث التي نشرتها صحيفة سيدني مورنينج هيرالد.

والسؤال هو:

هل الإسلام دين سلام أم حرب؟ وهل السيف وسيلته الوحيدة أم هناك وسائل أخرى تقوم على الإقناع والحب؟

قلت للسيد جراهام Graham :

إن الإسلام والسلام كلمتان مشتقتان من مادة واحدة في الأصل... إنه من الصعب تفسير ذلك في اللغة الإنجليزية، كما أنه من العبث وضياع الوقت أن نستمر في هذا التفسير والتحليل حيث لا يعرف أحدكم من اللغة العربية كلمة واحدة... ـ ضحك ـ

ومن ثم. كان ولا بد أن نلجأ إلى تقديم هذا الشرح وهذا التفسير في صورة عملية توضح العلاقة والارتباط بين كلمة سلام... وكلمة إسلام...

ـ هل زار أحد من الحاضرين هنا أي بلد مسلم...؟

وهنا رفعت الآنسة سيليفيا Sylivia يدها قائلة: لقد زرت

باكستان. قلت للآنسة سيليفيا Sylivia :

إننا هنا في أستراليا يحيّي بعضنا بعضاً بكلمات محددة لأوقات محددة حسب العرف والعادة...

ففي الصباح نقول: جود مورنينج Good morning وبعد الظهر نقول جود أفترنون Good afternoon وفي المساء نقول جود إيفننج Good evening وعند الافتراق نقول جود باي Good bye فإذا كان هذا الوداع في المساء فإننا نقول للشخص الذي نفارقه جود نايت Good night

أما في الإسلام وفي الجماعات أو الشعوب التي تدين بهذا الإسلام. فإن هناك تحية واحدة. لا تختلف من وقت إلى وقت، ولا من فرد إلى فرد هذه التحية هي السلام عليكم... يحيّي بها المسلم من يعرف ومن لا يعرف، ليس من الضروري ألا يلقي هذه التحية إلا على المعارف والأصدقاء فقط كما هو الحال هنا أو في أوروبا... ذلك لأن المسلم مطالب بإلقاء هذه التحية على كل من يقابله وعلى كل من يصادفه أليس كذلك يا آنسة سيليفيا Sylivia ؟

ـ بلى... وقد حدث أثناء زيارتي لباكستان. وفي مدينة «لاهور» بالذات أن ذهبت إلى حي تجاري شهير هناك اسمه «أناركلي» Anarkly وما كدت أدخل المحل وألقي هذه التحية على صاحب هذا المحل... حتى نهض واقفاً... وباعني

السلعة بسعر أقل مما اشتريت به سابقاً . . . !

ومنذ هذه اللحظة بدأت أنا وزميلاتي نردد هذه التحية، ونلقيها بطريقة توحي بأني مسلمة . . . !

قلت للآنسة سيليفيا: إنه استثمار طيب على أية حال . . . ولكن أتعرفين معنى هذه التحية؟ إنها دعوة إلى السلام والحب، وميثاق بين الناس بنبذ أسباب العداوة والتعصب . . . وفي هذا يقول النبي محمد:

ـ ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم . . . أفشوا السلام بينكم . . .

وقد بلغ من التزام المسلمين بهذا التوجيه النبوي . . . أن الرجلين كانا يسيران جنباً إلى جنب . . . فإذا فرقت بينهما شجرة، أو فصل بينهما جدار ثم التقيا بعد ذلك ألقى أحدهما السلام على الآخر . . .

ـ مستر رونالد Ronald إنها لبداية شيقة ومثيرة . . .

ـ صبراً . . . أيها السيد رونالد . . . فنحن لا نزال وقوفاً أمام المدخل . . . والذي أقوله الآن ليس إلا نقطة في محيط خضم . . .

* * *

إن السلام ـ عندنا نحن المسلمين ـ اسم من أسماء الله عز وجل، وإن المسلمين ـ دون غيرهم من البشر ـ يتقربون إلى الله

بعبوديتهم بهذا الاسم . هناك من يسمي ابنه «عبدالله» أو «عبد الرحمن» وكذلك هناك من يسمي «عبد السلام» . فهل سمع أحدكم بمثل هذا الاسم من قبل؟

ـ السيد جراهام Graham :

ربما كنت الوحيد الذي سمع بمثل هذا الاسم بحكم عملي السابق كصحفي فقد زرت كثيراً من بلاد الشرق الأوسط، وأذكر أن رئيس العراق ـ في الستينات ـ كان اسمه عبد السلام . . .

ـ تقصد الرئيس عبد السلام عارف ـ رحمه الله ـ . . .

ثم قلت:

هل رأيتم مسلماً يصلي . . . انظروا إلى هذا الرجل الجالس بجوار المنبر ثم اسمعوا ما سوف يقول قبل أن يخرج من صلاته .

ستسمعون كلمة السلام يرددها بعد أن يلتفت إلى يمينه ثم يكررها بعد أن يلتفت إلى يساره، إنها إشارة للعودة إلى الأرض . . . بعد أن حلق في صلاته إلى الملأ الأعلى فوق!

وبما أنه عاد إلى الأرض . . . فإن أول ما يستقبل به أهل هذه الأرض هو السلام . . . إن هذا يذكرنا بما قالته الملائكة يوم مولد المسيح لتبشر أهل الأرض بهذا السلام . . .

وإذا كان السلام على الأرض هو أغلى ما يحرص عليه إنسان فالسلام في الآخرة أيضاً له مقام وأي مقام . . . فالجنة سماها

القرآن «دار السلام» وتحية الله لأهل الجنة «سلام»، وكذلك الملائكة تستقبل الفائزين بدخول هذه الجنة «بالسلام». . .

إن السلام في الإسلام ضرورة لاستمرار الحياة فوق هذه الأرض وضرورة لاستقرار القيم والمثل في ضمير كل فرد. . . سلام لا تفرضه القوة بل سلام ينبع من داخل النفس. . . النفس المؤمنة التي تؤثر غيرها في مواطن الشدة واليأس. . .

- سؤال من السيد أندرو Andrew :

هل يعني ذلك أن الإسلام ضد الحرب؟ وإذا كان الجواب. نعم. فلماذا حارب النبي محمد؟ إنني أعلم أنه قد خاض معارك كثيرة. وأن الجهاد أو الحرب المقدسة عقيدة راسخة في قلب كل مسلم ومسلمة؟

* * *

نعم. الإسلام ضد الحرب. . . ولكن حين تفرض عليك هذه الحرب فلا مناص إذن من هذه الحرب. ولا مفر من القضاء على قوى الطغيان والشر. ولنستمع معاً إلى ما يقوله القرآن الكريم في هذا الشأن:

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون[1]﴾

(١) سورة البقرة ٢١٦.

إن الفطرة السوية عند أي إنسان تكره إراقة الدماء. . . ولكن الأسوياء من لدن آدم إلى اليوم قلة. . . ألم يقتل قابيل أخاه من أجل امرأة؟ ومتى؟ حين كان عدد أفراد البشرية في مهدها الأول لا يزيد عن عدد أفراد أسرة واحدة؟

فالخير والشر وُجِدَا مع أول إنسان عرفته هذه الأرض وما بقي الخير والشر فسيبقى الصراع بينهما إلى آخر العمر.

فإذا كان النبي محمد قد حارب فلنسأل أولاً لماذا حارب؟ ومتى حارب؟ والأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل النبي محمد. . . هل حاربوا أيضاً؟ أم تركوا للشيطان ومملكته الحبل على الغارب. . . ؟!

لقد سجل المؤرخ والفيلسوف الأمريكي «ول ديورانت» عدد سنوات الحرب التي خاضتها البشرية فوق هذه الأرض فوجدها ٣٤٢١ ثلاثة آلاف وأربعمائة وواحداً وعشرين عاماً. بينما لم تزد سنوات السلام والهدنة عن ٢٦٨ مائتين وثمانية وستين عاماً. . .

أرأيتم إلى أي مدى بلغت قوة الشر؟

إنها لكارثة أن تمضي الحياة على هذا النحو. . .

وأعود إلى سؤال السيد أندرو Andrew

إنه يريد أن يعرف لماذا حارب النبي. . . فليكن ما يشاء الصديق «أندرو» غير أني أترك الإجابة على سؤاله إلى رجل آخر

غير متهم . . . ذلك لأني مسلم . . . أما الرجل الآخر فهو مسيحي مؤمن . . . أما من يكون هذا الرجل فهو «توماس كارليل» Thomas carlyle .

فماذا قال كارليل[1] Carlyle :

كانت نية هذا النبي قبل عام سنة ٦٢٢ ميلادية أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة وقد بذل في سبيل ذلك كل جهد جهيد، ولكنه وجد الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته ودعوته وعدم الإصغاء إليها، بل عمدوا إلى إسكاته بشتى الطرق من تهديد ووعيد واضطهاد حتى لا ينشر دعوته أو يصور رسالته :

وهذا ما دفعه إلى الدفاع عن نفسه والدفاع عن دعوته وكأن لسان حاله يقول : أما وقد أبت قريش إلا الحرب فلتنظروا إذن أي قوم نحن . . .

لقد أصاب هذا الرسول في رأيه ، فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق والصدق وأبوا إلا التمادي في الباطل ، فاستباحوا الحرمات ونهبوا الممتلكات ، وقتلوا الأنفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق .

واستطرد توماس كارليل يرد على القائلين بأن هذا النبي نشر دينه بحد السيف فيقول :

(١) كتاب الأبطال : تأليف توماس كارليل .

أرى أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال . . . ألم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً ، وحسبكم ما فعله شارلمان بقبائل السكسون . . . وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان ، أم بأية طريقة أخرى ، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار . . . لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم أبداً . . . ولن يهزم منها إلا ما يستحق أن يهزم . . . ولا يفنى منها إلا ما يستحق الفناء . . . فالحقائق في حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة التي لا تحترم منها إلا القوي الصحيح .

فحبوب القمح عندما نأخذها إلى باطن الأرض ، وكثيراً ما تكون مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب ، فإذا ألقيتها وهي مختلطة بكل هذه الشوائب في جوف الأرض العادلة البارة ، فإنها لا تعطيك إلا قمحاً خالصاً نقياً . أما الشوائب والقذى فإنها تبتلعه في سكون وتدفنه في باطنها دون أن تذكر عنه شيئاً . . . وما هي إلا فترة حتى نرى القمح نامياً يهتز كأنه سبائك الذهب .

هكذا الطبيعة في جميع شؤونها ، فهي حق لا باطل ، ولا تشترط في الشيء إلا أن يكون صادقاً حراً . . . فإذا كان كذلك حمته وحرسته وصانته وقوته وإذا كان غير ذلك تنكرت له وتركته بلا حماية وبلا صيانة .

لهذا نرى لكل شيء تحميه الطبيعة روحاً من الحق

والصدق، أليس شأن حبوب القمح هذه شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذا الوجود أو ستجيء إلى هذا الوجود؟ . . .

فالحقائق تأتي إلى معترك الحياة، ثم يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها فتموت وتذهب . . . نعم يموت جسم كل حقيقة ويذهب، ولكن الروح تبقى أبداً، كل ما هنالك أن الروح يتخذ ثوباً أطهر وبدناً أشرف.

ويظل روح الحقيقة وجوهرها ينتقل من الأثواب والأبدان، أي أن جوهر الحقيقة لا يموت.

الأمر المهم في الموضوع ليس في نوع الثوب الذي لبسه الروح، إنما في الروح ذاتها . . . وهل هي حق؟ وهل هي منبعثة من أعماق الطبيعة، دون أن تهتم ببقاء الشيء أو عدم نقائها فالطبيعة عندما تحكم لا تقول أفيك شوائب وأكدار؟ . . . إنما تقول أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا . . .

سؤال من السيدة ليندا هارولد Linda harold :

ـ واضح من كلام كارليل Carlyle أنه يعني بكلامه خصوم النبي وأعدائه من العرب. والذي نعرفه جميعاً أن المسلمين حاربوا خارج ديارهم في بلاد أخرى، وأنهم اشتبكوا مع الفرس والروم في معارك كبرى . . . أليس ذلك خروجاً على المألوف والعرف، ودليلاً على اتهام الإسلام بالميل إلى العنف، والاعتماد في دعوته على القوة والسيف؟

* * *

شكراً للسيدة ليندا . .

لقد فهمت من سؤالك ـ وأعتقد أن الحاضرين يشاركونك هذا الفهم ـ أن الإسلام خاص بالعرب، وأنه ـ أي الإسلام ـ دين «قومي» خاص بقومه فقط. وبالتالي فإن مجاله ونطاقه. مجال ونطاق «إقليمي» بحت . . . فإذا خرج عن هذا النطاق أو هذا المجال. اعتبر معتدياً بغير وجه حق . .

ـ أليس هذا ما تقصدينه يا مسز هارولد . . ؟

ـ هذا ما قصدته بالضبط . .

إن الأمر ليس كذلك . . وما بني على خطأ لا يؤدي إلا إلى خطأ فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية منذ يومها الأول . . لم تكن كدعوة المسيح الذي أعلن أنه لم يرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة . . ولم تتحول المسيحية إلى دعوة عالمية إلا بعد أن رفضها اليهود وحاربوها بعنف وقسوة.

وقد ضرب المسيح لذلك مثلاً بصاحب الدار الذي أقام حفلة عرس في داره ثم دعا إليها أقاربه وجيرانه. فرفض هؤلاء الأقارب والجيران تلبية هذه الدعوة . . حينئذٍ طلب صاحب الدار من خدمه وغلمانه أن يخرجوا إلى الطريق ويدعوا كل من يصادفهم فيه من الغرباء وعابري السبيل. ففعلوا حتى امتلأت بهم الدار، ولم يبق مكان لمن اختصهم بالدعوة من الأقارب والجيران.

وقد جاء في الإصحاح السابع من إنجيل مرقص: أن امرأة كان بابنتها روح نجس سمعت به فأتت وخرت عند قدميه وكانت المرأة أممية (غير يهودية) فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها. . . وأما يسوع فقال لها: دعي البنيين أي (اليهود) أولاً يشبعون. لأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنيين ويطرح للكلاب. . . !

فأجابته وقالت: نعم يا سيد والكلاب أيضاً تحت المائدة تأكل من فتات البنيين. . فقال لها: لأجل هذه الكلمة اذهبي. . قد خرج الشيطان من ابنتك

* * *

أما الإسلام. . فكانت دعوته عالمية منذ اليوم الأول، وفي هذا يقول الله مخاطباً النبي محمد:

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾[1].

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[2].

فالقول بخروج الفرس أو الروم أو غيرهم من نطاق هذه الرسالة أو الدعوة يتعارض مع الحكمة الإلّهية في ابتعاث الأنبياء والرسل، وفهم عنصري بغيض لا يتفق والمعنى الواسع لرحمة الله التي تشمل جميع الخلق والأمم.

---

(١) سورة سبأ ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

أليس كذلك يا سيد ديفيد David ؟ . .

إن السيد ديفيد يهودي كما سبق أن قلت. . ولهذا حين وجهت سؤالي هذا. سكت ولاذ بالصمت. . . !

* * *

- سؤال من السيد إدوارد Edward .

لو سلمنا بما قلته من شمول الدعوة الإسلامية للعرب والروم والفرس ولكل شعب وجنس.

ألم يكن من الأليق عرض هذه الدعوة بالتفاهم والحب بدلاً من اللجوء إلى القتال والحرب؟

* * *

شكراً للسيد إدوارد:

إن ما قلته هو الحق. . وهو ما حدث بالفعل. .

لقد بدأ الاتصال بدولة الروم ودولة الفرس وغيرهما من الدول عن طريق سفراء اختارهم النبي، ولم تكن مهمة هؤلاء السفراء تتجاوز التقاليد والأعراف المتفق عليها في هذا العصر. . من ناحية الشكل على الأقل. أما من حيث الموضوع والمضمون فلم يكن هؤلاء السفراء حاملي حقائب. أو ناقلي رسائل فقط. بل كانوا دعاة على أعلى درجة من الفهم والنضج والالتزام بأقصى درجات الصدق والأمانة في النقل. .

كان من أهم هؤلاء السفراء «دحية الكلبي» الذي بعث به

النبي إلى قيصر كما كان «عبدالله بن حذامة السهمي» هو سفير النبي إلى كسرى ملك الفرس.

* * *

لقد كتب النبي إلى كسرى يقول له: من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس... سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. وأدعوك بدعاية الله عز وجل. فإني رسول الله إلى الناس كلهم لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين..

أسلم. تسلم فإن توليت فإنما عليك إثم المجوس...

* * *

لقد جن جنون كسرى بعد قراءة هذه الرسالة. ثم مزقها.. وقتل حاملها وهل اكتفى بذلك.. كلا.. لقد كتب إلى أمير اليمن ـ وكانت اليمن خاضعة له ـ كتب يقول لعامله في اليمن:

بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي.. فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلا فابعث إلي برأسه... ثم ختم رسالته بقوله:

أيكتب إليّ هذا الكتاب وهو عبدي...؟

ثم أرسل أمير اليمن فارسين إلى النبي ومعهما كتاب كسرى فقدما إليه وقالا له: شاهنشاه بعث إلى الملك «بازان» يأمره أن

يبعث إليك من يأتي بك.. فإن أبيت.. هلكت.. وأهلكت قومك.. وخسرت بلادك..

ـ سؤال من السيد مكميلان Mackmillan:

ـ لكن ماذا فعل قيصر؟ وهل اتسم رده بالطيش والحمق على نحو ما فعل ملك الفرس؟

* * *

كلا.. لقد كان قيصر رجلاً عاقلاً، وقد اتسم رده بالأناة والحلم. فقد كانت عند قيصر دراية بما جاء في الكتب[1]، كما كان يعلم بقرب ظهور نبي جديد في جزيرة العرب.

وتقول الروايات الإسلامية: إن قيصر حين تسلم رسالة النبي بحث عن رجال من أهل مكة ليسألهم عن النبي.. فلم يجدوا غير أبي سفيان. العدو الأكبر للنبي ـ في هذا الوقت ـ وجماعة معه. وحين جلسوا بين يدي هرقل قال ـ أي قيصر ـ لترجمانه:

سلهم: أيهم أقرب نسباً من هذا الرجل:

(يعني النبي «صلى الله عليه وسلم»).

قلت: أنا.

قال: وما قرابتك منه؟

---

(١) كانت هناك تنبؤات كثيرة في كتب اليهود والنصارى تبشر بقرب ظهور النبي محمد.

قلت: ابن عمي.

فقال قيصر: أدن مني.

ثم أمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهري: ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إني سائل هذا عن هذا الرجل (يعني رسول الله «صلى الله عليه وسلم») فإن كذبني فكذبوه..

قال أبو سفيان: فوالله، لولا الحياء يومئذٍ أن يؤثر عني الكذب لكذبته حين سألني، ولكني استحييت أن يؤثروا عني الكذب، فصدقته عنه.

ثم قال لترجمانه: قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب..

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟

قلت: لا..

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟

قلت: لا.

قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟.

قلت: بل ضعفاؤهم..

قال: فيزيدون أم ينقصون؟

قلت: بل يزيدون..

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطاً على دينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه الآن على خلاف ونحن نخاف ذلك.

قال: فهل قاتلتموه وقاتلكم؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كانت حربه وحربكم؟

قلت: كانت دولاً سجالاً، يدال علينا المرة ويدال عليه الأخرى.

قال: فبم يأمركم؟

قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة..

قال أبو سفيان:

فقال قيصر لترجمانه:

قل له: إني سألتك عن نسبه فيكم، فزعمت أنه ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها.

وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله، فزعمت: أن لا:

قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله..

وسألته : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فزعمت أن لا . . فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك؟

فزعمت : أن لا . فقلت لو كان من آبائه من ملك لقلت : رجل يطلب ملك آبائه .

وسألتك : أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟

فزعمت أن ضعفاؤهم اتبعوه ، والضعفاء هم أتباع الرسل . .

وسألتك : هل يزيدون أو ينقصون؟

فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم . .

وسألتك : أيرتد أحد سخطاً على دينه بعد أن يدخل فيه؟

فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل قاتلتموه وقاتلكم؟

فزعمت أن قد فعل ، وأن حربه وحربكم تكون دولاً : يدال عليكم مرة ، وتدالون عليه الأخرى .

وكذلك الرسل تبتلى ، ثم تكون لها العاقبة . .

وسألتك : بماذا يأمركم؟

فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ، ويأمركم بالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وهذه صفات نبي قد كنت أعلم أنه خارج .

ولكن لم أظن أنه منكم . . وإن يكن حقاً ما قلت فيوشك هذا الرجل أن يملك موضع قدمي هاتين . .

. . والله لو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

قال أبو سفيان :

ثم دعا قيصر بكتاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فأمر فقرىء ، فإذا به :

«بسم الله الرحمن الرحيم» .

من محمد بن عبدالله ورسوله

إلى هرقل عظيم الروم ،

سلام على من اتبع الهدى . . .

أما بعد . .

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فعليك إثم الأريسيين (الفلاحين) .

﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون

الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[1].

* * *

هذا ما كان من أمر قيصر. .

لكن ماذا كان موقف رجال قيصر وحاشيته؟

لقد دعا قيصر عظماء مملكته وبطارقته للاجتماع به، ثم أمر بأبواب القصر الذي اجتمعوا فيه فغلقت أبوابه ثم وقف بينهم وقال:

يا معشر الروم. . هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم. . وتبايعوا هذا النبي؟

فنفروا وبادروا إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت. فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم عني وقال:

إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم. فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه»[1].

لقد أصرت حاشية الملك من الوزراء والبطارقة على الرفض وإعلان الحرب، فبدءوا يحرضون القبائل العربية في العراق والشام على حرب المسلمين والنبي وعلم المسلمون بإصرار الروم على الحرب، فبدءوا يستعدون لهذا اليوم. غير أن الفتن

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) السيرة النبوية ـ العلاّمة الندوي ـ ص ٢٥٣.

الداخلية شغلت كسرى وهرقل عن الهجوم لفترة من الوقت.

* * *

سؤال من الآنسة ماري دي سوزا Mary De Susa:

ـ هذا كلام نسمعه لأول مرة. . .؟

قلت للآنسة ماري: إنني لم أقل شيئاً بعد. . إن كل ما قيل حتى الآن هوامش حول هذه القضية التي شوهت عمداً في أوكار الكراهية والحقد. .

ثم إن الأسئلة التي دارت حول موقف الإسلام من الأمبراطوريتين في هذا العهد. وهما امبراطورية الروم وامبراطورية الفرس لم تتعرض للواقع الذي كان عليه الحال في هاتين الامبراطوريتين في ذلك الوقت.

لقد كان من الضروري أن تنتهي هذه الامبراطوريات التي فسدت وتعفنت، وتحول الناس فيها إلى أشباح فقدت الأمل في الحياة والعيش، وتحول الدين فيها إلى خرافات تتقزز منها النفس.

هل قرأ أحد منكم كتاب العلامة جيبون عن «قيام وسقوط الامبراطورية الرومانية» Decline And Fall Of The Roman Empire؟

إنني أكرر سؤالي مرة ثانية وثالثة بحثاً عن واحد منكم يكون قد قرأ هذا الكتاب. . لا أجد من يجيب على هذا السؤال: لقد

كان الواقع في هذه الامبراطورية وغيرها من الامبراطوريات الأخرى أليماً ومراً . . لم يكن هناك أمل في أي شيء ولم تكن هناك عدالة أو مساواة . . كانت الحرب بين المسيحيين واليهود سجالاً ، والمذابح بين الطائفتين فضيحة وعاراً . . كان الظلم والتفرقة هي السمة المميزة لنظام الحكم ، والقائمين على هذا الحكم . لقد تحول الملوك إلى آلهة . كما تحول رجال الدين إلى عصابات مرتزقة . وإلى سفاحين وقتلة . كما تحول الفسق والدعارة إلى طقوس مقدسة . . وهل سمع أحدكم بقصة «ديبورا» الغانية التي نصبها رجال الدين امبراطورة . . ؟ . .

- سؤال من الأنسة كارولين .

إن ما نسمعه أمر في غاية البشاعة .

قلت للأنسة كارولين :

تستطيعين التأكد من هذه الحقائق بعد ذهابك إلى مكتبة الجامعة ، أو إلى أية مكتبة عامة . . إن التاريخ لا يمكن تزويره بسهولة . . كما أن الواقع في هذه الإمبراطوريات كان وصمة عار في جبين الإنسانية .

- سؤال من الآنسة أليس Alice :

وهل كان هذا الواقع عاماً في كل امبراطورية؟ أم كان خاصاً بالامبراطورية الرومانية؟

لقد كان هذا الواقع عاماً في كل هذه الامبراطوريات

القديمة وسأحاول الإيجاز ـ ما أمكن ـ في تناول هذا الواقع في كل امبراطورية . .

في الهند مثلاً : كان الرجال يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدون الرجال العراة وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يرزءون الراهبات والزائرات في أعز ما عندهن ، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته ، وينال فيها الفاجر بغيته ، وإذا كان هذا شأن البيوت التي رفعت للعبادة والدين . . فكيف ببلاط الملوك وقصور الأغنياء؟ . فقد تنافس فيها رجالها في إتيان كل منكر وركوب كل فاحشة ، وكان فيها مجالس مختلطة من سادة وسيدات ، فإذا لعبت الخمر برؤوسهم خلعوا جلباب الحياء والشرف وطرحوا الحشمة فتوارى الأدب وتبرقع الحياء . . . هكذا أخذت البلاد موجة طاغية من الشهوات الجنسية والخلاعة ، وأسفت أخلاق الجنسين إسفافاً كبيراً .

أما نظام الطبقات فلم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد[١] قسوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً ، وخضعت له آلافاً من السنين ولا تزال ، وقبل ميلاد المسيح

(١) نقلاً عن كتاب العلاّمة أبو الحسن الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص ٤٩ وما بعدها .

بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفق عليه وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ «منوشاستر».

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات ممتازة وهي: ١ - البراهمة، طبقة الكهنة ورجال الدين. ٢ - شترى رجال الحرب ٣ - ويش رجال الزراعة والتجارة ٤ - شودر رجال الخدمة. ويقول (منو) مؤلف هذا القانون:

«إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه، وشترى من سواعده، وويش من أفخاذه، والشودر من أرجله، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. فعلى البراهمة تعليم «ويد» أو تقديم النذور للآلهة وتعاطي الصدقات، وعلى الشترى حراسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة «ويد» والعزوف عن الشهوات، وعلى ويش رعي السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة «ويد» والتجارة والزراعة، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث».

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة فقد قال إن البراهمة هم صفوة الله وهم ملوك الخلق، وإن ما في العالم هو ملك لهم فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر - من غير جريرة - ما شاءوا، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده.

وإن البرهمي الذي يحفظ رك ويد «الكتاب المقدس» هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطرار والفاقه أن يجبي من البراهمة جباية أو يأخذ منهم أتاوة، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً، وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيقتل.

أما الشترى فإن كانوا فوق الطبقتين «ويش وشودر» ولكنهم دون البراهمة بكثير فيقول: «منو»: إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشترى الذي ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده.

أما شودر «المنبوذون» فكانوا في المجتمع الهندي - بنص هذا القانون المدني الديني - أحط من البهائم وأذل من الكلاب، فيصرح القانون بأن من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك وليس لهم أن يقتنوا مالاً أو يدخروا كنزاً فإن ذلك يؤذي البراهمة، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهمياً فعلى الملك أن يكوي أسته وينفيه من البلاد، وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتاً فاتراً، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء!.

* * *

ولم يكن الحال في الامبراطورية الفارسية مختلفاً عنه في بلاد الهند، وكما يقول البروفسور «أرتهرسين» مؤلف كتاب «تاريخ إيران في عهد الدولة الساسانية».

«كان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النسب والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع».

وفي عام ٤٨٧ قبل الميلاد ظهر «مزدك» الذي أعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم، ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه وحراسته كان ذلك عند مزدك أهم ما تجب فيه المساواة والاشتراك. ولهذا «أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ، وحظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين وصادفت من قلوبهم هوى، وسعدت كذلك بحماية البلاط فأخذ «قباذ» يناصرها ونشط في نشرها وتأييدها حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات،

قال الطبري: «افترص السفلة ذلك واغتنموا وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم، وحملوا «قباذ» على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك شيئاً مما يتسع به[1].

* * *

أما بالنسبة للدولة الرومانية فقد كان القرن السادس والسابع (لميلاد المسيح) من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف، كان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد قوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلاً عن البيوت فضلاً عن البلاد، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات، فراراً بدينهم من الفتن، وضناً بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون، وفراراً من تكاليف الحياة، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل . . .

(١) المصدر السابق ص ٣٩.

ثم ثارت حول الديانة المسيحية وفي صميمها مجادلات كلامية، وسفسطة من الجدل العقيم شغلت فكر الأمة، واستهلكت ذكاءها، وابتعلت قدرتها العملية، وتحولت في كثير من الأحيان حروباً دامية، وقتلاً وتدميراً وتعذيباً، وإغارة وانتهاباً واغتيالاً، وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية منافسة، وأقحمت البلاد في حرب أهلية.

وقد بلغ الانحلال الاجتماعي غايته في الدولة الرومية والشرقية، وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الأتاوات، وتضاعفت الضرائب، حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومات، ويمقتونها مقتاً شديداً، ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية، وكانت الإيجارات والمصادرات ضغثاً على إبالة، وقد حدثت لذلك اضطرابات عظيمة وثورات، وقد هلك عام ٥٣٢ في الاضطراب ثلاثون ألف شخص في العاصمة[1]، وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة أسرف الناس فيه، ووصلوا في التبذل إلى أحط الدركات، وأصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أي وجه، ثم إنفاقه في التظرف والترف وإرضاء الشهوات.

ذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في

(١) المصدر السابق.

حرية، وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السلع، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع.

يقول (جيبون)[1] و «في آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً».

ويقول مؤلفو تاريخ العالم للمؤرخين: «إن المدن العظيمة التي أسرع إليها الخراب، ولم تسترد مجدها وزهرتها أبداً، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية في هذا العهد من الانحطاط الهائل الذي كانت نتيجته المغالاة في المكوس والضرائب والانحطاط في التجارة، وإهمال الزراعة، وتناقص العمران في البلدان».

أما عن الخلاف بين اليهود والنصارى فقد بلغ أشده، وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم إلى المسيحيين، وبغض المسيحيين إليهم وشوه سمعتهم، ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠ م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية، فأرسل الامبراطور قائده «أبنوسوس» ليقضي على ثورتهم، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة، فقتل

(١) قيام الامبراطورية الرومانية وسقوطها.

الناس جميعاً، قتلاً بالسيف وشنقاً وإغراقاً وتعذيباً، ورمياً للوحوش الكاسرة.

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة. قال المقريزي في كتاب الخطط: «وفي أيام فوقا ملك الروم، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام، وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا إلى مصر في طلبهم، وقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم. وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل، وقرية الناصرة وصور، وبلاد القدس، فنالوا من النصارى كل منال، وأعظموا النكاية فيهم، وخربوا لهم كنيستين بالقدس، وأحرقوا أماكنهم، وأخذوا قطعة من عود الصليب، وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه»[1].

إلى أن قال بعد أن ذكر فتح الفرس لمصر:

«فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور وأرسلوا بقيتهم في بلادهم وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم، فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صور فقوي النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم

(١) كتاب الخطط المقريزية ج ٤ ص ٣٩٢.
وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلاّمة الندوي.

اليهود هزيمة قبيحة وقتل منهم كثير، وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر، ويجدد ما خربه الفرس، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها، وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم وحلف لهم، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشتعلة، فوجد المدينة وكنائسها خراباً، فساءه ذلك وتوجع له، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس وقاموا قياماً كبيراً في قتلهم من آخرهم، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم، وحسنوا له ذلك فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم، فإنهم عملوا حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على ممر الزمان والدهور، فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى إلخ..).

وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان، اليهود والنصارى، من القسوة والضراوة بالدم الإنساني وتحين الفرص

للنكاية في العدو، وعدم مراعاة الحدود في ذلك، وبهذه الأخلاق المنحطة والاستهانة بحياة الإنسان لا يمكن لطائفة أو أمة أن تؤدي رسالة الحق والعدل والسلام، وتسعد البشرية في ظلها وتحت حكمها.

وقد بلغ الأمر بأحد الأساقفة أن أوعز إلى أحد حكام الفرس بالإيقاع بأبناء طائفة أخرى مسيحية على غير مذهبه حتى قتل منها ألوفاً مؤلفة.

يقول توماس أرنولد Thomas Arnlod :

في القرن الخامس الميلادي أغرى «برصوما» ـ وهو أسقف نسطوري ـ ملك الفرس بتدبير اضطهاد عنيف للكنيسة الأرثوذكسية ويقال: إن عدداً يبلغ ٧٨٠٠ من رجال الكنيسة الأرثوذكسية مع عدد ضخم من العلمانيين قد ذبحوا بناءً على وصية هذا الأسقف... وتمت محاولة أخرى أعدم فيها الألوف من أبناء هذه الطائفة أيضاً بتحريض أحد اليعاقبة الذي أقنع ملك الفرس بتنفيذ هذه المذبحة[١].

أما في مصر فقد قتل حوالي ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف مصري لرفضهم اعتناق مذهب الدولة الرومانية التي حاولت فرضه على مسيحيي مصر وهو المذهب الملكاني.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ـ توماس أرنولد.

أما الأمم الأوروبية ـ المتوغلة في الشمال والغرب ـ فكانت تعيش في ظلام الجهل والأمية، والحروب الدامية، وكانت بعيدة عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية، والعلوم والآداب، لا شأن للعالم بها ولا شأن لها بالعالم.

كانت أجسامهم قذرة، ورؤوسهم مملوءة بالأوهام، وكانوا يزهدون في النظافة واستعمال الماء، ويغالي الرهبان منهم في تعذيب الأجسام، والفرار من الإنسان، وكانوا يبحثون في أن المرأة حيوان أم إنسان، ولها روح خالدة أم ليست لها روح خالدة، وأن لها حق الملكية، والبيع، والشراء، أم ليس لها شيء من ذلك؟

يقول روبرت بريفولت Robert Briffault[١] :

«لقد أطبق على أوروبا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً، وقد كانت همجية ذلك العهد أشد هولاً، وأفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة، وقضي عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في

---

(١) في كتابه بناء الإنسانية ص ١٦٤.
نقلاً عن العلاّمة الندوي.

الماضي، كإيطاليا، وفرنسا، فريسة الدمار والفوضى والخراب.

* * *

إن المادة الأولى في ميثاق هيئة الأمم المتحدة[1] تنص على ضرورة «حفظ السلام والأمن الدوليين وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التي تهدد السلم ولإزالتها وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الإخلال بالسلم».

وقد جاء في مقدمة ميثاق الهيئة تأكيد إيمان الشعوب الموقعة على هذا الميثاق: بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية.

كما جاء في المادة الثالثة والأربعين من ميثاق هيئة الأمم ما يلي بالنص:

يتعهد جميع أعضاء الأمم المتحدة أن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن ما يلزم من القوات المسلحة الضرورية لحفظ السلم والأمن الدوليين وتشكل لجنة من أركان الحرب تكون مهمتها إسداء المشورة والنصح المتصلة بما يلزمه من حاجات حربية، ولاستخدام القوات الموضوعة تحت تصرفه ـ المادة ٤٧ ـ.

كما يتضافر أعضاء الأمم المتحدة على تقديم المعونة

(١) نقلاً عن ميثاق هيئة الأمم المتحدة.

متبادلة لتنفيذ التدابير التي قررها مجلس الأمن ـ مادة ٤٩ ـ.

لو أردنا تبسيط هذه المواد في عبارات موجزة فسنرى أنه من اختصاص هيئة الأمم التدخل بالقوة للقضاء على مظاهر الظلم والعدوان والتفرقة في أي مكان من الدنيا.. كما أنه يبيح لهيئة الأمم التدخل للقضاء على الأنظمة التي تعتمد في حكمها على القمع والقهر لشعوبها..

أليس هذا هو ما فعلته الأمم المتحدة وتذرعت به في حرب فيتنام وكوريا؟.

صحيح كان القتال تحت علم الأمم المتحدة.. وإن كان لأميركا الدور الأكبر في هذه الحرب التي كلفتها الكثير من جيشها وعتادها...

إن الإنسانية من وجهة نظر الإسلام أسرة واحدة.. فالناس سواسية كما يقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم. والتفاوت بين الناس لا يقوم على هذه العنصرية البغيضة التي عرفها الناس قديماً وحديثاً. وهل كانت الحرب العالمية الثانية إلا ثمرة من ثمار هذه العنصرية البغيضة؟ فهتلر لم يكن يرى في العالم شعباً أرقى من الشعب الألماني.. وكانت النازية تجسيداً بشعاً لهذه الفلسفة التي خربت معظم أقطار الدنيا.

إن الامبراطورية الرومانية كانت تعتبر نفسها دون غيرها امبراطورية مقدسة.. وكل ما في العالم ليسوا سوى عبيد

وبرابرة.. كذلك كانت نظرة الامبراطورية الفارسية، وكذلك كان الحال في الهند وغيرها.

ترى ماذا كانت تفعل الأمم المتحدة ـ لو كانت قائمة ـ إبان هذه الفترة قبل أربعة عشر قرناً؟ **سؤال أوجهه إليكم جميعاً**...

ـ السيد جراهام:

ـ بالتأكيد. ما كانت لتسمح بهذه الهمجية والفوضى.

* * *

سؤال آخر: وبم تسمي تدخل الأمم المتحدة لتغيير هذه الأوضاع بالقوة؟

السيد جراهام: لا شك أن مثل هذا التدخل يقابل من الجميع بالارتياح والرضا..

وهذا هو ما فعلته قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.. إنني لا زلت أذكر هذا اليوم الذي أطلق عليه اسم «أطول يوم في التاريخ» The Longist Day وهو يوم نزول قوات الحلفاء إلى أرض فرنسا في منطقة «نورماندي»، وقد شاهدت عمليات هذا الإنزال في «فيلم» أطلق عليه اسم هذا اليوم نفسه، كما شاهدت في بريطانيا أيضاً هذا المسلسل الذي أطلق عليه اسم «العالم في حرب» The World At War .. إن الشيء الذي لفت نظري في الفيلم الأول، وفي هذا المسلسل هو استقبال الشعب الفرنسي وشعوب أوروبا كلها لقوات الحلفاء استقبالاً مفعماً بصدق العاطفة.. كان الرجال والنساء

الأطفال يلقون الزهور على الدبابات وعربات جر المدافع الثقيلة.. كما كانت الفتيات تصعدن إلى ظهور الدبابات ليعانقن جنودها في فرح ونشوة.. لقد ذهبت إلى غير رجعة طغمة الشر، وانحسرت موجة الطغيان والظلم..

* * *

والإسلام ـ كما قلت ـ ينظر إلى الإنسانية كأسرة... كركاب سفينة واحدة.. ومن ثم فأي عطب يصيب أي جزء في هذه السفينة يعرض ركابها كلهم للخطر...

وفي القرآن الكريم آية تقرر بأنه ﴿... **من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً... ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**..﴾[1].

ويقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح مروى عنه:

«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» لقد تعجب أصحابه من ذلك وقالوا: «ننصره مظلوماً» ولكن كيف «ننصره ظالماً»؟

فشرح لهم ذلك موضحاً بأن «نصرة الظالم» ليس معناه أن تعينه على الظلم بل لتمنعه من الظلم..

فأعلى درجات النصر هو الانتصار على هوى النفس،

---

(١) سورة المائدة: ٣٢.

والتسامي بهذه النفس عن شهواتها المهلكة للحرث والنسل . .

ولقد تضمنت مبادىء الإسلام الأساسية أكبر ثورة تحررية عرفتها البشرية . ثورة على الظلم بكل صنوفه وأنواعه ، وفي كل ميادينه ومجالاته ، وثورة على النظم والحكومات والأوضاع التي تسند هذا الظلم وتستبقيه لحساب فرد على جماعة في صورة حاكم أو مستغل ، أو لحساب طبقة على طبقة في صورة إقطاعيين ورأسماليين وصعاليك . . أو لحساب دولة على دولة في صورة محتلين ومستعمرين .

ولم يكن بد أن يقاومه أفراد ، وأن تقاومه طبقات ، وأن تقاومه دول . ولم يكن بد كذلك أن يمضي الإسلام بثورته الكاملة الشاملة في وجه هذه المقاومة ؛ واستنقاذ البشرية أفراداً وجماعات من جور الأرباب الأرضية الممثلة في الأشخاص والحكومات والنظم والأوضاع . لكي يقيم السلام العالمي الأكبر على أسسه الأصيلة ، لا بين الدول فحسب ، ولكن في داخل هذه الدول كذلك فلا يسكت على وقوع الظلم في داخل دولة من الدول ليشتري السلم معها بأي ثمن . إن النظرة الإسلامية نظرة ربانية محيطها «العالم» وموضوعها «الإنسان» فليس همه أن يشتري السلم الكاذبة مع دولة من الدول ، بأن يدع هذه الدولة تقيم لرعاياها أرباباً من دون الله ، يدعون حق الربوبية فيها ، وتحرمهم العدل القضائي والعدل الاجتماعي . فهؤلاء الرعايا الذين تحكمهم تلك الدولة

الظالمة ، أياً كان دينها وأياً كان شكلها ، هم ناس من البشر ، والأمة المسلمة مكلفة أن ترفع عنهم الظلم ، وتمتعهم بالعدل .

ولتقريب هذه الصورة . . أذكر لكم قصة جندي بسيط من جنود الإسلام . ففي موقعة «القادسية» التي انتصر فيها المسلمون على الفرس طلب القائد الفارسي رستم من القائد المسلم سعد بن أبي وقاص رجلاً يفاوضه فأرسل إليهم ربعي بن عامر ، فجاءه وقد جلس على سرير من ذهب ، وبسط النمارق والوسائد منسوجة بالذهب ، فأقبل ربعي على فرسه ، وسيفه في خرقة ورمحه مشدود بعصب .

فلما انتهى إلى البساط وطئه بفرسه ، ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما وجعل الحبل فيهما . . .

ثم أخذ عباءة بعيره فاشتملها، فأشاروا عليه بوضع سلاحه ، فقال :

لو أتيتكم فعلت ذلك بأمركم ، وإنما دعوتموني . .

ثم أقبل يتوكأ على رمحه ، ويقارب خطوه ، حتى أفسد ما مر عليه من البسط. ثم دنا من «رستم» وجلس على الأرض ، وركز رمحه على البساط. وقال :

إنا لا نقعد على زينتكم ! ! .

فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ .

قال : «الله جاء بنا . . وهو بعثنا لنخرج من شاء من عبادة

العباد إلى عبادة الله . . ومن ضيق الدنيا إلى سعتها . . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . . فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه . . ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر . . »

فقال رستم: قد سمعنا قولكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟

فقال: «نعم. وإن مما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث . . فنحن مترددون عنكم ثلاثاً . . فانظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل . . الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزية فنقبل ونكف عنك وإن احتجت إلينا نصرناك، أو المنابذة في اليوم الرابع إلا أن تبدأ بنا، وأنا كفيل بذلك عن أصحابي».

فقال رستم: أسيدهم أنت؟ قال: لا. «ولكن المسلمين كالجسد الواحد. بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم».

ثم انصرف، فخلا رستم بأصحابه وقال: أرأيتم كلاماً قط مثل كلام هذا الرجل؟.

فلما كان اليوم الثاني من نزول رستم، أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا هذا الرجل . . فأرسل إليه حذيفة بن محصن الغطفاني . . فلم يختلف عن ربعي في العمل والإجابة.

فقال له رستم: ما قعد بالأول عنا؟.

قال: «أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء، وهذه نوبتي».

فقال له رستم. والمواعدة إلى متى؟.

قال: إلى ثلاث من أمس . .

وفي اليوم الثالث. أرسل إلى سعد: أن ابعث إلينا رجلاً. فأرسل إليه المغيرة بن شعبة فتوجه إليه، ولما كان بحضرته جلس معه على سريره.

فأقبلت إليه الأعوان يجذبونه، فقال لهم:

قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم.

إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً . . ـ إلا أن يكون محارباً لصاحبه ـ فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى . .

وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض . . وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم.

وإني لم آتكم، ولكنكم دعوتموني، اليوم علمت أنكم مغلوبون، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السنيرة ولا على هذه العقول.

فقالت السوقة: صدق والله العربي . .

وقالت الدهاقين ـ الزعماء ـ لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا

تنزع إليه ، قاتل الله سابقينا حيث كانوا يصغرون أمر هذه الأمة .

ثم تكلم رستم بكلام عظم فيه شأن الفرس وصغر شأن العرب ، وذكر ما كانوا عليه من سوء الحال وضيق العيش .

فقال المغيرة : «أما الذي وصفتنا به من سوء الحال ، والضيق والاختلاف ، فنعرفه ولا ننكره ، والدنيا دول ، والشدة بعدها الرخاء ، ولو شكرتم ما آتاكم الله ، لكان شكركم قليلاً على ما أوتيتم .

وقد أسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال .

إن الله بعث فينا رسولاً . . ثم ذكر ما تقدم وختم كلامه بالتخيير بين الإسلام والجزية والمنابذة . ثم رجع .

* * *

أرأيتم كيف كان الإسلام رسالة تحريرية وعقيدة دينية معاً . .

وفي هذا المعنى يقول شاعر مسيحي عربي اسمه رشيد سليم الخوري :

إذا حاولت رفع الضيم فاضرب
بسيف محمد واهجر يسوعا
أحبوا بعضكم بعضاً وعظنا
بها ذئباً فما نجت قطيعا
فيا حملاً وديعاً لم يخلف
سوانا في الورى حملاً وديعا

ألا أنزلت إنجيلاً جديداً
يعلمنا إباء لا خنوعا

* * *

لكن . . هل كانت المسيحية سلاماً ومحبة كما يتردد هذا الكلام على ألسنة البعض؟ .

إن الإجابة على هذا السؤال لم يحن وقتها بعد . .

* * *

سؤال : من السيدين جوزيف Joseph وديفيد David :

إننا يهود كما تعلم ، وتعرف جيداً ما حصل لليهود على يد النبي محمد . . فما تفسيرك لهذا الاضطهاد الذي تعرض له هؤلاء اليهود في جزيرة العرب وفي مطاردتهم وتشريدهم من غير سبب؟ . .

* * *

قلت مبتسماً :

إن إثارة هذه القضية ليست في صالح السيدين جوزيف وديفيد . . فهذه القضية . . . قضية المسلمين مع اليهود لو عرضناها عرضاً في ضوء القوانين الوضعية المعمول بها هنا في أستراليا أو في أي مكان من الدنيا . فلسوف يكون الحكم عنيفاً وقاسياً . . وعاراً أيضاً . . . . !

ولمزيد من الإيضاح والتفصيل فإني أوجه إليكم هذا السؤال جميعاً :

ماذا يكون موقف الحكومة الأسترالية عند اكتشاف مؤامرة دبرها أستراليون ضد وطنهم بالتعاون مع أعداء هذا الوطن، وبماذا نصف عمل هؤلاء المتآمرين بعد ثبوت تهمة تآمرهم مع الأعداء ضد هذا الوطن؟

ـ الخيانة العظمى طبعاً . .

أعود بعد ذلك إلى سؤال السيدين جوزيف وديفيد. لقد كان اليهود جزءاً من المجتمع الإسلامي الذي أقامه الإسلام في المدينة حيث كان يعيش هؤلاء اليهود مع المسلمين كأسرة واحدة، وقد أعطاهم النبي كل حقوق المواطنة التي يتمتع بها أي مسلم، بل اعتبر النبي اليهود «أمة من المؤمنين» بحكم أصل دينهم . . . وفوق ذلك كله فقد وقع النبي معهم معاهدة دفاع ومواثيق أمن مشتركة يلتزم المسلمون فيها بالدفاع عن هؤلاء اليهود إذا تعرضوا لأي خطر يتهددهم، وبالتالي يلتزم اليهود بالدفاع عن المسلمين إذا تعرضوا لمثل هذا الخطر من غيرهم . . .

فماذا حدث بعد ذلك . . ؟

لقد اتصل هؤلاء اليهود ـ من وراء ظهر النبي ـ بأعدائه، وحرضوهم على قتاله، بل قدموا لهم العون المادي في كل صوره وأشكاله . . .

فماذا يقول السيدان جوزيف وديفيد بعد ذلك؟

ـ صمت . . . وهمس . . . . بين الحاضرين . . .

ثم قلت: هذه واحدة.

أما ثانياً: فإن المسلمين واليهود يؤمنون معاً بإله واحد لا شريك له فالإله الواحد الذي لا شريك له هو جوهر العقيدة عند المسلمين واليهود جميعاً. كما أن محاربة الوثنية والشرك هدف مشترك للديانتين معاً . .

ولكننا سنفاجأ بموقف في غاية الغرابة حين نعلم أن هؤلاء اليهود تنكروا لديانتهم تنكراً صارخاً. فعندما سألهم مشركو مكة عن ديانة محمد، وعن ديانة مشركي العرب. قالوا: إن دينكم خير من دين محمد . .

وبهذا الجواب آثر هؤلاء اليهود عبادة الأصنام على عبادة الله الواحد الأحد . .

ترى ماذا يقول السيدان جوزيف وديفيد؟ إن جوهر العقيدة عند المسلمين واليهود واحد كما قلت . . . وهو توحيد الله المنزه عن الشريك والولد والابن. فكيف يقرر هؤلاء اليهود ـ بعد ذلك ـ بأن مشركي مكة على حق؟ وإذا لم تكن هذه هي «الردة» فبماذا تسمي هذا العمل الطافح بالكفر والنفاق والحقد؟

إن هذه وحدها تكفي لوصفهم بأقسى درجات الخيانة والكفر . . .

أما ثالثاً: فأمر لا يتصوره عقل، وجريمة يقشعر منها البدن بالرغم من مرور الزمن والوقت.

إننا نحن المسلمين مطالبون بإكرام الضيف حتى لو لم نأكل، ومطالبون بإكرام الجار حتى وإن كان غير مسلم.

فكيف لو كان الجار نبياً من أولي العزم، ورسولاً مختاراً من الله لهداية البشر؟

غير أن ما فعله اليهود - مع النبي - كان عكس هذا كله..

في زيارة قام بها النبي إليهم. فكر رؤساهم وقالوا:

إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه... - يقصدون أنه كان بين عدد قليل من أصحابه - فهل نجد منكم رجلاً يصعد إلى ظهر هذا البيت ثم يلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟!..

مؤامرة بشعة ديست فيها كل التقاليد والقيم، ومع من؟ مع نبي، وأين؟ وهو في ضيافتهم التي توجب إكرام الضيف لا قتله على هذا النحو..

لقد أرادوا أن يجعلوا من النبي محمد مسيحاً آخر..

وكما نجّى الله المسيح من محاولة الصلب. نجّى محمداً أيضاً من محاولة القتل..

أرى بعضكم يهمس في أذن البعض... ربما كان ذلك بسبب قولي «محاولة الصلب».. إنني هنا أتكلم بمنطق إيماني

فقط... وفي ضوء هذا الإيمان تم إجراء هذا الحوار في ساحة هذا المسجد. وقد يتوهم البعض أنني منحاز بحكم الدين والعاطفة... أقول قد يتوهم البعض ذلك.. لذا.. فإني أترك الكلام لرجل لا تحوم حوله شبهة، ولا يشك أي يهودي في إخلاصه وصدقه..

إنه البروفسور اليهودي إسرائيل ولفنسون[١]: فماذا قال هذا الرجل:

«إن الذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود، وبين بني قريش الوثنيين، حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية».

إلى أن قال: «ثم إن ضرورات الحروب أباحت للأمم استعمال الحيل والأكاذيب، والتوسل بالخدع والأضاليل للتغلب على العدو، ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش، بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم، لأن بني إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٢٣.

من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين»[1].

ولكنهم بدلاً من ذلك انحازوا إلى الكفر وأساءوا إلى أنفسهم قبل أن يسيئوا إلى الغير، وأظهروا أنفسهم في صورة ينفر منها الصديق قبل العدو. فهل بقي بعد ذلك عند السيدين جوزيف وديفيد أدنى شك.. إن فيما قاله «البروفسور اليهودي إسرائيل ولفنسون» إدانة شاملة ليهود هذا العهد.

* * *

سؤال من السيدة ليندا Linda :

هل يعني ذلك الحكم باضطهاد اليهود ومطاردتهم أبد الدهر؟.

قلت للسيدة ليندا:

إننا نحن المسلمين نختلف عنكم - أي عن المسيحيين - في تطبيق هذا الحكم وفي تصور أبعاد هذا الحكم..

فالمسؤولية في الإسلام مسؤولية فردية.. أي ﴿.. **لا تزر وازرة وزر أخرى**﴾[2] ثم إن اليهود كالنصارى - أهل كتاب

(1) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٤٢ تأليف: إسرائيل ولفنسون.
(2) سورة فاطر: ١٨.

وأهل ذمة - ومعنى ذلك أيضاً أن الإسلام ضمن لهم الحرية في عقائدهم والحماية لأموالهم وأرواحهم. وأن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم... إن الإسلام يختلف عن المسيحية في هذه الفطرة المتسامحة، وفي حصر «الخطيئة» أو «الجريمة» في الزمان والمكان والشخص الذي فعل هذه الخطيئة أو ارتكب هذه الجريمة... إن لعنة اليهود لعنة أبدية عند الطوائف المسيحية المختلفة... والتغيير الذي حدث في السنوات الأخيرة بالنسبة لهذه القضية تحيط به شكوك كثيرة، وتغلفه مضامين سياسية غامضة.

إن الاضطهاد الذي لاحق اليهود في رحلة حياتهم الطويلة. لم يكن للمسلمين فيه جمل ولا ناقة.. بل كان المسلمون بالنسبة لهؤلاء اليهود سفينة النجاة في كل عصر تعرضوا فيه لأية محنة..

وعلى سبيل المثال: فقد كان اليهود في شبه جزيرة «أيبريا» أو ما يعرف باسم «البرتغال وإسبانيا» كتلة كبيرة عاملة ولكنهم كانوا موضع بغيض وتحامل من السلطة والكنيسة.

ففي عهد الملك سيزبوت فرض التنصر على اليهود أو النفي أو المصادرة، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرهاً ورياء (سنة ٦١٦ ميلادية). ثم توالت عليهم بعد ذلك صنوف الاضطهاد والمحن، حتى ركنوا مرة إلى التآمر وتدبير الثورة، وتفاهموا مع يهود المغرب على المؤازرة والتعاون. ولكن المؤامرة اكتشفت

قبل نضجها (٦٩٤ ميلادية). وكان ذلك في عهد الملك راجيكا، فقرر أن يشتد في معاقبتهم، واجتمع مؤتمر الأحبار في طليطلة للنظر في ذلك. وأجاب الملك إلى ما طلبه، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يتآمرون على سلامتها، ولأنهم ارتدوا عن النصرانية التي اعتنقوها من قبل. وقرر أن ينزع أملاكهم في سائر الولايات الإسبانية وأن تحول إلى جانب العرش، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدي للنصارى، وأن يهبهم الملك عبيداً لمن يشاء وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية، وألا يتزوج عبد يهودي إلا بنصرانية، ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني، وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف. فكانوا قبيل الفتح الإسلامي ضحية ظلم لا يطاق وكانوا يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر، ويرون في أولئك الفاتحين الذين يتركون للناس حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة، ملائكة منقذين».

كانت هذه الصورة للواقع اليهودي في المغرب والأندلس بين سنتي ٦١٦ و ٦٩٤ ميلادية تقابل ـ في المشرق ـ الفترة الواقعة بين الهجرة النبوية تقريباً وخلافة عمر وفتح الشام وفارس ومصر والعراق، وخلافة علي، وقيام الدولة الأموية، ثم أول اصطدامات ضد البيزنطيين في ديارهم ذاتها وأول

حصار للقسطنطينية سنة ٦٧٩ ميلادية، ولم يتأخر فتح الأندلس (٧١١) كثيراً.

ولذلك لم يكن غريباً، حين عبر طارق بن زياد بجيوشه إلى إسبانيا، إن «اليهود كانوا يعاونون المسلمين في تلك الفتوح.. وعندما وصل طارق بن زياد بجيوشه إلى طليطلة مخترقاً هضاب الأندلس.. كان القوط قد فروا، ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى، فاستولى طارق عليها، وأبقى على من بقي من سكانها، وترك لأهلها الكنائس، وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية».

يقول المؤرخ الأمريكي سكوت «.. كان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة والأحبار يزاولون شؤونهم في سلام».

وقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والعناية، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية في ظل ذلك التسامح الإسلامي المأثور، ووصلوا في قرطبة في ظل الخلافة إلى ذروة النفوذ والرخاء. وفي أيام الناصر تولى أحدهم، وهو العلاّمة حسداي بن شبروت، الإشراف على الخزانة العامة، وكان قبل ذلك قد حظي برعاية الناصر لخدماته الدبلوماسية، وترجمته لكتاب ديستوريدس عن الأعشاب الطبية، من اليونانية إلى العربية، وهو الكتاب الذي أهدى قيصر منه نسخة إلى

الناصر، وفي ظل هذه الرعاية، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة، أيام الناصر وولده الحكم، وقامت في ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية، ومؤسسها الرابي بن حنوش، وازدهرت في ظلها البحوث التلمودية، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث، واستمرت الخلافة الأموية، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية وتشجيعها، وكان يهود قرطبة يرتدون الزي العربي، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية، ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة»[1].

ولكن، هل شكروا لنا ذلك؟

بالعكس . . .

ما كادت كفة العرب تشل في الأندلس، حتى انقلب اليهود عليهم، وأصبحوا عملاء لملوك قشتالة وليون وأكناد[2] قطلونية وملوك أرغون.

وبلغ من إصرارهم على عداوة العرب أن نصبوا أنفسهم جباة

(١) نقلاً عن كتاب «شرعية السلطة في العالم العربي» أحمد بهاء الدين ص ١١٨ وما بعدها.

(٢) الأكناد جمع كند بضم الكاف وسكون النون وهو تعريب لفظ كونت Conte ولهذا يعرب أحياناً على قمط (بضم القاف وسكون الميم) والجمع أقماط ولفظ Comte محرف عن اللاتينية Comes ومعناه الرفيق أو رفيق الملك.

للأتاوات التي فرضها الملك ألفونسو السادس على بعض أمراء الطوائف.

وكشفوا للإسبان عن أسرار المسلمين ومواضع الضعف في دولهم، ونسوا كل أيادي العرب البيضاء عليهم . .

وعندما اتخذ الموحدون سياسة حذر من اليهود في الأندلس وبدءوا يضيقون عليهم هاجر الكثيرون منهم من الأندلس.

ولكن هل تظن أنهم هاجروا إلى أوروبا؟

لا، بل إلى بلاد عربية أخرى: إلى بلاد المغرب ومصر والشام، لأن أوروبا ما كانت لترحب بهم أبداً . .

وموسى بن ميمون ـ الذي يعده اليهود من عظماء فلاسفتهم ـ دليل على نكران اليهود للخير . .

فقد هاجر إلى مصر ولقي فيها إكراماً كبيراً، حتى أصبح في عداد أطباء الناصر صلاح الدين.

ولكنه كان ـ في السر ـ يكتب رسائل سباب للعرب إلى صديق له في الفيوم، ولدينا جانب من هذه الرسائل:

ذلك أن اليهود ـ في أعماق نفوسهم ـ لا يغفرون لأبناء عمومتهم العرب ما كتب الله لهم من التوفيق بفضل الإسلام ورسوله الكريم . .

هذا بعض ما فعله المسلمون لليهود . . أما ما فعله

المسيحيون ضد اليهود فإليكم بعض ما فعل وقيل ضد هؤلاء اليهود:

يقول الأب بريساك[1]:

«إن الخيانة في جوهرها يهودية: فإذا قلت: «خيانة» فإنك تعني اليهود.. ويقول: إن أول خائن يعرفه تاريخ فرنسا يهودي، ويقص حكايات كثيرة عن خيانات يهودية.

ولكن هذا الأب يحمله الحماس إلى قول سخافات مثل زعمة أن اليهود أيدوا الإسلام ليحاربوا به المسيحية.. وقال: إن هذا المعنى قال به أب دومينيكي يسمى Thierry في كتاب له عنوان «من موسى إلى محمد De Mose à Mohammad ثم يضيف أن العلاقة بين المسيحية واليهودية مثل العلاقة بين أعلى درجات السلم وأدناها.. وأن طيبة قلب المسيحيين هي التي سمحت لبعض اليهود بالصعود في السلم الاجتماعي عن طريق التنصر، وأن اليهود لا يحترمون غير القوة، والذين يتنصرون منهم إنما يبايعون القوة لا المسيح»..

ويسخر هذا الأب من كل محاولة للتقريب بين المسيحية واليهودية قائلاً: إنها محاولات لخداع المسيحيين، وينقد البابا

(١) نقلاً عن كتاب «كيف نفهم اليهود» للدكتور حسين مؤنس ص ٣٦ وما بعدها ـ سلسلة كتابك ـ دار المعارف.

بيوس الحادي عشر، لأنه قال: إننا ساميون من الناحية الروحية.

وفي فقرة طويلة يذكر الأب بريساك مثالب اليهود وما اشتهروا به من ذميم الصفات: ومن ذلك قطعة من الشعر اللاتيني نظمها شاعر يسمى سيسا Sessa كانت شائعة في العصور الوسطى كلها، تقول:

جنس محتقر، كريه الرائحة، وقح، حسود...

ناشر أمراض بلا شرف، مهمل، بغيض، خسيس.

قذر، بخيل، عنيد، ملعون، مشاكس...

لا تقى فيه، جحود، جشع، غير كريم، شديد العداوة.

ومن ذلك ما قاله فكتور هيجو في يهودي تنصر على يد البابا، ثم عهدوا إليه بعد ذلك في مرافقة الدوقة دوبيري Du Berry لحمايتها في السفر، فباعها بخمسة آلاف فرنك: !!!

الشرف والإيمان والقسم

ذلك ما باعه اليهودي دون ألم...

ومن ذلك أيضاً ما قاله الفيلسوف الفرنسي بوسويه Bosswet :

«أيها الشعب الملعون، هذا الدم سيتعقبكم إلى آخر وليد لكم» وما قاله البابا بولس الرابع: من أنهم شعب خلق

للاستعباد، وأنهم شعب في غاية السخف، وهو الذي أمر بأن يحبس يهود روما في حواريهم، أي أنه أنشأ «الجيتو» الروماني.

وقد حرصت الكنيسة أجيالاً متوالية على إنكار أن السيد المسيح كان يهودياً، ولوأنه ولد بين اليهود، ولهذا قالت بأصله الإلهي، وبقلبه المقدس، واسمه المقدس، والمسيح الملك، وما إلى ذلك من العبارات التي تنفي نفياً باتاً أي صلة بين المسيح ويوسف النجار، وتؤكد أنه ابن الله . . .

واستمرت الكنيسة تنص على ذلك حتى آمن الناس في أوروبا بأن السيدة العذراء ليست من آل هارون وإن كانت قد ولدت فيهم . . . فكان المسيحيون وهم يقتلون اليهود في مذابحهم الكثيرة في أوروبا يهتفون: تحيا مارية . . .

وقد أنكرت السيدة العذراء نفسها أي صلة باليهود عندما ظهرت - في الأسطورة - لبرناديت وقالت: أنا الحمل (بفتح الحاء وسكون الميم) الطاهر.

ويقرر الكتاب ما كان اليهود فيه من ذل في أوروبا طوال العصور الوسطى: فإلى جانب الاحتقار والمهانة والمقاطعة وإرغامهم على العيش فيما يسمى «بالجيتو» وهي حارات ضيقة قذرة ذات كهوف وسراديب تحت الأرض - كانوا يتعرضون لكل صنوف الأذى دون أن يتعرض من يؤذيهم لأي لوم . . .

ففي عيد «أحد السعف» في مدينة بيزييه في جنوبي فرنسا، كان الجمهور يتسلى بمطاردة اليهود ورميهم بالأحجار، زاعمين أنهم بذلك ينتقمون منهم لما اقترفوه في حق السيد المسيح . . . !

وفي تولوز كانت العادة أن يستدعي رئيس اليهود إلى بيت الحاكم يوم «أحد الفصح» حيث يتلقى أمام الناس صفعة عنيفة انتقاماً للمسيح، وقد تعمد أحد الفرسان مرة أن يصفع اليهودي بيده في قفاز حديد، فضربه ضربة تناثر منها مخه!!!.

وفي روما كانوا يرغمون اليهود على الرقص عرايا في مهرجان الفصح أمام الناس أجمعين والسياط تلهب ظهورهم إذا تراخوا في الرقص.

وكان أحد البابوات يأمر بوضعهم في براميل تبرز من جدرانها المسامير، تدحرج من أعلى تل تستشيانو! . .

وفي إسبانيا والبرتغال كانوا يحرقون أحياء بالمئات، وآخر يهودي أحرق في إسبانيا كان سنة ١٨٢٥ .

وفي جنوا كانوا يحبسون في أقفاص حديدية ويحرمون الطعام والماء إلى أن يقبلوا الصليب، وقد مات الكثيرون منهم دون أن يقبلوا[١] . . .

* * *

(١) المصدر السابق.

سؤال من السيد فوكس Fox :

هناك سؤال يطاردني منذ بدأت جلستنا هنا قبل ساعتين. . .

إن ما قيل حتى الآن لا يختلف فيه اثنان. . . ولكن الذي يحيرني ويحير غيري أيضاً هو:

لماذا اقترن انتشار الإسلام بالسيف؟ ولماذا ألصقت بالإسلام تهمة القسوة والعنف؟

قلت للسيد فوكس Fox أو الثعلب. . . كما هو معنى هذه الكلمة في لغة العرب. . . !!!

إن عدد المسلمين في العالم اليوم لا يتجاوز الألف مليون، وهذه الألف مليون تنتشر في أقطار مختلفة على شكل هلال يمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى المحيطين الهادىء والهندي شرقاً، وإذا تعاملنا مع الأرقام والإحصائيات فسنجد أن مساحة العالم الإسلامي حوالي ١٨,٠٠٠,٠٠٠ ثمانية عشر مليون كيلو متراً مربعاً.

وإذا عدنا مرة ثانية إلى استعمال هذه الأرقام فسنجد أن عدد البلدان الإسلامية تجاوز خمسة وأربعين بلداً وقطراً. . .

فإذا رجعنا إلى استخدام الأرقام مرة ثالثة فسنرى أن البلاد المفتوحة، أو التي وقع فيها صدام بين المسلمين وبين امبراطوريتي الفرس والروم ـ للأسباب التي أشرنا إليها سابقاً ـ سنرى أن هذه البلاد المفتوحة لا يتجاوز عددها الربع من

مجموع الدول الإسلامية التي أسلمت اقتناعاً وطوعاً. . . هذا **أولاً**.

أما ثانياً: وبالنسبة للبلاد التي فتحت، وكانت من أملاك الامبراطوريات السابقة. . . فإن سكان هذه البلاد المفتوحة رحبوا بالفاتحين ترحيب السجين المكبل بالمنقذ المحرر. . . ولم يكن لقوة هؤلاء الفاتحين أو سلطانهم أي أثر في اعتناق أبناء هذه البلاد المفتوحة لدين القوة الغالبة، بل اختار سكان هذه البلاد الإسلام كمثل أعلى للعدالة والمساواة والحرية.

في مصر على سبيل المثال. . . كان المصريون يعانون اضطهاداً رومانياً بشعاً، وكانوا يعذبون بسبب مذهبهم الديني المخالف لمذهب الدولة الرومانية عذاباً شديداً. . . وكان الحرق أو الخنق أو الإغراق في البحر من الوسائل المتبعة في تعذيب هؤلاء المصريين جميعاً. . .

وما كاد المسلمون يتجهون إلى مصر حتى سارع المسيحيون إلى مساعدتهم، وبناء الجسور لجيشهم، لما سمعوه من العدل الذي يحكم به المسلمون كل بلد فتحوه، وما كاد الأمر يستقر للمسلمين حتى سارع المسيحيون إلى الدخول في دينهم بالملايين، وحتى تحولت مصر إلى بلد إسلامي تبوأ مكان الزعامة والريادة بين العرب والمسلمين. . .

يقول المؤرخ الشهير (ولز) في صدد بحثه عن تعاليم الإسلام:

«إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة، ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي عما في أية جماعة أخرى سبقتها...» إلى أن يقول عن الإسلام: (إنه مليء بروح الرفق والسماحة والأخوة).

ويقول السير (مارك سايس) في وصف الامبراطورية الإسلامية في عهد الرشيد: (وكان المسيحيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة).

ويقول (ليفي بروتستال) في كتابه إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر: (إن كاتب الذمم كثيراً ما كان نصرانياً أو يهودياً، والوظائف مما يتقلده النصارى واليهود، وقد كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوروبا الغربية، وكانوا يتصرفون للدولة في الأعمال الإدارية والحربية).

ويقول (رينو) في تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط: (إن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير).

ويقول (أرنولد) وهو يتحدث عن المذاهب الدينية بين

الطوائف المسيحية: (ولكن مبادىء التسامح الإسلامي حرّمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس، مثال ذلك: أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيراً إلى أصحابها الشرعيين بعد أن دلل الأرثوذكس على ملكهم لها)... وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق.

ونرى خير ما نختم به هذه الإجابة... شهادة لحبر كبير من أحبار النصرانية ليس بمتهم في شهادته: لقد تحدث بطريرك أنطاكية ميخائيل الأكبر وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ـ بعد أن خضعت الكنائس الشرقية للحكم الإسلامي خمسة قرون ـ عن تسامح المسلمين واضطهاد الروم للكنائس الشرقية: (وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت والذي يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع، لما رأى شرور الروم، الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا ديارنا في كافة ممتلكاتهم وأنزلوا فينا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل (العرب)

من الجنوب (الجزيرة العربية) ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم، وفي الحق أننا إذا كنا قد تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خلقيدونية فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم، ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها ـ وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حوران ـ ومع ذلك لم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام).

ألست ترى معي يا سيد فوكس أن قول غوستاف لوبون: (إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم) هو إنصاف للحق قبل أن يكون إنصافاً للمسلمين؟

وأخيراً... فهناك كلمة لا بد منها... كلمة أقولها للسيد فوكس Fox لو كان «السيف» هو وسيلة المسلمين في إكراه غيرهم لاعتناق هذا الدين... لما بقي مسيحي واحد يعيش في مصر، ولما بقي مسيحيون آخرون يعيشون في مختلف أقطار الشرق...؟!

إن وجود هذه الأقليات المسيحية أو اليهودية التي ترفل في حلل الرخاء والثراء والنعمة. وبدرجة أعلى مما تحصل عليه الأغلبية المسلمة... لأكبر دليل على سقوط هذا الزعم،

وأصدق حجة تدفع هذا الاتهام القائم على التخرص والوهم.

أليس كذلك أيها العزيز فوكس... Fox؟

* * *

ـ سؤال من الآنسة روث Ruth:

لكن ما هي طبيعة العلاقات بين المسلمين وغيرهم في حال إنهاء الحرب وجنوح كلا الفريقين إلى السلام والصلح؟

إن في عالمنا اليوم ـ كما تعرف ـ منظمات واتفاقيات تهتم بهذا الأمر كما أن هناك معاهدات وقعت عليها معظم الدول بخصوص هذا الشأن.

* * *

ـ قلت للآنسة روث:

تقصدين اتفاقيات «جنيف» الخاصة بأسلوب التعامل بين الدول والجيوش في حالة الحرب؟

ـ هذا ما كنت أعنيه بالضبط.

* * *

إن القاعدة الأولى في الإسلام هي اعتبار الناس جميعاً إخوة... وأن السلم هو الأساس والقاعدة، والحرب ليس إلا علاجاً لحالة شاذة، وإذا حافظ غير المسلمين على السلم فهم والمسلمون إخوان في الإنسانية، يتعاونون على خيرها العام

ولكل دينه يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة. . . دون إضرار بأحد أو إنقاص لحق أحد. . . فهو ـ أي الإسلام ـ يحذر:

أ ـ أن تكون الحرب إذا وقعت حرب تنكيل أو تخريب.

ب ـ ولا يبيح الدخول في الحرب إلا بعد إعلانها بمدة كافية لوصول خبرها إلى العدو.

جـ ـ ولا يبيح ثالثاً إساءة معاملة الأسرى ولا التنكيل بهم.

د ـ ثم هو رابعاً لا يرى توقف إنهاء الحرب على أن يسلم المحاربون ويدخلوا في الإسلام. بل يكفي أن يكفوا شرهم، وأن يتعهدوا بوقف الشر، وما دام السلم هو الأصل فإن الإسلام يرحب بالمعاهدات التي تحافظ على السلم وتمنع أسباب القتال والحرب.

س: وهل فعل النبي ذلك مع أعدائه من قبل؟

جـ ـ تذكر أيها الصديق أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين هاجر إلى المدينة وقع معاهدة مع اليهود الذين كانوا يقيمون فيها ولم يدخلوا في الإسلام. . . وتذكر أيضاً. . . أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقع مع المشركين معاهدة الحديبية بالرغم من اعتراض بعض الصحابة الأجلاء.

س: حتى لو كان في هذه المعاهدات حيف على المسلمين وظلم؟

جـ ـ لا أيها الصديق. . . إن الحرب لا تقوم إلا لدفع هذا الظلم وهذا الجور وما بقي هناك ظلم فسيبقى الحديث دائماً للسيف، وما جاء الإسلام إلا لتخليص البشرية من طواغيت الشرك والظلم.

إن للمعاهدات في الإسلام شروطاً واضحة ومبادىء إنسانية رفيعة. . .

س: وما هي شروط توقيع أية معاهدة. ؟

جـ: لقد اشترط الإسلام شروطاً ثلاثة لا بد من توافرها في توقيع أية معاهدة صلح مع العدو ولم يترك الأمر هكذا دون تحفظ أو لا مبالاة بنوايا العدو.

أول هذه الشروط:

ألا تسيء هذه المعاهدة إلى الإسلام وشريعته العامة التي بها قوام الشخصية الإسلامية، وقد أثر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ـ أي **يرفضه الله ويأباه**». . . ولهذا لا يعترف الإسلام بشرعية معاهدة تستباح بها الشخصية الإسلامية وتفتح للأعداء باباً يمكنهم من الإغارة على الأمة الإسلامية أو يضعف من شأن المسلمين وقوتهم.

وثاني هذه الشروط:

أن تكون مبنية على التراضي بين الجانبين. . . ومن هنا لا يرى الإسلام قيمة للمعاهدة التي تنشأ على أساس من القهر والغلبة وأزيز (النفاثات) والصواريخ الموجهة. . . !

وثالث هذه الشروط:

أن تكون هذه المعاهدة واضحة الأهداف واضحة المعالم تحدد الالتزامات والحقوق تحديداً لا يدع مجالاً للتأويل واللعب بالألفاظ، وما أصيبت معاهدات الدول التي تزعم أنها تسعى إلى السلم بالإخفاق والفشل وكانت سبباً في النكبات العالمية إلا عن هذا الطريق طريق الغموض والالتواء. . .

ولعل أظهر مثل لذلك في الوقت الحاضر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذي يطالب إسرائيل بالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة. وهل الانسحاب من «أرض» Land أو من الأرض The land إن حرف «أل» أو حرف The خلق مشكلات كثيرة لا تزال قائمة، وجعل السلام أملاً بعيداً حتى هذه اللحظة.

* * *

- سؤال من السيد هارولد Harold

- ما القواعد أو المبادىء التي وضعها الإسلام للمحاربين أثناء الحرب؟

لقد أشارت الآنسة روث Ruth إلى اتفاقيات «جنيف» الخاصة بسلوكيات المحاربين في الحرب فهل لدى المسلمين مثل هذه الاتفاقيات التي تلزم المحارب بمثل هذا السلوك أثناء الحرب؟

* * *

قلت للسيد هارولد:

إن اتفاقيات «جنيف» لا يزيد عمرها عن أربعين عاماً. . . ومتى؟ في نهاية النصف الأول من القرن العشرين الذي لفظ إلى غير رجعة تقاليد القرون الوسطى. . . هذه القرون التي كابدت فيها الإنسانية من الويلات والمحن أهوالاً كبرى. . .

أما الإسلام. . . ـ وفي هذه العصور الهمجية التي مرت بها أوروبا ـ فقد كانت شرائعه ومبادئه غرة في جبين الدنيا.

لقد تجاوز الإسلام هذه المحنة منذ أربعة عشر قرناً، وتفوقت عدالته وإنسانيته على كل هذه المواثيق والاتفاقيات التي تتحدثون عنها هنا. . .

أتدرون بماذا كان يوصي النبي الجيش عندما يتحرك؟

«انطلقوا باسم الله. . . وعلى بركة رسوله. . . لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة، وإلا تغلوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين. . . إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور. . .»

وفي غزوة أحد ـ عندما هزم المسلمون ـ بسبب مخالفتهم للنبي دافع عنه أصحابه دفاعاً مستميتاً، وخرج من المعركة جريحاً، وقد كسرت رباعيته، وشج وجهه، ودخلت حلقتان من حلقات المغفر في وجنته.

فقال له بعض الصحابة: لو دعوت عليهم يا رسول الله، فقال لهم:

«إني لم أبعث لعاناً، ولكني بعثت داعية ورحمة... اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

وفي معركة أحد قتل أسد الله حمزة، عم النبي، قتله رجل يقال له وحشي، بتحريض من هند زوج أبي سفيان، ولما خر البطل، أخذت هند تفتش عن قلب حمزة حتى احتزته، ثم مضغته مبالغة في التشفي والانتقام... ثم أسلمت هند وأسلم وحشي. فماذا كان من رسول الله؟ لم يزد على أن استغفر لهند، وقبل إسلام وحشي وقال له: إن استطعت أن تعيش بعيداً عنا فافعل. هذا كل ما كان من رسول الله مع قاتل عمه حمزة ومع ماضغة قلبه...

ورأى في بعض حروبه امرأة من الأعداء مقتولة، فغضب وأنكر وقال: ألم أنهكم عن قتل النساء؟ ما كانت هذه لتقاتل.

ولما فتح مكة ودخلها الرسول ظافراً على رأس عشرة آلاف من أبطاله وجنوده، واستسلمت قريش، ووقفت تحت قدميه

أمام باب الكعبة، تنتظر حكم الرسول عليها بعد أن قاومته إحدى وعشرين سنة... ما زاد صلى الله عليه وسلم على أن قال: يا معشر قريش. ماذا تظنون أني فاعل بكم؟... قالوا خيراً: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. اذهبوا فأنتم الطلقاء.

إنه محمد الرسول معلم الإنسانية الخير، لا القائد السفاح الذي يسعى لمجده وسلطانه فتسكره نشوة النصر[1].

ومن وصايا أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقائد جيشه: «لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا تقطعوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة وسوف تمرون على قوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له» وفي هذه الوصية نهي صريح عن تخريب كل ما فيه فائدة وثمرة.

وكان عمر رضي الله عنه يقول عند عقد اللواء لأمير الجند «باسم الله على عون الله امضوا بتأييد الله ولكم النصر بلزوم الحرب والصبر. قاتلوا ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. ولا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً وتوقوا قتلهم إذا

(١) نقلاً عن كتاب «من معالم حضارتنا» ص ١٠٠.

التقى الفرسان وعند حمة النبضات وفي شن الغارات نزهوا الجهاد عن عرض الدنيا، وابشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم».

إن «عمر» هذا هو الذي أصر أسقف «إيلياء» أو بيت المقدس أن يحضر بنفسه لتسلم مفاتيح المدينة بعد أن فر جيش الروم هارباً. . . وقد استجاب «عمر» لرغبة هذا الأسقف وكان اسمه «سيفرنوص»، وذهب لزيارته في «كنيسة القيامة»، وعندما حان وقت الصلاة. . . صلاة «عمر» لا صلاة «الأسقف». . . خرج عمر من الكنيسة ليصلي خارجها. . . وحين أصر الأسقف أن يصلي عمر في الكنيسة رفض عمر حتى لا يتوهم المسلمون بصلاته في الكنيسة حقاً يؤدي إلى طرد المسيحيين منها. . .

هل تريد مزيداً أيها السيد هارولد. . . ؟

إليكم جميعاً نص المعاهدة أو الاتفاقية التي وقعها عمر مع الأسقف «سيفرنوص»

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ألا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم

ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وأن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم على أنفسهم وبيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء يرجع إلى أهله وأنه لا يؤخذ منهم من شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية».

* * *

ولما فتحت جيوشنا الظافرة دمشق وحمص وبقية المدن السورية، وأخذوا من أهلها مبالغ من المال صلحاً لقاء حمايتهم والدفاع عنهم، رأى قادتنا بعد أن جمع هرقل لهم الجموع لينازلهم في معركة فاصلة، أن يخلوا المدن المفتوحة ويتجمعوا في مكان واحد ينازلون به الروم مجتمعين. وخرج جيشنا من حمص ودمشق والمدن الأخرى، وجمع خالد أهل حمص وأبو عبيدة أهل دمشق، وغيرهما من القادة أهل المدن الأخرى وقالوا لهم: إنا كنا قد أخذنا منكم أموالاً على أن

نحميكم وندافع عنكم، ونحن الآن خارجون عنكم لا نملك حمايتكم، فهذه أموالكم نردها إليكم . . . فقال أهل المدن: ردكم الله ونصركم. والله لحكمكم وعدلكم أحب إلينا من جور الروم وظلمهم. والله لو كانوا مكانكم لما دفعوا إلينا شيئاً أخذوه، بل كانوا يأخذون معهم كل شيء يستطيعون حمله . . . نعم كما تفعل الجيوش في العصر الحاضر اليوم حين تضطر للجلاء عن مدينة لا تترك فيها أثراً ينتفع منه العدو. فهل سمعتم بمثل هذا؟

* * *

وعندما ثار بعض سكان لبنان على عاملها علي بن عبدالله بن عباس، فحاربهم وانتصر عليهم، ورأى من الحكمة أن يفرقهم ويجلي فريقاً منهم عن ديارهم إلى أماكن أخرى، وهذا أقل ما يمكن أن يفعله اليوم حاكم في أرقى الأمم، فما كان من الإمام الأوزاعي، إمام الشام ومجتهدها وعالمها، إلا أن كتب إلى والي لبنان رسالة ينكر عليه ما فعل، من إجلاء بعض اللبنانيين عن قراهم، ومعاقبة من لم يشترك في الثورة كمن اشترك فيها، وكان مما كتب إليه في ذلك:

«وقد كان من إجلاء أهل الذمة في جبل لبنان، ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحُكم الله تعالى أن لا تزر

وازرة وزر أخرى، وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة».

* * *

هل تعرفون لماذا أسلم المفكر العالمي الفرنسي روجيه جارودي؟ . . .

تعالوا نستمع إليه وهو يروي قصته . . . :

قضيت في السجن ثلاث سنوات، حيث اعتقلت في سبتمبر (أيلول) ١٩٤٠ م بواسطة مارشال بيتان وحكومة «فيشي»، وبقيت رهن الاعتقال حتى نهاية الحرب العالمية الثانية في معسكر بمنطقة جلفا بالصحراء الجزائرية، وهناك وقع حادث عجيب فعلاً، فقد تزعمت تمرداً في معسكر الاعتقال، وأجرى الكوماندور الفرنسي قائد المعسكر محاكمة سريعة، وأصدر حكماً بإعدامي رمياً بالرصاص، وأصدر أوامره بتنفيذ ذلك إلى الجنود الجزائريين المسلمين، وكانت المفاجأة عندما رفض هؤلاء تنفيذ إطلاق النار، ولم أفهم السبب لأول وهلة لأنني لا أعرف اللغة العربية، وبعد ذلك علمت من «مساعد» جزائري بالجيش الفرنسي كان يعمل في المعسكر أن شرف المحارب المسلم يمنعه من أن يطلق النار على إنسان أعزل . . . وكانت أول مرة أتعرف فيها على الإسلام من خلال هذا الحدث الهام

في حياتي، وقد علمني أكثر من دراسة عشر سنوات في السوربون...

- هل سمعتم بجيش منتصر يخرج من البلد الذي فتحه؟ وبأمر من؟ بأمر الخليفة القائد الأعلى لهذا الجيش... ولماذا؟ إليكم هذه القصة التي تروي أغرب حادثة في تاريخ الدنيا...

لما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز، وفد إليه قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أن قتيبة قائد الجيش الإسلامي فيها دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين غدراً بغير حق. فكتب عمر إلى عامله هناك أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين من سمرقند أخرجوا. !

فنصب لهم الوالي (جميع بن حاضر الباجي) قاضياً ينظر شكواهم، فحكم القاضي وهو مسلم، بإخراج المسلمين... على أن ينذرهم قائد الجيش الإسلامي بعد ذلك، وينابذهم وفقاً لمبادىء الحرب الإسلامية، حتى يكون أهل سمرقند على استعداد لقتال المسلمين فلا يؤخذوا بغتة.

فلما رأى ذلك أهل سمرقند، رأوا ما لا مثيل له في التاريخ من عدالة تنفذها الدولة على جيشها وقائدها... قالوا: هذه أمة لا تحارب، وإنما حكمها رحمة ونعمة، فرضوا ببقاء الجيش الإسلامي، وأقروا أن يقيم المسلمون بين أظهرهم.

أرأيتم... جيش يفتح مدينة ويدخلها، فيشتكي المغلوبون للدولة المنتصرة، فيحكم قضاؤها على الجيش الظافر ويأمر بإخراجه، ولا يدخلها بعد ذلك إلا أن يرضى أهلها...؟

أرأيتم في التاريخ القديم والحديث حرباً يتقيد أصحابها بمبادىء الأخلاق والحق كما تقيد به جيش المسلمين؟ إني لا أعلم في الدنيا كلها مثل هذا الموقف لأمة من أمم الأرض...

* * *

دقت ساعة المسجد لتعلن تمام الساعة الرابعة بعد الظهر... لقد حان وقت صلاة العصر، ولم يكن بد من توقف الحوار عند هذا الحد...

كان مفروضاً أن أنصرف قبل هذا الوقت... فقد كنت على موعد لتناول الغذاء في «بنكزتاون» Bankstown وهي ضاحية تبعد عن مدينة سيدني Sydney بأميال كثيرة ويقطعها القطار في حوالي نصف ساعة...

وفجأة قالت الآنسة أليس Alice :

إن الحوار لما ينته بعد...

نعم يا آنسة أليس... وموعدنا القادم - بمشيئة الله - يوم السبت.

وقال السيد جراهام Graham لم يبق لدينا أي شك حول نظرية الإسلام وفلسفته في السلام والحرب. وأن ما سمعناه في

هذا الحوار شيء فوق التصور والعقل . . .

ولكن . . . أليست المسيحية أقرب إلى التسامح والحب، وأبعد من اللجوء إلى استعمال القوة والعنف . . . ؟

- قلت للسيد جراهام:

هذا هو السؤال الصعب، وحين نلتقي مرة ثانية - بعد غد - فلسوف يتملككم الرعب من هول ما تسمعون عن الجرائم والأفاعيل التي ارتكبت في «مملكة الرب» . . . ولعبت فيها النصوص «المقدسة» دوراً يشمئز منه ضمير أي مسيحي في الشرق أو الغرب . . .

* * *

والآن إلى بانكزتاون Bankstown . . . لقد تابع مرور القطار في سرعة خاطفة لم أتبين خلالها موقعي على خريطة سير القطار المثبتة فوق الرأس . . . كل ما وعيته من أسماء لم يزد على بضع محطات قليلة توقف عندها القطار في انتظار التعليمات الخاصة بتأمين حركة السير.

رد فرن Redfern .

أرسكين فيل Erskine vill .

سانت بيتر St peter .

سيدن هام Syden ham .

ماركفيل Marrick vill .

دلويتش هل Dulwich hill .

كنتربري Canterbury .

لاكمبا Lakemba .

بانشي بول Punch bowl .

وأخيراً . . . بانكزتاون . . .

في «بانكزتاون» كان صاحب الدعوة ينتظرني في قلق واضح . . .

- لماذا تأخرت هذا الوقت كله؟

لقد كنت في حرب يا صاحبي . . . هذه الحرب التي لن تتوقف ما بقي في الدنيا باطل وحق، وحقيقة وزيف، وما بقي الغرب ينظر إلى الشرق المسلم هذه النظرة القاصرة عن رؤية الحقائق الناصعة نصوع الشمس . . .

* * *

الحوار الثّاني

- مفاجأة على الطريق . . .
- مع الشيـخ رفعت . . . من درب الجماميـز إلـى لندن London وكمبردج Cambridg .
- الـكتاب المقدس . . . والإبادة الجماعيـة لكـل المخالفين . . .
- وهذا ما قاله السيد المسيح . . .
- كن مسيحياً . . . وإلا . . . فمصيرك القتل!
- مذبحة باريس . . . والسلام الكاذب . . .
- إبليس يتقمص روح البابا أوربانوس الثاني . . . !
- ثلاثة قرون من الحرب ضد «الكفار» المسلمين . . . !
- تاريخ أسود . . . وأعمال . . . أشد سواداً . . .
- القضاة السفاحون . . . ومحاكم التفتيش .
- صورة . . . من المسرح الدموي .
- حوار في جهنم . . . !!!

خرجت مبكـراً لألحق بقطار الساعة التاسعة المتجه إلـى محطة القطار الرئيسيـة في مدينة سيـدني. . . لقد قطع القطار هذه المسافة في حوالـي ثلاث عشرة دقيقة. . . وبدون قصد. . . مشيت متجهاً إلى مخرج قديم تفوح من بين جدرانه رائحة الموت وتنضح واجهته بالوحشة والكآبة التي ينقبض منها الصدر. . .

وفجأة. . . وقعت عيناي علـى رجل تكـور حول نفسه بجوار جذع شجرة لم يبق من أوراقها سوى القليـل اليـابس، وشاخت جذورها بمضى الزمن في هذا المكان الموحش. . .

كان الرجل ممسكاً بزجاجة لصنف رخيص من الكحول الذي اعتاده الفقراء من مدمني الخمر. . . لم يكن ممكناً أن تحكـم على هذا الـرجل بالحيـاة أو الموت. . . فقد كانت أسراب الحشرات والنمل تتخذ منه هدفاً دون أن يصدر عنه صوت أو تتحرك ـ بإشارة منه ـ يد. . . !

أهذا هو إنسان الحضارة التي تريد أوربا أن تتخذه لنا مثلاً وقدوة. . . ؟

لقد تذكرت ـ على الفور ـ ما قاله العلامة «محمد إقبال» في نقضه لهذه الحضارة. . .

«. . . إن أوربا تنتحر. . . والروح تموت عطشاً في سرابها الخادع. . . فيها حضارة. . .؟ نعم. . . ولكنها حضارة تحتضر، وإن لم تمت حتف أنفها. . . فلسوف تنتحر غداً وتذهب. . . فأساس هذه الحضارة منهار لا يحتمل صدمة. . . لقد ذهبت هذه الحضارة تبحث عن الروح في المعدة. . . تفعل هذا الرأسمالية. . . كما تفعل هذا الشيوعية.

إن هذه وتلك تقومان على الشره والنهامة. . . فالرأسمالية تقضي على الروح. . . والشيوعية تقضي على الدين. . . وكلاهما موت للإنسان الذي استخلفه الله في هذه الأرض. . .»

* * *

ولست أدري. . . لماذا خطر ببالي - في هذه اللحظة - المرحوم الشيخ محمد رفعت وترتيله الملائكي لآيات التنزيل المحكم. لقد تعرفت على هذه الشيخ وقراءته في وقت مبكر من حياتي في القرية، ومن خلال جهاز الراديو الذي ظهر في «دوار» العمدة لأول مرة، وحين تركت هذه القرية إلى القاهرة كان أول ما حرصت عليه معرفة المسجد الذي يقرأ فيه الشيخ رفعت قبل صلاة الجمعة.

ولأول مرة أسمع عن «درب الجماميز» الذي يقع فيه هذا المسجد. . وعن «فاضل باشا» الرجل الذي أقام على نفقته الخاصة هذا المسجد. . لم يكن الشيخ رفعت قارئاً كغيره من

القراء. . ولم تكن قراءته كغيرها من القراءات. . إن صوته يحملك إلى آفاق قدسيه تقترب بك من الملأ الأعلى، ويحلق بروحك ووجدانك إلى السموات العلى. . . وفي بلاد كأوروبا وأستراليا تجذبك نشوة هذا الصوت وعذوبته إلى خارج هذه الدنيا. .

في حي هامبستيد Hampstead في مدينة لندن وفي شارع هينتون أفينيو Hinton Avinue بمدينة كمبردج، وفي حي أشفيلد Ashfield بمدينة سيدني Sydney كنت أحتفظ معي بتسجيلات لقراءة الشيخ رفعت. . وكان من بين هذه التسجيلات تسجيل الربع الأول من سورة مريم.

* * *

في صباح أحد الأيام. . تهيأت لتناول طعام الإفطار في الطابق الأول بالبيت الذي كنت أقيم فيه آنذاك بحي هامبستيد Hampstead لقد نسيت أن أوقف جهاز التسجيل قبل أن أنزل. . ففرض الشيخ رفعت - بصوته المؤثر - وجوده على كل من في المنزل.

وفجأة سألني المستر بيتر Peter :

● أعتقد أن هذا صوت أعظم مغن عندكم في مصر؟!

● قلت للسيد بيتر Peter مازحاً:

إن هذا ليس مغنياً. . . بل هو أشهر شيخ - عرفته مصر - للقرآن الكريم قارئاً ومرتلاً. .

وهنا قال السيد بيتر:

إن في صوته عمقاً يجذبك إلى سماعه . . . وكأني بطبقات الأثير وقد تحولت كلها في خدمة صوته . . . ؟!

* * *

ووجدتها فرصة لا يجب أن تفلت . . لقد كان الشيخ رفعت يقرأ من سورة مريم . . وكان التأثير النفسي في قمة سيطرته على مشاعر السيد بيتر . . .

لقد بهت السيد بيتر - بعد تفسيري - لما يقرأه الشيخ رفعت . . . واعترف وزوجته بأن هذه أول مرة يتعرفان فيها على الإسلام وموقفه من المسيح عيسى بن مريم . . وحتى هذه اللحظة التي نحدثك فيها كنا نعتبر محمداً ودينه عدو المسيح الأول . . . . !!!!

هذا الفهم المغلوط لرسالة الإسلام وعلاقته بالمسيحية ظاهرة شائعة في المجتمع الغربي كله . . وهي ظاهرة تدين معظم المؤسسات العاملة في مجال العمل الإسلامي - بغير استثناء - لمؤسسة دون أخرى . . .

وقد نشأ عن هذا التقصير أو الجهل فجوة . . . استغلها الآخرون فأقاموا من حولها سوراً أحاطوه بالديناميت والقنابل . . . وإلا . . . . فما السبب الحقيقي وراء - حملات الكراهية والعداء للإسلام والمسلمين في كل مكان من العالم؟

* * *

في منتصف القرن التاسع عشر فوجىء أهل لبنان برجل اسمه الأب ماكسمليان رجل دين جاء من لتوانيا . . لم يكد هذا الرجل ينزل إلى شاطىء لبنان حتى صرخ في الناس كأنه «يوحنا المعمدان» «الصارخ في البرية» كما تقول التوراة .

لقد التف حوله الناس وسألوه ماذا تريد أيها الأب الطيب؟

فإذا بهذا الرجل «الطيب» . . يطلب من المسيحيين إبادة كل مسلم ومسلمة ، وإخلاء لبنان من هذه الجماعة المسلمة المسالمة . .

وفي أوائل القرن العشرين جاءت سيدة كاثوليكية من مدينة «تورنتو» الإيطالية . . لقد زعمت هذه السيدة أنها رأت «العذراء» وقالت لها: قومي الآن . . وسافري إلى مدينة «صور» وسوف تجدين في الشارع الواسع بيتاً أبيض . . أمامه شجرة عنب أحمر . . . ادخلي البيت ، أطلقي الرصاص على الذي يفتح الباب ولا تتأسفي على ذلك . فهذا أمر من السماء . . وقد اختارتك السماء لنشر دين المسيح . . . !

وسافرت السيدة «أميليا كالابريزة» إلى مدينة صور ، ودقت الباب وانطلق الرصاص على طفل مسلم في الخامسة من عمره ! .

وعادت القاتلة «أميليا» إلى إيطاليا سعيدة . . . فقد أدت

واجبها، وأراحت ضميرها عندما قتلت طفلاً مسلماً بريئاً لا يزيد عمره عن الخامسة. . . !

* * *

ما هذا. . ؟

لقد أعلنت دقات ساعة المحطة الرئيسية الحادية عشرة إلا ربعاً. . .

إن الناس هناك ينتظرون قدومي لاستئناف الحوار الذي أعلن عنه يوم الخميس الماضي. . . لقد شغلتني حالة الرجل عن الموعد الذي خرجت من أجله. . ولولا دقات الساعة لبقيت مكاني إلى أن يأذن الله، وأفيق من هذه الغفلة. .

* * *

لقد اندفعت بخطى سريعة تجاه شارع إليزابيت Elizbeth . . . ومن هناك قطعت الطريق إلى سرى هيلز Surry Hills . . بارات Pubs ونوادي قمار. . ومصانع خمور. . . ترى كل هذه الموبقات في منطقة لا تزيد مساحتها عن نصف كيلومتر. . . وأخيراً ينتهي بك المطاف إلى المسجد والمركز الإسلامي في شارع الكومونولث. . Commonwealth .

* * *

كانت الآنسة فيكي Vieki واقفة في انتظاري على باب المسجد. . . وما كادت تراني حتى استدارت بوجهها إلى

الداخل لتصدر الأمر بالاستعداد والتحفز. . !

وما كدت أجلس فوق المقعد، وأسترجع وجوه الحاضرين في المسجد حتى لفت نظري غياب اليهوديين جوزيف Joseph وديفيد David إذن فقد كسبت الجولة الأولى في هذه المعركة. . ؟، وانسحبت «يهود» قبل أن تلحق بها هزيمة ساحقة. . ؟

وجاء السؤال الأول من السيد جراهام Graham :

. . . تعلم أن المسيح لم يقاتل أحداً في حياته وكان يقابل الإساءة بالصفح حتى من أشد خصومه وأعدائه.

أيُّ الأسلوبين في نظرك أعدل، وأكمل. الدعوة بالجهاد والحرب أم الدعوة بالتسامح والحب؟

● لا يختلف اثنان في الإجابة على هذا السؤال. . لأن الحرب شر. لا بد من تجنبه والقضاء على دوافعه وأسبابه.

والإسلام ـ كما سمعتم ـ لم يلجأ إلى الحرب إلا بعد استنفاد كل أسباب الحكمة والمنطق، واستنفاد كل الهمم لحقن الدماء ومنع وقوع الحرب. فإذا لم يكن من الحرب بد. فلا مناص من هذه الحرب، ولا مفر من القتال ضد الطغاة والمفسدين في الأرض.

والزعم. . . بأن المسيحية قامت على التسامح والحب أكذوبة فاحشة لا سند لها في قول أو فعل. وسترون حين

نتعرض لهذه الخرافة التاريخية. كم كان الإسلام رحيماً وكريماً ومتسامحاً أمام تلك المجازر والمذابح. التي وقعت ودبرت. ونفذت باسم المسيح والمسيحية والتي لم يشهد التاريخ مثيلها في أشد عصوره ظلاماً وهمجية..

وستعلمون أيضاً.. أن الدين الوحيد الذي استعمل الإكراه والضغط لإرغام الآخرين على اعتناقه. إنما هو الدين المسيحي فقط... وأن الإسلام وليس المسيحية هو الدين الذي لم يرغم أحداً على اعتناقه قط...

وهنا... أشرت بيدي إلى نسخة من الكتاب المقدس... وبدأت أقرأ من سفر «التثنية» وأستعيد ـ على الحاضرين ـ مرة أو مرتين ما جاء في هذه الملحمة.

«... حين تقترب من مدينة كي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك أبوابها فكل الشعب المولود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ـ هذا إذا سلمت المدينة ولم تحارب..

وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها.. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك.. فاضرب جميع ذكورها بحد السيف.

وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فهو

غنيمتك تغتنمها لنفسك.. هكذا تفعل. بجميع المدن البعيدة عنك جداً...

وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة.. فضرباً تضرب بحد السيف.. تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار. فتكون تلا إلى الأبد ولا تبنى بعدي.!

إن العهد القديم يوصي بحرب الإبادة، الإبادة التي لا تبقي في ديار الأعداء إنساناً ولا حيواناً.

والنصارى الذين حكموا نفذوا هذه الوصاية بدقة، واستوحوا منها مسالكهم تجاه خصومهم في العقيدة.

إنهم يسفكون هذه الدماء، لا على أنها جرائم، بل على أنها قربات يطلبون بها رضوان الرب.

في الإصحاح السادس من سفر يشوع «وكان في المرة السابعة، عندما ضرب الكهنة بالأبواق، أن يشوع قال للشعب: اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة[1]، فتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب...

وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيماً، فسقط السور في مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة، كل رجل مع وجهه.

---

(١) أريحا.

وأخذوا المدينة، وحرموا[1] كل ما في المدينة من رجل، وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها».

وفي الإصحاح الثامن «فقال الرب ليشوع: مد المزراق الذي بيدك نحو «عاي» لأني بيدك أدفعه . .

فمد يشوع المزراق الذي بيده نحو المدينة.

فقام الكمين بسرعة من مكانه وركضوا عندما مد يده، ودخلوا وأخذوها وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار.

ولما رأى يشوع وجميع إسرائيل أن الكمين قد أخذ المدينة، وأن دخان المدينة قد صعد، انثنوا وضربوا رجال عاي.

وهؤلاء خرجوا من المدينة للقائهم فكانوا في وسط إسرائيل، هؤلاء من هنا، وأولئك من هناك، وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت. !

وأما ملك عاي فأمسكوه حياً وتقدموا به إلى يشوع.

وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان «عاي» في الحقل، في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف حتى فنوا، إن جميع إسرائيل رجع إلى «عاي» وضربوها بحد السيف.

(١) قتلوا.

فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً، جميع أهل «عاي».

وفي الإصحاح العاشر «ثم اجتاز يشوع، وكل إسرائيل معه، من «لخيشا» إلى «عجلونا» فنزلوا عليها وحاربوها، وأخذوها في ذلك اليوم وضربوها بحد السيف وحرم كل نفس بها في ذلك اليوم. .

«فضرب يشوع كل أرض الجبل، والجنوب والسهل، والسفوح، وكل ملوكها، لم يبق شارداً بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل».

وفي الإصحاح الحادي عشر «. . . ثم رجع يشوع في ذلك الوقت، وأخذ «حاصور» «وضرب ملكها بالسيف، لأن «حاصور» كانت قبلاً رأس جميع تلك الممالك وضربوا كل نفس بها بحد السيف، حرموهم[1]، ولم تبق نسمة، وأحرق «حاصور» بالنار.

فأخذ «يشوع» كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف، حرمهم كما أمر موسى عبد الرب.

. . . لم تكن مدينة صالحت بني إسرائيل إلا «الحويين» سكان «جبعون» بل أخذوا الجميع بالحرب، لأنه كان قبل

(١) أي قتلوهم.

الـرب أن يشدد قلـوبهم، حتى يلاقوا إسرائيـل للمحاربة، فيحرموا، فلا تكـون عليهم رأفة، بل يبادروا كما أمر الـرب موسى.

إن هذه التعاليم الإلّهية في نظر اليهود والنصارى هي أساس الصلات بين المؤمنين وخصومهم.. هي التدمير للـذي يسقط جثة الأب، إلـى جوار ولـده، إلـى جوار امرأته... ثم يهدم البيت فوق الجميع.

هذه هي المبادىء، والأسس التي يصدر عنها رجال لا يستحيون من اتهام الإسلام بأنه انتشر بالسيف؟؟

فالحقود الذي يتشهى سفك الدماء لا يستكثر عليه الافتراء.

إنهم إن كانوا أبادوا خصومهم وإن كانوا قلة مكروا وتربصوا وجحدوا، ثم لا يعوز أحدهم الوجه الذي يتهم به الإسلام بأنه قام على السيف[1]...

● سؤال من الآنستين أليس Alice وكريستين Kristain :

إن ما ذكرته خاص بأنبياء العهد القديم فما شأن المسيحية أو المسيح بسفك الدماء على هذا النحو الأليم؟

● قلت للآنستين «أليس»... و .... «كريستين»:

نحن المسلمين لا نسلم لكم بهذا الـرأي... فالـكتاب

---

(١) التعصب والتسامح للأستاذ الشيخ محمد الغزالي.

المقدس بقسميـه القديـم والجديـد كل لا يتجزأ، والإيمان المسيحي كما تعلمون لا يفرق بين سابق ولاحق... والمسيح عليـه السلام يقرر أنه ما جاء لينقض الناموس بل ليـكمل.. والمسيحيـون بمختلف مذاهبهم يجمعون العهديـن القديـم والجديد في مجلد واحد... ولو ذهبت إحداكما الآن إلى آية كنيسة... وسألتا أي راهب أو قس عن العلاقة بين العهدين ما اختلفت الإجابة في أنهما شيء واحد مقدس، وإنكـار ما جاء في العهد القديـم أي التوراة هرطقة مرفوضة من أي مجمع مقدس...

إنني لست مفوضاً من الـكنيسة لتعريفكـم بالوصايـا العشر....، وليست لي صلاحيـة الكـاهن كي أعيـد علـى مسامعكم عظة المسيح من فوق الجبل... إنني مسلم أعرف ديني الذي به أتكلم...

وإذا كانت الآنستان أليس، وكريستين مصرتين على موقفهما من الـرفض... فأرجو أن يتسع صدرهما لما جاء في العهد الجديد أو الإنجيل من الدعوة إلى السيف.

وعن المسيحيـة وتاريخها المليـء بالقتل وإراقة الـدماء والعنف....!!

وفي هذا يقول المسيح عليه السلام بالنص:

«لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً علـى الأرض.. ما جئت

لألقي سلاماً بل سيفاً . . . . فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والإبنة ضد أمها والكنة ضد حماتها . . . وأعداء الإنسان أهل بيته . . . من أحب أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني . . ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني . . . ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني . . . ومن وجد حياته يضيعها . . . ومن أضاع حياته من أجلي يجدها . . . من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني» (متى ١٠ : ٣٤ ـ ٤٠) .

وهذا المعنى يفسره بولس قائلاً :

لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين . . . لأنه أية خلطة للبر والإثم . . . وأية شركة للنور مع الظلمة وأي اتفاق للمسيح مع بليعال . . . وأي نصيب للمؤمنين مع غير المؤمنين . . . وأية موافقة لهيكل الله مع الأوثان . . . فإنكم أنتم هيكل الله الحي (كورنثوس الثانية ٦ : ١٤ ـ ١٦) .

ثم قال لهم أي المسيح حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية هل أعوزكم شيء . فقالوا لا . فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك . ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتري سيفاً . لأني أقول لكم إنه ينبغي أن يتم في أيضاً هذا المكتوب وأحصي مع أثمه . لأن ما هو من جهتي له انقضاء فقالوا يا رب هوذا هنا سيفان . فقال لهم يكفي (لوقا ٢٢ : ٣٥ ـ ٣٨) .

«لأني أقول لكم»[1] . . . .

(١) لقد ورد هذا النص على لسان المسيح عليه السلام في مجال ضرب الأمثال=

إن كل من له يعطي . . .

ومن ليس له . . . فالذي عنده يؤخذ منه :

أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي . . . » (لوقا الإصحاح الحادي عشر)

ـ وجوم . . . وصمت . . . !!!

* * *

● سؤال من السيد جون John :

ولكنك تعلم أن المسيح لم يحارب ، وكان يدعو تلاميذه وحواريه إلى الصفح والعفو في كل جانب؟

* * *

قلت للسيد جون :

أما أن السيد المسيح لم يحارب فهذا حق . وإما أنه كان يدعو إلى الصفح والعفو فهذا أيضاً حق . ولكن المسيح عليه السلام لم يكن منفرداً بهذه المزايا التي دعا إليها كل رسول ونبي . . . لقد فعل كل الأنبياء ذلك وما من نبي ولا رسول إلا سلك مسلك العفو والتسامح . . . . ثم في النهاية . . . . كانت المواجهة . . . وكان الصراع بين الحق والباطل . . . وإذا كان المسيح عليه السلام لم يفعل ذلك . . . فلأن حياته في هذه

= للذين لا يلتزمون قواعد الإيمان والأخلاق . وضرب المثل لا يكون إلا في حال الاستشهاد بالمعنى الوارد في هذا المثل .

الدنيا كانت قصيرة . . . ولم يعش حتى يرى للمسيحية في هذه الدنيا دولة وإمارة .

فالدعوة إلى التسامح كانت وليدة ظروف الضعف والقلة . ولو عاش المسيح عليه السلام عمراً أطول ، لما ترك الباطل يمتهن أهل الحق . . . . وما سمح بظلم يقع على أي فرد .

يقول المؤرخون لتاريخ المسيحية[1] :

«منذ اللحظة الأولى لظفر الكنيسة بسلطة مدنية ـ في عهد قسطنطين ـ دخل مبدأ الكبح العام ، واستمر عشرة قرون شداد ، رسف فيها العقل والقلب في الأغلال ، وعانى من قسوته اليهود والوثنيون كثيراً» .

«وقد حاول قسطنطين أن يضع حداً لشرورهم ، فأصدر قانوناً يقضي بإحراق كل يهودي يلقي على من اعتنق المسيحية حجراً ، وعقاب كل مسيحي تهود . . . ثم عدل العقاب إلى مصادرة الأملاك ، فإن تزوج يهودي بمسيحية أعدم» قال : وقد أبان (تسطريوس) بطريق القسطنطينية عن مبدئه في الاضطهاد حين قال للامبراطور: أعطني الدنيا وقد تطهرت من الملحدين ، أمنحك نعيم الجنة المقيم . . !

ثم شرعت عقوبة الإعدام للملحدين ونظم إفنائهم .

---

(١) الدكتور توفيق الطويل .

ووضع (تيودسيوس) في أواخر القرن الرابع قوانين صارمة تتضمن ستاً وستين مادة لمقاومة الهرطقة ، وإلى جانبها بنود أخرى لاستئصال الوثنية ، ومناهضة الأديان اليهودية ، والارتداد عن الدين ومزاولة السحر ، ونحو ذلك .

وكان هذا الدستور يقضي بإقصاء الوثنيين عن وظائف الدولة ، وتحريم طقوسهم وحظر عباداتهم ، وهدم معابدهم ، وتحطيم صورهم» .

وفي أوائل القرن الخامس ظهر القديس (أوغسطين) وهو رجل عنيف المشاعر بالغ القسوة .

كانت حياته سوط عذاب على مخالفي المسيحية ، ورافضي الدخول فيها وقد أمد حركة الاضطهاد بالوقود الذي زادها ضراماً ، ورسم للأخلاف مُثلاً سيئة للجماح والتوحش .

«وتمشياً مع هذا سلم (أوغسطين) بمعاقبة الملحد بالنفي والجلد وفرض الغرامات ، ووضع للكنيسة دستوراً تلتزمه إزاء كل حركة إلحادية . . . . » .

ومن رأي (أوغسطين) ـ الذي استمده من عقيدة الخلاص ، ومن نصوص ، العهد القديم ـ أن عقاب الملحدين هو من دلالات الرفق بهم وشواهد الرحمة ، إذا كان هذا العقاب ينقذهم من العذاب الأبدي الذي ينتظر المرتدين عن المسيحية . . . . »!

«إن الهرطقة توصف في الكتاب المقدس، وكأنها نوع من الفسق والمروق وعبادة الأوثان، إنها أسوأ أنواع القتل، لأنها قتل للأرواح، من أجل ذلك اقتضت العدالة أن ينال أهلها ما يستحقون من عقاب، وإذا كان العهد الجديد قد خلا من رسول استخدم القوة والعنف في نشر الدين، فقد كان هذا لأن عصرهم قد خلا من وجود أمير يعتنق المسيحية».

هكذا يقول (أوغسطين) يعني أن المسيحية لم تستعمل القوة من عهد عيسى، لأنها لم تتح لها، ولم تتيسر وسائلها، ولو أتيحت لها، ما تورعت عن قهر الأمم بها.

ويقول القديس الجبار مستدلاً على آرائه هذه من حوادث العهد القديم ألم يذبح (اليشع) بيده أنبياء (بعل)؟

ألم يحطم (حزقيال) و (يوشع) ملك (بختنصر) بعد ارتداده؟

إن أتباع الاضطهاد من أمثال القديس «أوغسطين» قد استندوا إلى آيات وردت في الإنجيل. كقول المسيح لحوارييه:

«أجبروهم على اعتناق دينكم» أو «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً، بل سيفاً، فإني جئت لأفرق الإنسان من أبيه، والابنة من أمها، والكنّة من حماتها، وأعداء الإنسان من أهل بيته».

هذه الكلمات هي التي حكمت تاريخ النصرانية، وصبغته - من بدايته وحتى هذا اليوم -. . .

أما «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر» فكلام لم يعرفه المسيحيون مع أنفسهم يوماً ولا مع أعدائهم ساعة. . .

* * *

هل سمعتم بمذبحة باريس -. . . . . . -؟

لقد أراد «تشرلس» التاسع سنة ١٥٧٤ أن ينشر الأمن في ربوع البلاد فهادن الهوجونوت وأدنى زعماءهم من حضرته، وتوج هذه الحركة بالرغبة في تزويج أخته من زعيم لهم، فأثار هذا المسلك ثائرة الكاثوليك، وفي ليلة الزفاف أقبلت جموع «الهوجونوت» تترى إلى باريس، فأطلق الرصاص على زعيمهم.

وعندئذٍ وطد عزمه على التنكيل بمن حاول اغتياله، وخشي «الكاثوليك» مغبة ذلك فعقدوا النية على أن يجعلوا عيد القديس «بارتليمو» في ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ مذبحة يبيدون فيها خصومهم.

وفي منتصف الليل دق ناقوس كنيسة «سان جرمان» مؤذناً ببدء المذبحة فإذا بأشراف الكاثوليك والحرس الملكي وجموع الجماهير تنقض على بيوت الهوجونوت والفنادق التي آوتهم، وتأتي على من بها ذبحاً.

فلما أصبح الصباح كانت شوارع باريس تجري بدماء ألفين من النفوس. وتطايرت أنباء المذبحة المروعة إلى الأقاليم، فإذا بها تستحيل ـ بدورها ـ مجزرة تجري بدماء ثمانية آلاف من هؤلاء المساكين.

بل قيل: إن هذه المذبحة قد أودت بحياة نيف وعشرين ألفاً.

وقد أثار وقوع هذه المذبحة الغبطة والرضا في أوروبا المسيحية الكاثوليكية كلها، فكاد «فيليب الثاني» يجن من فرط الفرح عندما بلغته أنباؤها، وانهالت التهاني على «تشرلس التاسع» بغير حساب...

وكاد البابا «جريجوري» الثالث عشر يطير من السرور.

حتى إنه أمر بسك أوسمة لتخليد ذكراها توزع على وجوه الشعب وعيونه وقد رسمت على هذه الأوسمة صورته، وإلى جانبه ملك يضرب بسيفه أعناق الملحدين. !!!

وكتب على هذه الأوسمة (إعدام الملحدين).

وأمر البابا ـ إلى جانب هذا ـ بإطلاق المدافع وإقامة القداس في شتى الكنائس، ودعا الفنانين إلى تصوير مناظر المذبحة على حوائط الفاتيكان، وأرسل تهنئته الخاصة إلى «تشارلس»[1]

(١) المرجع نفسه.

والمجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام. . . !!!!

يذكر (بريفولت) أن تقدير المؤرخين للناس الذين قتلتهم المسيحية في انتشارها أي في أوروبا ـ يتراوح بين سبعة ملايين كحد أدنى، وخمسة عشر مليوناً كحد أعلى.

إن فظاعة هذا العدد تتضح لنا عندما نذكر أن عدد سكان أوروبا آنذاك كان جزءاً ضئيلاً فقط من سكانها اليوم.

كانت الفظائع والمذابح التي قام بها المسيحيون ضد خصومهم تجد لها سنداً في التوراة التي تقول في شأن هؤلاء الخصوم: اهدموا معابدهم واقذفوا أعمدتها إلى النار، واحرقوا جميع صورها. . كما توصي التوراة بتحريق المدن بعد فتحها، وقتل كل من فيها من رجال ونساء وأطفال.

وكان الذين يقومون بتلك العمليات الوحشية يزعمون لأنفسهم أنهم يتقربون إلى الله وينفذون إرادته، ويعجلون لأعدائه بعض النقمة التي تنتظرهم في الآخرة. عبرت عن ذلك ملكة إنجلترا «الكاثوليكية» في القرن السادس عشر (ماري) حين أعلنت مرة: بما أن أرواح الكفرة سوف تحرق في جهنم أبداً، فليس هناك أكثر شرعية من تقليد الانتقام الإلهي بإحراقهم على الأرض. !

(١) من كتاب بناة الإنسانية.

Briffault. The Makfing Of Humanty.

ومن العجيب أن البروتسانت حين قويت شوكتهم فعلوا الشيء نفسه مع الكاثوليك ولم يكونوا أقل وحشية منهم.

لقد قال لوثر Luther لأتباعه:

من استطاع منكم فليقتل... فليخنق... فليذبح سراً أو علانية....! اقتلوا واذبحوا ما طاب لكم... هؤلاء الفلاحين الثائرين[1]....!!!

* * *

«كان القصد الأعلى للمسيحية كقصد كل أيديولوجية إنقلابية، إنشاء عالم مسيحي جديد ليس فيه سوى المؤمنين[2].

كان الإيمان المسيحي «شرطاً جوهرياً كي يصبح الفرد عضواً في مجتمع القرون الوسطى وكان ضرورياً كي يصبح الفرد مواطناً أن يصير مسيحياً.

لهذا بقي الوثني أو اليهودي أو المسلم خارج المجتمع، أي في انتظار القتل عندما يأتي... وعندما يقع!.

وفجأة خيم الصمت.. ورأيت الحاضرين ينظر بعضهم إلى بعض.! أهي المفاجأة؟ أم تعرية الباطل من أرديته الزائفة؟ أم الطلب للراحة؟ أم مراجعة النفس فيما أثير حول هذه القضية

(١) نديم البيطار: الإيديولوجية الانقلابية ص ١١٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٧١٦.

الحساسة الهامة؟ أم هذا كله وقد انعكس على الوجوه فأصابها بالصمت والكآبة؟

ونـاديت على الخادم ليقدم لنا بعض المشروبات الساخنة... وكأنما كان هذا النداء مفتاحاً للنفوس المغلقة فانطلقوا يتحدثون في مرح يشعر بانفراج هذه النازلة...!!!

لقد مضى نصف ساعة وكأنه دقيقة... ثم عاد الجميع بعد ذلك للجلوس والصمت في انتظار ما تتكشف عنه الحقيقة.

قلت للسيد أندرو Andrew :

ـ هل قرأت عن الإسلام شيئاً؟ إن هذه المعرفة ضرورية كي يكون حوارنا مفيداً ومجدياً....

وهنا كانت المفاجأة المذهلة... إن كل ما يعرفه السيد أندرو ورفاقه عن الإسلام خرافة... كانوا يتصورون أن الإسلام دين وقتي كما كانوا يتصورون «النبي محمد» تصوراً ينفر من ذكراه أي إنسان مدني.. إنها أفاعيل الكنيسة، وأكاذيب التبشير الذي ألصق بالإسلام كل نقيصة!

قلت ـ موجهاً الكلام ـ إلى السيد أندرو ورفاقه: إنكم على أية حال ضحية... ضحية التزييف والتدليس الذي مضى عليه الآن حوالي ألف وأربعمائة سنة.

فنحن المسلمين نؤمن بالله الواحد الذي لم يلد ولم يولد.

وبهذا يختلف الإسلام عن المسيحية في أمرين:

الأمر الأول: إنكار أن يكون لله ولد.

الأمر الثاني: إنكار أن يكون لله شريك في ملكه من أحد. وبهذا نعتبر التثليث في «الألوهية» شركاً مرفوضاً إلى الأبد.

* * *

كما نؤمن ـ نحن المسلمين ـ بجميع الأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل النبي محمد.

نؤمن بإبراهيم وموسى والمسيح بن مريم ونعتبر الإيمان بأي نبي سبق كالإيمان بالنبي محمد... وإنكار أي نبي من هؤلاء الأنبياء إنكار في الوقت نفسه بالنبي محمد. إننا لسنا كاليهود الذين أنكروا مجيء المسيح.. ولسنا كالمسيحيين الذين ينكرون نبوة محمد فالإسلام شامل لكل من سبقه من الأنبياء والرسل، ورسالة الجميع واحدة منذ ظهور آدم إلى البشر.

كما نؤمن نحن المسلمين بجميع الكتب التي أنزلت.. كما أنزلت..... نؤمن بالتوراة الحقيقية التي أنزلت على موسى ـ كما نؤمن بالإنجيل الحقيقي الذي جاء به عيسى.. نؤمن بهما بقدر إيماننا بالقرآن الذي أنزل على النبي محمد.

لقد جمع القرآن الكريم هذا كله في آية واحدة: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله...﴾**[1].

(1) سورة البقرة: ٢٨٥.

ـ أصوات: إننا نسمع هذا لأول مرة....؟!

المستر جراهام: الصمت أيها السادة!.

ثم قلت: هل تجدون في الإنجيل إصحاحاً خاصاً بالسيدة مريم؟

أعرف أن الجواب: لا.. فلا يوجد شيء من ذلك قطعاً... ولكن القرآن يتحدث عن مريم حديثاً تهتز له المشاعر، ويخصها دون غيرها من النساء بسورة مستقلة تحمل اسمها الطاهر....!

وبالرغم من هذا كله. فالعالم المسيحي لم يهدأ لحظة... ولم تفتر عداوته مرة واحدة في حمل السيف لإبادة الإسلام وأهله....... ومطاردة هذا الدين في طول العالم وعرضه.

هل سمعتم ببطرس الناسك.. والبابا أوربانوس الفاتك!

لقد أشعل هذان الرجلان حرباً ضد الإسلام استمرت بضعة قرون خيم فيها على العالم المعروف آنذاك ظلام دامس وخراب همجي شامل....

هذه الحرب التي أثارها الإفرنج على المسلمين في القرون الحادي والثاني والثالث عشر كان ظاهرها استخلاص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين الذين كانوا ـ كما يزعم بطرس الناسك ـ يقيدون حجاج المسيحيين بالسلاسل والأغلال، ويمتهنون قبر المسيح، ويعاملون أهالي تلك البلاد المسيحيين

معاملة الذل والهوان، قامت هذه الحروب وظاهرها ـ كما يقول البابا أوربانوس الثاني في خطاب الدعوة الذي ألقاه في مدينة كليرمونت فرنسا سنة ١٠٩٥م ـ إنها ليست لأخذ الثأر عن الإهانات التي لحقت النوع الإنساني فحسب، بل عن تلك الإهانات التي أتاها الكفار (المسلمون) نحو الله. . . ؟!.

أما باطنها وهو ما لم يستطع البابا إخفاءه فهو كما قال في خطاب الدعوة الآنف الذكر «إنها ليست لاكتساب مدينة واحدة، بل لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى، فاتخذوا حجة البيت المقدس، وخَلِّصُوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين لها، وامتلكوها أنتم خالصة لكم من دون أولئك الكفار، فهذه الأرض كما قالت التوراة (تفيض لبناً وعسلاً)».

وقد اتخذ البابا من أساليب الخداع ما جادت به قريحته، وحركته إليه مطامعه، فأعلن أن كل من اشترك في هذه الحروب، غفرت له ذنوبه، ودخل في حماية الكنيسة، وأن ماله وأهله وذويه جميعاً في حماية الكنيسة، وأن متاعب الحرب وأخطارها ليست إلا تكفيراً عن الذنوب. !

أضف إلى هذا ما ردده من الكلام المثير المهيج للعواطف كقوله:

«أيها الجند المسيحيون، لقد كنتم تحاولون من غير جدوى

إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم، أفيقوا فقد وجدتم اليوم داعياً حقيقياً إليها، لقد كنتم سبب انزعاج مواطنيكم، فاذهبوا الآن وأزعجوا البرابرة، اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار. . ؟ . .

«أيها الجند، أنتم الذين كانوا سلع الشرور والفتن، ألا هبوا اليوم وقدموا قواكم وسواعدكم ثمناً لإيمانكم، وتسلحوا بسلاح الدين والتقوى، فإنكم بذلك تنالون الجزاء والنعيم الدائم».

«إنكم إن انتصرتم على عدوكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثاً، وإن أنتم خذلتم فستموتون حيث مات اليسوع، فلا ينساكم الرب من رحمته، فيحلكم محل أوليائه»!

«هذا هو الوقت الذي تبرهنون فيه على أن فيكم قوة وعزماً وبطشاً وشجاعة، هذا أوان تظهرون فيه شجاعتكم التي طالما أظهرتموها وقت السلم، وإذا كان من المحتم أن تثأروا لأنفسكم فاذهبوا واغسلوا أيديكم بدماء أولئك الكفار». !!!

فلما رآهم يبكون متأثرين بخداعه ومكره قال:

«الحمدلله، لقد أصبح جند النار جنداً لله، يا قوم. . إذا دعاكم الرب اليسوع إلى مساعدته فلا تتواروا في بيوتكم متقاعدين، ولا تفكروا في شيء إلا فيما وقع فيه إخوانكم المسيحيون من الذل والهوان والمسكنة، ولا تستمعوا إلا إلى القدس وزفراته،

واذكروا جيداً ما قاله لكم المسيح «ليس مني من يحب أباه وأمه أكثر من محبته إياي، أما الذي يترك بيته ووطنه وأمه وأباه وزوجه وأولاده وممتلكاته ومقتنياته حباً فيّ ومن أجلي فسيخلد في النعيم، وسيجزيه الله الجزاء الأوفى»[1].

«.... وقد ضرب الصليبيون خلال الحروب الصليبية كثيراً من الأمثلة للتعصب وأتوا من الفظائع والمذابح والكبائر ما تقشعر منه الأبدان، وقد اعترف بذلك معظم الكتاب والمؤرخين الأوروبيين، ومن هؤلاء المؤرخين (ميشو) في كتابه (الحروب الصليبية)، الذي ذكر أن الصليبيين حين فتحوا معرة النعمان قد قتلوا جميع مَنْ كان فيها مِنَ المسلمين اللاجئين إلى الجوامع والمختبئين في السراديب، فأهلكوا صبراً أكثر من مائة ألف إنسان، وكانت المعرة من أعظم مدن الشام. وفتح الصليبيون القدس بعد أن أفحشوا القتل في المسلمين، حتى هلك منهم عشرات الألوف، فيهم جماعة من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد. وارتكب الصليبيون كل محرم في دينهم مع المسلمين واليهود.

وقال المؤرخ (ميشو) أيضاً: تعصب الصليبيون في القدس أنواع التعصب الأعمى الذي لم يسبق له نظير، حتى شكا من

(١) نقلاً عن تاريخ العالم للمؤرخين.

Hustorian: History of the World

ذلك المنصفون من مؤرخيهم فكانوا يكرهون المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت، ويجعلونهم طعاماً للنار، ويخرجونهم من الأقبية، وأعماق الأرض ويجرونهم في الساحات، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين، ودام الذبح في المسلمين أسبوعاً، حتى قتلوا منهم - على ما اتفق على روايته - مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة، ولم ينج اليهود كالعرب من الذبح، فوضع الصليبيون النار في المذبح الذي لجأوا إليه، وأهلكوهم كلهم بالنار.

وكان من عادة الصليبيين أن يقتلوا أهل كل بلد يدخلونه في الشام ويخربوا عمرانه ويحرقوا كتبه ومتاعه وآثاره. فقد أحرقوا دار المحكمة في طرابلس وكان فيها نحو مائة ألف مجلد[1].

واعترف المؤرخ (جوستاف لوبون)[2] بفظائع الصليبيين في القدس فقال: أراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهل القدس قاطبة، فانهمكوا في كل ما يستقذره الإنسان من ضروب السكر والعربدة، واغتاظ مؤرخوا النصارى أنفسهم من سلوك حماة النصرانية مع اتصاف هؤلاء المؤرخين بروح الإغضاء والتساهل، فنعتهم (برنارد الخازن) بالمجانين، وشبههم

(١) كرد علي: الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٢٩٦.
(٢) نقلاً عن كتاب «الإسلام وأهل الذمة» دكتور علي حسن الخربوطي ص ١٩٦ وما بعدها.

(بودوان) الذي كان رئيس أساقفة (دول) بالفروس التي تتمرغ في الأقذار.

وهناك وثيقة تاريخية تصف فظائع الصليبيين في القدس، كتبها المؤرخ الراهبي روبرت وفيها يقول: «كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبوءات التي خطفت صغارها وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا لا يستبقون إنساناً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، فيا للعجب ويا للغرابة أن تذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم، وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية، فيا للشره وحب الذهب.. وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث، فيا لتلك الشعوب العمي المعدة للقتل.. ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية ديناً، ثم أحضر (بوهيموند) جميع الذين اعتقلهم في برج القصر، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم وبسوق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاكية لكي يباعوا فيها»[1].

فماذا فعل المسلمون حين استردوا بيت المقدس على يدي صلاح الدين؟

(١) من روائع حضارتنا. دكتور مصطفى السباعي.

كان في القدس حينما استعادها صلاح الدين (٥٨٣ هـ) من الصليبيين مائة ألف صليبي، منهم ستون ألف راجل وفارس، سوى من تبعهم من النساء والأطفال، فأبقى صلاح الدين على حياتهم، واستوصى بهم خيراً، ونابذ فقهاءه فيما ارتأوه من معاملتهم بمثل ما عامل به أجداد الصليبيين جمهور المسلمين يوم فتحهم القدس، واكتفى بأن ضرب فدية عادلة، وعجز بعضهم عن دفع الفدية، فأدى الملك العادل أخو صلاح الدين فدية عن ألف صليبي، واقتدى به صلاح الدين نفسه فأعفى كثيرين من الفدية، وأغضى عن جواهر الصليبيين وذهبهم وفضتهم، وعامل نساء الإفرنج معاملة كريمة، وسهل السبيل لخروج ملكتين بما معهما من جواهر وأموال وخدم ورخص للبطريرك الأكبر أن يسير آمناً بأموال البيع والجوامع التي كان غنمها الصليبيون في فتوحهم. ولما قال المسلمون لصلاح الدين إن هذا البطريرك يقوى بما أخذ على حرب المسلمين ثانية، قال: لا أغدر به.

ولما عقد الصلح بين المسلمين والصليبيين دخل خلق عظيم من الإفرنج إلى القدس فأكرمهم صلاح الدين وقدم لهم الأطعمة وباسطهم. فألقى صلاح الدين على الصليبيين درساً في مكارم الأخلاق وسماحة الإسلام[1].

(١) كرد علي: الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٢٩٨.

واعترف المؤرخ (جوستاف لوبون)[١] بتسامح صلاح الدين وعدله وعطفه، فقال: وتم طرد الصليبيين من القدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي، ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الأولون من ضروب التوحش فيبيد النصارى على بكرة أبيهم، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعاً سلب شيء منهم.

وأشار المؤرخ (أيوركا) بما لقيه الصليبيون من حسن معاملة صلاح الدين لهم يوم فتحه القدس، فقال: لقد أظهر الجند المسلمون الذين رافقوا المطرودين من أهل الصليب شفقة مؤثرة، ولا سيما على النساء والأطفال. ولا يتأتى إيراد البرهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيين، حتى لقد هدد أصحاب السفن من رعايا الجمهوريات الإيطالية ليركّبوا هؤلاء البائسين من الصليبيين.

علم صلاح الدين بمرض خصمه ريتشارد قلب الأسد، وبأنه في حاجة إلى بعض الفاكهة والثلج، فبعث إليه صلاح الدين بحاجته، وأرفقها بالدواء والشراب، ولم يكد ريتشارد يشفى من مرضه حتى عاد مرة أخرى إلى قتال صلاح الدين وحربه.... !!!

ومن عجيب[٢] أن قسوتهم ونكثهم للعهود كانت فيما بينهم

(١) حضارة العرب ص ٣٢٩.

(٢) من روائع حضارتنا. الدكتور مصطفى السباعي ص ١٠٨ وما بعدها.

بعضهم مع بعض، لا تقل عما هي عليه في موقفهم منا.. إنهم القساة الغلاظ الأكباد في كل بلد يغلبونه شرقياً كان أو غربياً، وهم القساة الغلاظ الأكباد مع كل ضعيف يهزمونه مسلماً كان أو نصرانياً. وها هم بأنفسهم يتحدثون عن قسوتهم.

كتب القس «أودوالدويلي» أحد رهبان القديس دينيس الذي كان يشغل وظيفة قسيس خاص للويس السابع وصحبه في الحملة الصليبية الثانية عن بعض مشاهداته فقال: «بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم براً عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس، منوا بهزيمة فادحة على أيدي الترك في ممرات فريجيا الجبلية عام ١١٤٨، وبلغوا مدينة «أتاليا» الساحلية بشق الأنفس، وهنا تمكن جميع الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة التي كان يفرضها عليهم تجار الإغريق من الإبحار إلى أنطاكية، بينما خلفوا وراءهم المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الإغريق، الذين أخذوا مبلغ خمسمائة مارك من لويس على شريطة أن يمدوا الحجيج بقوة من الحرس، وأن يعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يمكن إرسالهم ليلحقوا بسائر زملائهم. ولكن لم يكد الجيش يغادر المكان حتى أخبر الإغريق الترك بموقف الحجيج الأعزل، وراقبوا في صمت ما أصاب هؤلاء التعساء من المجاعة والمرض وسهام العدو التي جرت عليهم الدمار والخراب وهم في طريقهم إلى معسكرهم.

وحاولت جماعة تبلغ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف أن تلوذ بالفرار بدافع من اليأس، ولكن الترك الذين كانوا قد بلغوا المعسكر وهجموا عليه ليتابعوا انتصارهم أحدقوا بهم ومزقوهم شر ممزق، وكاد يكون موقف من نجا من الموت منهم قد بلغ حد اليأس لو أن منظر شقائهم لم يذب قلوب المسلمين ويستدر شفقتهم، فواسوا المرضى، وأغاثوا الفقير والجائع الذي أشرف على الهلاك، وبذلوا لهم العطاء في كرم وسخاء، بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية التي ابتزها الإغريق من الحجاج بالقوة أو الخداع، ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم، فكان البون شاسعاً بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج من الكفار (يعني المسلمين) وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم المسيحيين من الإغريق الذين فرضوا عليهم السخرة وضربوهم وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل. . حتى إن كثيراً منهم دخلوا في دين منقذيهم بمحض إرادتهم، وكما يقول المؤرخ القديم:

«لقد جفوا إخوانهم في الدين الذين كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار (المسلمين) الذين كانوا رحماء عليهم! . ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك آه، إنها لرحمة أقسى من الغدر. . لقد منحوهم الخبز ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً من بينهم على نبذ دينه، وإنما

اكتفوا بما قدموا لهم من مساعدة. . . ومن رحمة افتقدوها عند إخوانهم في العقيدة. . . !!!

* * *

السيدة ليندا Linda :

كم أنا حزينة لما أسمعه الآن. . لا أتصور أن يحدث مثل ذلك من وحوش الغابة. . إن الوحوش لا تفترس إلا في حالة الضرورة. . أما أن يكون ذلك على أيدي بشر. . ومن رجال دين يفترض فيهم الرحمة والعدل. . ومن بابوات وكهنة ينتسبون إلى السيد المسيح له المجد. . .

فالأمر - من وجهة نظري - يحتاج إلى مراجعة. . مراجعة لكل القيم والمفاهيم التي درجنا عليها منذ الطفولة. بل منذ بدأ تعميدنا بالماء المقدس في الكنيسة. . . . ؟!

الآنسة روث Ruth :

لقد شارك جدي في الحرب العالمية الأولى. . . كان ضابطاً في الكتيبة الأسترالية النيوزيلندية التي أطلق عليها اسم «أنزاك» Anzac وخلد عملها بالنصب التذكاري المقام في إحدى حدائق مدينة سيدني. . . لقد تعرضت هذه الكتيبة لمأساة رهيبة سقط بسببها ألوف القتلى والجرحى. ومما قاله جدي عن ذكرياته في هذه الحرب أن الجنود المسلمين كانوا يجودون بأطعمتهم ودوائهم لعلاج المصابين في هذه المعركة. . . لقد تبدلت فكرة

جدي عن المسلمين منذ هذه اللحظة . . . حتى الأتراك الذين تصفهم الكتب والمراجع بالفظاظة والقسوة . . . . كانوا أكثر رحمة من البريطانيين الذين تخلوا عن الجنود الأستراليين والنيوزيلانديين في هذه المحنة . . . !

لقد نكأت يا سيدي جراحات عديدة في تاريخنا الديني والقومي . . . فهل بقي شيء تضيفه إلى ما قلته عن هذه المرحلة الحالكة من تاريخنا البشري؟ .

السيد ريتشارد Richard :

معذرة يا آنسة «روث» من هذه المقاطعة . . . إنني كرجل بروتستانتي أوافقك في كل ما قلته بالنسبة للبابا والكنيسة . . . أما عن البروتستانت . . فقد كانوا ـ مثل المسلمين ضحايا ـ هذه الحروب الهمجية الفظيعة . .

قلت للسيد ريتشارد :

إن لوثر Luther لم يكن قد ولد بعد حتى نحكم له أو عليه في هذه المرحلة ، والمشكلة هي ليست في «لوثر» أو «البابا» وغيرهما من رجال الكنيسة . . . إن جوهر المشكلة في النصوص والكتب التي تشكل عقلية رجل الدين أياً كان مذهبه وكانت طائفته ، وهي نصوص متفق عليها بين الجميع دون تفرقة . . وإلا . . فما تفسير ما يحدث الآن في شمال إيرلندا بين الكاثوليك والبروتستانت . . ؟ .

ثم ألم يقل لوثر: اذبح . . اقتل . . ولا ترحم أحداً من هؤلاء الفلاحين الجهلة؟

ربما تختلف الوسائل والطرق . . . ولكن الهدف ـ في النهاية ـ واحد وهو إبادة المخالفين للكنيسة بأي سبب . . . وهل قامت محاكم التفتيش إلا لهذا السبب ولهذا الغرض؟

وسوف نستقي نماذجنا[1] عن فساد الكنيسة من الكتاب الذي كتبه الدكتور إسحق عبيد، وهو أستاذ مسيحي ـ عن: «محاكم التفتيش، نشأتها ونشاطها» فهو يرجع الفساد في الكنيسة إلى القرن الحادي عشر عندما اشتبكت مع السلطة الزمنية في صراع دموي حوّل صعيد أوروبا إلى ساحة من التوتر الدائم ، وفي أثناء هذا الصراع بين الأمير والكاهن خرجت البابوية عن حدود صلاحياتها ، فدخلت المعارك ولطخت يدها بالدسائس ، وذهل الناس عندما رأوا كاهن الله في زي قيصر، ممسكاً بالسيف وبيارق الحرب ، فراحوا يترحمون على السلام العالمي وعلى «مدينة الله» .

وينقل الدكتور إسحق عبيد عن المؤرخ «لي» بعض الأمثلة ، فيذكر كيف كان الأسقف «ليبولد» رجلاً عسكرياً ظالماً حتى إن أخاه خاطبه في إحدى المرات قائلاً: «يا أخانا الأسقف ، إن فرسان العالم الإقطاعي أقل ضراوة منك في مسلكك . لقد كنت

(١) نقلاً عن مجلة العربي للدكتور عبد العظيم رمضان .

تخاف الله قليلاً قبل دخولك سلك الدين، ولكن أراك اليوم لا تخشى السماء» . . . فرد عليه الأسقف قائلاً: «عندما نلتقي يا أخي أنا وأنت في جهنم، قد أبادلك مقعدك» . . . . ! !

كما يذكر كيف فاحت في سنة ١١٩٨ رائحة فضائح كبير أساقفة بيزانسون المدعو جيرارد دي روجيمونت، وكذلك مخازي «ما هي دي لورين» أسقف تول، الذي كان غارقاً حتى أذنيه في الرشوة ورحلات الصيد، بل إنه قام في سنة ١٢١٧ باغتيال خصمه «رينوة دي سنليس». وقد عرف عن مندوبي البابا (القاصد الرسولي) أن جيوبهم باتت تحشى بالفضة والذهب في رحلاتهم التفتيشية، حتى شكا رهبان الداوية إلى البابا إسكندر الثالث بأن القاصدين الرسوليين باتوا يعبدون صنم المال، وقد صاح روبرت جروستيست في إحدى المرات في وجه البابا أنوست الرابع قائلاً: «الويل لكم من صنم المال، ها هو ذا يشتري كل شهرة مادية. حتى في بيت الفاتيكان».

ويذكر عن مخازي البابا إسكندر السادس (بورجيا) أنه كان مغرماً بالنساء، وكان يحيط نفسه بالراقصات، حتى إنه لم يكن ينام في فراشه بمفرده، وكان للبابا إسكندر السادس أبناء كثيرون من سفاح، خاصة من السيدة «فانوتزا» التي رزق منها بكل من: قيصر، وجان، ولوكريس، وجوفري، كما رزق من أخرى بكل من: جرومين، وإزابيل، وببارلويس، ولورا،

وكان من خليلاته السيدة جوليا فرانيزي، وكان البابا إسكندر السادس لا يتورع عن مسلك الفجور في وجود بناته وأفراد حاشيته الفاسدة، حتى لقد أشارت بعض الأصابع إليه بالاعتداء على المحارم!، كما اشتهر عن بوجيا، مثلما قيل عن سلفه سكستوس، بالولع بالغلمان!، وكان هذا البابا يبيع منصب الكرادلة بالمال، وقد بلغت الرشوة في هذا المنصب مبلغ مليون ومائتي ألف مارك من الذهب، ولم يكن بورجيا يتورع عن دس السم لمن يريد التخلص منه من معارفه ليرث أملاكه، ولم يسلم من هذا الجرم علماني أو رجل دين في روما، وقد ذاع عن «سم» بورجيا اسم خاص هو «كانتا ريللا»، وكان يعده صيادلة مرموقون في روما. ! ! !

* * *

وقد اشتهر من رؤساء «الديوان» الذين كانوا يصدرون الأحكام في سبع مقاطعات في «إسبانيا».

١ - (توركويمادا).

٢ - (ديزا).

٣ - (سيزنيووس).

٤ - (فلويرنسيو).

٥ - (مانريكي).

٦ - (تاليو).

٧ - (لوابيزا).

وهؤلاء السبعة كانوا قد أمروا بإحراق عدة آلاف من الناس وهم أحياء، وأشدهم قسوة وفظاعة هو أولهم: (توركويمادا)[1].

وإذا ما حكم بالموت أو بالحرق على فرد - أو أكثر - طيف بهم قبل يوم التنفيذ بيومين في أسواق المدينة وهم مكبلون بالأغلال والأصفاد مطوقين بالسلاسل الغليظة، تحيط بهم فرقة من الجند تسلحوا بالسيوف والقضبان الحديدية (على هيئة النبابيت)، وفي خاتمة المطاف يحشر المحكوم عليهم في سجن واحد استعداداً ليوم التنفيذ.

* * *

فإذا ما رفعت راية (الديوان) إشارة للبدء في التنفيذ تقدم الجلاد من الضحايا وقال لهم:

- (يا ضحايا ديواننا المقدس.. إن هذه الأطواق الحديدية لرقابكم، وهذه الكمامات لأفواهكم، ويلزم كلا منكم أن يتقدم فيضع طوقه في عنقه وكمامته في فمه..).

أما أردية الرهبان: فملابس حمراء.. وقلائد ذهبية..، تسير بهم المواكب والمراكب الفخمة.

ويتقدم الملك ورجال البلاط والسلطة ورجال القضاء

(١) محاكم التفتيش - محمد علي قطب ص ١٠١ وما بعدها.

والعواد، ويقف ألوف الناس لمشاهدة حرق (الكفار)..، وقد هيىء الحطب، وأعد كل شيء لإصعاد المحكومين إلى المحارق.

ويتقدم رئيس (الديوان) من منصة الملك الذي يقف له إجلالاً واحتراماً، هو ومن في حضرته من أساقفة، ثم يقول للملك والذي يحمل في يده صليباً:

- يا صاحب الجلالة..!

بينا تحمل في يدك هذا الصليب المقدس، ترانا ننتظر من جلالتكم أن تقسموا على أن تعضدوا (الديوان المقدس) وأن تثبتوا سلطتنا في هذه البلاد... فيقسم الملك يميناً يمليها عليه الأساقفة أمامه...

ويستمر الرئيس في القول:

- وأن تقسم يا صاحب الجلالة على أن كل ما يعمله ديوان التفتيش وكل ما يجريه من الأحكام إنما هو مطابق لتعاليم الكنيسة الرسولية الرومانية، وأنه أيضاً مطابق لشرائع بلادكم التي ترمي إلى تطهير هذه البلاد من الكفرة والزنادقة وأصحاب التعاليم الشيطانية!.

فيقسم الملك أيضاً بما يمليه عليه القساوسة من الأيمان المغلظة...

ويستمر الرئيس فيقول:

ـ ليبارك الله جلالتكم وليمكنكم من الحكم طويلاً في الأرض ما دمت سنداً لشرائع (الديوان المقدس)، وشرائع الكنيسة الرسولية الرومانية.

ثم يجلس الملك، ويتقدم كاتب (الديوان) إلى وسط الميدان ـ وكانوا يتخيرونه رجلاً كبير الهامة، ضخم الجثة، جهوري الصوت ـ فيقف على منصة مرتفعة ويأخذ في تلاوة صورة الحكم في ورقة في يده، والناس في صمت، وكأن على رؤوسهم الطير...

وبعد الانتهاء من تلاوة الحكم، يتقدم (رئيس الديوان) ويمنح الغفران لأولئك المساكين، ويأمر بترتيل مزمور مطلعه: (ارحمني يا رب كما شاءت رحمتك).!!!

فيرتل الناس والكهنة ذلك المزمور.

* * *

ومكان الحرق ـ أو الشنق ـ عبارة عن أربعة أعمدة، وأحياناً عمود واحد، أو جذع شجرة مرتفع، وحوله أكوام الحطب من كل جهة، على علو ثلاثة أمتار تقريباً من الأرض، ويكون على هيئة مصطبة مربعة في أعلاه، والعمود بارز منها.

فكانوا يوقفون المحكوم عليه إلى هذا العمود ويربطون حبلاً في رقبته، ويربط الحبل إلى العمود، ويلف الجلاد الحبل على الرقبة عدة مرات، وفي كل مرة يشتد في الضغط حتى يختنق

المحكوم...، وأحياناً كانت الحبال تشد إلى وسطه فقط إذا ما توسل المسكين إليهم أن لا يخنقوه.... بل تترك النيران تأكله وهو حي...!!!

ثم يصعد كاهن وفي يده صليب من العاج يعرضه على المسكين ليقبله قبل حرقه، وذلك قبيل إضرام النار بقليل...؟..

وكل من مات في سجون (الديوان) تحرق جثته ـ أيضاً ـ كي لا يعرف له قبر.

ومن التهم الغريبة التي كانت توجه إلى ضحايا هذه المحكمة أن فلاناً أنشد أغاني عربية... أو أنه يكثر من الاستحمام كما هو عند المسلمين.. أو لدفاعه ـ ولو بكلمة واحدة ـ عن «محمد بن عبدالله» «صلى الله عليه وسلم»... أو لتكفين ميت بأثواب جديدة، أو الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب النبيذ وصبغ اليد بالخضاب.. أو لإحراز كتب عربية... أو لقيامه إلى الصلاة... أو صومه... أو لوضوئه... أو لوجود أوراق باللغة العربية أو قرآن عند المتهم...، فكان العقاب شديداً من إرهاب وحرق وجلد ومصادرة وتعذيب وتشهير... بإركاب المتهم حماراً وقد علق بظهره لوحة فيها اسمه وتهمته... ثم يطاف به في أرجاء المدينة...).

* * *

من قرأ منكم الكوميديا الإلّهية التي كتبها «دانتي»؟ إن الجحيم الذي وصفه هذا الشاعر الإيطالي يعتبر جنة إذا قورن بجحيم رجال الدين المنتسبين إلى يسوع الناصري . . . ؟!

يقول أحد ضباط الحملة الفرنسية التي احتلت إسبانيا واسمه الكولونيل «ليمونسكي» بدأنا تفتيش أحد الأديرة التي سمعنا بوجود أحد دواوين التفتيش فيه. وكادت جهودنا تذهب سدى ونحن نبحث عن هذا الديوان في سراديبه وأقبيته المعتمة . .

لقد فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها. فلم نجد شيئاً يدل على وجود ديوان تفتيش. فعزمنا على الخروج من الدير يائسين، كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهماً باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير، لكن اللفتنانت «دي ليل» استمهلني قائلاً: أيسمح لي الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنته حتى الآن؟!!.
قلت له: فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئاً مريباً، فماذا تريد يا لفتنانت؟!.. قال: إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف فإن قلبي يحدثني بأن السر تحتها.

عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضباط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة، عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة

على حدة. وكنا نرقب الماء. فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف. فصفق الضابط «دي ليل» من شدة فرحه، وقال ها هو الباب، انظروا فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.

أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة.

وفتح الباب، فظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين. ولما هممت بالنزول، وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفاً، وقال لي: يا بني، لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال، إنها شمعة مقدسة!!!

قلت له، يا هذا إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء. وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك!؟!

وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، وهي عندهم قاعة المحكمة، وفي وسطها عمود من الرخام به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها.

وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاء لمحاكمة الأبرياء. ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.

رأيت فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طوال حياتي.

رأينا غرفاً صغيرة في حجم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرفة العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت. ويبقى سجين الأفقية ممداً بها حتى الموت وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى. ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان. ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي.

وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها.

كان السجناء رجالاً ونساءً، تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم في الرمق الأخير من الحياة.

كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبوا عليه من عذاب وكان السجناء عراياً، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.

أخرجنا السجناء إلى النور تدريجياً حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحاً، وهم يقبلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهداً يبكي الصخور. !

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري. كانوا يبدأون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدور والرأس واليدين تدريجياً، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين!.

ثم عثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه رأس الذي يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام، في كل دقيقة نقطة، وقد جن الكثيرون من هذا اللون من العذاب. ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت. !

وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة.

كانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون

بابه بسكاكينه وخناجره. فإذا أغلق مزق جسم المعذب المسكين، وقطعه إرباً إرباً. !!!

كما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشد ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنف حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين.

وعثرنا على سياط من الحديد الشائك يضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم[1]. !!

* * *

وهنا توقفت لحظة... وشاهدت الآنسة «روث» وهي تمسح دموعها خلسة...!

ماذا حدث لك يا آنسة روث؟ Ruth

لا أكاد أصدق ما أراه أمامي الآن في هذه الآنسة التي اغرورقت عيناها بالدمع...

هذه هي الفطرة الإنسانية المجردة من كل نوازع الكراهية والحقد... إن البشرية لا يمكن أن تفقد فطرتها لأسباب طارئة مهما يكن الباعث أو الدافع لطمس هذه الفطرة الراسخة...

(١) محاكم التفتيش للدكتور علي مظهر. نقلاً عن كتاب التعصب والتسامح للأستاذ محمد الغزالي. صفحات ٣١١ ـ ٣١٨ باختصار.

وستبقى هذه الفطرة هي المفتاح والمدخل إلى كل شيء جميل نراه في هذه الحياة الزائفة... معذرة أيتها الفتاة الطيبة القلب!

لقد آن الأوان لإسدال الستار على هذه المأساة الملطخة بالدم... دم الأبرياء والشهداء الذين راحوا ضحية التزييف المغلف بأقاويل ونصوص لم ينزل بها من السماء وحيٌ... !!!

* * *

هل شاهدت فيلم «زوربا»... زوربا اليوناني الذي ألفه «نيقوس كازانتزاكس»... إن لهذا المؤلف كتاباً آخر اسمه «المسيح يصلب من جديد» وفي هذا الكتاب يحدثنا المؤلف اليوناني عن راهب ورم جسمه من كثرة الشحم. ومن أكل أموال اليتامى والأرامل حتى العظم...! لقد رفض هذا الراهب إنقاذ حياة أطفال من الموت... كما رفض لجوء إخوة له في العقيدة حتى لا يشاركوه لقمة العيش! إن كلمة «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» تحولت عنده إلى شيك يتضخم رصيده كل يوم في البنك! وذهبت الوصايا والتعاليم إلى محرقة شهواته التي تتوهج بلون الدم...!

لكل هذا... كتب «نيقوس» روايته التي تكرر محاولة الصلب!

لقد أوشك الستار أن يسدل كما قلت . . . ولكن ليس قبل أن نرى هذا الرجل المسلم الواقف أمام قضاة من الوحوش في محكمة «الرب» . . . !!!

وليس قبل أن نسمع هذا الحوار الساخر بين الضحية والذئب . . .

* * *

لقد جيء بذلك الرجل أمام المحكمة ، فقال رئيس المحكمة لجنود التفتيش :

- ضعوا الحديد في أصابعه الآن وقدموه إلينا .

فجيء بذلك المسكين أمام المحكمة وقد أعياه الألم وما لبث أن سقط مغشياً عليه . فقال الرئيس :

- أوقفوه .

فأجاب أحد الحراس :

- إنه لا يقوى على الوقوف .

فقال رئيس المحكمة :

إذن فضعوه في التابوت فإنه يقف فيه .

فوضعوه في صندوق مربع فيه مسامير من الداخل ، فاضطر المعذب أن يقف رغم ما به من إعياء وضعف . ثم رفعوا الكمامة التي كانت على فمه ليتمكن من الإجابة على الأسئلة . وعندها تنفس المسكين الصعداء طويلاً ، فأمر الرئيس بأن يسقوه

قليلاً من الخمر ، فلما شرب قليلاً منها تفتحت عيناه وحدث عنده بعض الانتعاش ، وفحصه الطبيب حتى علم أنه قادر على الوقوف والاستجواب ، فوجه إليه الرئيس الأسئلة وكان يجيب عليها كما ترى :

قال الرئيس :

- ما اسمك؟

- أنا مسلم مغربي .

- كلا ، بل اذكر اسمك المسيحي الجديد .

- صموئيل فرناندس .

- إن صموئيل هذا اسم يهودي .

- لقد كان المسيح يهودياً أيضاً .

- قل صدقاً : كم عمرك؟

- ثلاث وثلاثون سنة مثل عمر المسيح !

- إذن أنت مستعد للتضحية؟

- بإذن الله .

- أتقبل ذلك وأنت راض؟

- نعم .

- إذن قل من هو إلهك؟

- هو إلهكم نفسه .

- وما اسمه؟

- الله في سماء ملكوته .

ـ بل قل معي: يسوع المسيح.
فأجاب الرجل وهو يرتعد:
ـ يسوع المسيح.
ـ يظهر عليك أنك تأثرت من ذكر هذا الاسم، أليس كذلك؟
ـ أجل.
ـ وما نوع ذلك التأثير؟
ـ تأثير داخلي.
ـ وماذا قال لك هذا الصوت الداخلي؟
ـ لا أدري، الآن لا أدري ماذا أقول.
ـ قل ما فكرت فيه بصوت مسموع.
ـ لا أقدر على الكلام لأني متألم جداً من الضرب على صدري والكلام لا يكون حسب الأمر بل حسب الاستطاعة.

* * *

ونظر الكاتب إلى الرئيس مستفهماً فقال الرئيس: أظن أن ضرب وجهه بالسوط يمكنه من الكلام.؟!

وسرعان ما جذبه أحد رجال التعذيب وجعل يجلده على وجهه بجلدة سميكة مبللة بالماء فاحمر جلد وجهه وكاد يخرج منه الدم وجعل يتلوى من الألم فقال له كاهن:

ـ تعال يا صموئيل تقدم واعترف أمامي بخطاياك وقل لي: بماذا تفكر الآن؟ قل الحق قبلما يحل بك القصاص. تقدم يا بني تكلم يا محمد لقد كان هذا اسمك قبل اعتناقك المسيحية

فلماذا سميت نفسك صموئيل ولم تختر اسم قديس مسيحي كبطرس أو بولص.؟!

ثم نظر إلى الكاتب وقال: اكتب.
ـ أين ولدت؟
ـ في طنجة.
ـ أإسباني أنت؟
ـ كنت إسبانياً.
ـ ولماذا تقول كنت؟
ـ أقول هذا لأني لا أظل إسبانياً إلى الأبد.
ـ وأبوك؟
ـ ليس لي أب فإنه قد مات.
ـ وأمك؟
ـ ماتت أيضاً.
ـ وأين ماتا؟
ـ في سجون ديوان التفتيش.
ـ أحرقا؟
ـ كلا بل تعذبا حتى تهرأت أجسادهما فماتا من شدة العذاب.
ـ وبماذا اتهما؟
ـ لقد كانا بريئين.
ـ هل لك إخوة؟

- أظن ذلك.

- كيف تظن! أين إخوتك وأين يقيمون؟

- بل قل أولاً أين ماتوا وأين قبورهم؟ (يظهر أنك تريد أن ينفذ صبرنا معك. فسنبدأ بتعذيبك.

- يسوءني هذا.

إذن أنت لا تريد أن تدلنا على البقية الباقية من إخوتك ولا عن مكان إقامتهم. إن الديوان المقدس لا يخفى عليه أن لك إخوة هم على قيد الحياة وهم يصلون في مساجد خفية. ألا تعلم أين هم؟

- لا أعلم.

- لما صدر الأمر بسجنهم هربوا، أفلا تعلم إلى أين؟

- كلا.

- تذكر جيداً علك تعلم.

- كيف يمكنني أن أتذكر وأنا مضطرب الفكر ضائع العقل؟!

- يجب أن تساعدنا على معرفة مقرهم حتى تخلص نفوسهم!!!

- على غرار ما تفعلون معي الآن؟!

- أنت تسكن مع امرأة، فمن تكون هذه؟

- زوجي.

- كيف يمكنك ادعاء هذا؟

- هي تريد أن يكون الأمر كذلك.

- علماً أنها مسيحية وأنت بهذا العمل تخالف آداب ديننا المسيحي وتنبذ العفاف، فيجب عليك أن تسلم زوجك للديوان المقدس.

- هل هذا هو العفاف والدين عندكم؟

- نحن لا نجادلك، بل نأمرك.

- إذا كنتم تأمروني فأولى بكم أن تقتلوني، وهذا أقصى ما يمكن أن تفعلوه، وعندئذٍ سوف تصلي زوجي من أجلي.

- ويلك يا شقي ألا تزال مصراً على إنكارك؟! أصلح هفواتك وخطأك يا هذا، وإلا فإنك سوف تدفع ثمناً لعنادك باهظاً. والآن فلنتم أعمالنا. قل لنا أين إخوتك، وأين زوجك؟

- هم في مكان أمين؟

- ألا تريد أن تعترف بأكثر من هذا؟

- إني أعترف إلى الله خالقي فحسب. أنتم تعذبونني والله يعلم أني بريء.

- سوف تساق إلى التعذيب الآن، فالأولى لك الإقرار.

- لا يعنيني العذاب فإن جسمي مخدر لا يشعر.

- إذا لم تجب على ما سألناك الآن فسوف تسقى الماء رغم أنفك، يدفع إليك من حلقك. حتى يقضي عليك.

- لقد احترقت رجلاي أولاً بناركم فلم أمت حتى الآن . !

فقال أحد القسس وهو يتصنع الرقة والعطف عليه بصوت متكلف :

- اعلم يا بني أننا لا نرمي من وراء تعذيبك إلا إلى الإقرار على بقية أهلك الذين تحبهم وبذا تنجي نفسك ونفوسهم ونصعد بكم إلى السماء . . . !!!

فأجاب الرجل :

- إذا صعدنا نحن إلى السماء فمن يهوي بكم أنتم إلى الجحيم وبئس القرار؟!

وعندئذٍ أشار أحد رؤساء المحكمة بيده إشارة سريعة إلى المعذبين المرتدين الثياب السود الواقفين أمام آلات التعذيب فهجموا عليه وأخذ البعض منهم يضع الحبال في يديه وصدره معاً ويلفها لفاً ، وآخرون ربطوا رجليه بحبل دقيق ثم وضعوه على مائدة خاصة وأعادوا ربطه ربطاً وثيقاً ، وتقدم أحد هؤلاء المعذبين وهو يحمل جرة ملأى بالماء وتقدم آخر وفي يده قمع فقال الكاهن الموكل بعظة الخاطئين (!) والصلاة لأجلهم :

- والآن يا صموئيل لماذا تضطرنا يا بني إلى تعذيبك وإحداث هذه الآلام لك ، ما دمت قادراً على الخلاص من هذا كله إذا ما قلت لنا أين إخوتك وأين زوجك؟

فأجاب الرجل :

- لا يمكنني أن أقول لكم شيئاً عنهم لأني قد وعدتهم وأقسمت لهم بأن لا أخونهم وأسلمهم لديوان التفتيش . . .

فقال الكاهن :

- ولكنا لا نعتقد أنهم يرضون لك هذا الحال وهذا العذاب الأليم . . . إن هذا السكوت لا يعد أمانة بل يعد جنوناً . . . قل قبل أن يبدأ الرجال بتعذيبك .

- إني أشكر لكم إذا ما قتلتموني مرة واحدة .

- دع عنك هذا العناد يا رجل واعلم جيداً أنك سوف تموت دون أن يعلموا بأنك مت فداء لهم . والمحكمة سوف تقبض عليهم إن عاجلاً وإن آجلاً فتكون قد مت أنت من غير ما فائدة . ومع هذا فإن زوجك هذه سوف تنساك لا محالة وتتزوج سواك ، وربما تكون قد خانتك الآن!!!

فصاح الرجل قائلاً :

- صه أيها الحقير ، واعلم جيداً أن عذابكم لجسدي لا يعنيني قدر تعذيبكم روحي بكلامكم هذا الذي تلفظه ألسنة سامة !

وبكى الرجل وبدأوا بتعذيبه وكان صراخه يملأ القاعة ولكن ليس من منقذ بيد أن القسس كانوا وقوفاً يصلون وبيدهم كتبهم يرتلون منها الأناشيد باسم السيد المسيح!!!

وبينما هم يعذبون الرجل على هذه الصورة سيقت سيدة أمام

المحكمة وكانت رابطة الجأش ذات شجاعة مدهشة، ونظر إليها رئيس المحكمة بنظرات حادة كلها الحقد والغضب والانتقام وسألها قائلاً:

- ما اسمك يا هذه؟

- سوزانا فرناندس.

وسمع زوجها المعذب ذلك فأن أنيناً طويلاً محزناً إذ عرف أنهم قبضوا على زوجه المسكينة وأنها وقعت بين براثن أولئك الوحوش العتاة. أما هي فلم تتمكن من معرفة من يعذب لما استولى على القاعة من ظلام ولكنها عندما سمعت الأنين التفتت لترى من يئن، وعندها أخذ رئيس المحكمة في استجوابها وعيناه تتقدان شرراً، وينبعث منهما الشر لالتفاتها، واستمر يسألها قائلاً:

- بنت من أنت؟

- لا أعلم.

- ألا تعلمين من هما أبواك؟

- كلا إنما رأيت ذات مرة رجلاً ماراً بحي «تريانا» فقالوا لي أن هذا أبي.

- أهذا كل شيء؟!

- نعم.

- وما اسم هذا الرجل؟

فأجابت إجابة ساذجة قائلة:

- قيل لي أن له اسمين: الأول الراهب والثاني الرجل المهيج!

- وأمك من تكون؟

- هي أمي.

- وأين هي؟

- ماتت.

- وأين ماتت؟ هل سقطت في الوادي الكبير؟

- كلا بل قتلت قتل العمد.

- وكيف كان هذا؟

- إنها ماتت جوعاً في سجون ديوان التفتيش.

- وأين كانت تسكن قبل أن تسجن؟

- مع رجل من بقايا العرب كان يمر ببابنا كل يوم وقد عزم أخيراً على أن يسكن معها إلى الأبد فسكن وسأنضم أنا أيضاً إليهما!!!

- وهل مات ذلك الرجل؟

- نعم قد مات في سجون ديوان التفتيش.

- أكان مسيحياً؟

- لا أدري. ومع هذا فلم تسألونني عن المسيحية كثيراً، وما هو دخل الديانة المسيحية في ديوان التفتيش؟!

وما كادت السيدة تتم كلامها حتى بدأ الزبانية بتعذيبها تعذيباً مخيفاً تقشعر من ذكره الأبدان.

* * *

مستر جراهام Graham

ـ ألا يكفي ذلك اليوم؟

ـ نعم يكفي أيها السيد جراهام. . . !

مستر فوكس Fox

لقد مضت هذه الأيام إلى غير رجعة فنحن الآن في عصر الأمم المتحدة والعالم كله ينعم بالأخاء والمساواة والحرية! .

ـ آسف أيها السيد فوكس!

فلا تزال المعركة ـ حتى يومنا هذا ـ قائمة، ولا تزال الحرب ضد الإسلام والمسلمين دائرة. !

المستر بول Paul

لكننا لا نرى أثراً لهذه المعركة، أو دليلاً يشير إلى هذه الحرب الدائرة.

ـ . . . وهذه هي قمة المأساة في حياتنا المعاصرة. . . فإنسان «اليوم» قلما ينظر إلى ما حوله، أو يرى النار التي تشتعل في حجرة نومه. . . إنه عصر «الفيديو» والمخدرات والجنس. . . ! وقد لعبت المؤسسات «الخفية» دورها في حجب الحقائق عنه. . . إنه إنسان لا يفيق نادراً من عمليات غسيل المخ. . . ويصبح ويمشي في ضباب كثيف من المخدر أو الخمر. فبالرغم من اختصار المسافات بفضل التكنولوجيا المتقدمة فلا تزال هناك أبعاد ومسافات تفصل بين هذا الإنسان وبين أخيه الإنسان في كل ناحية. . .

أبعاد في الفكر والثقافة. . .

وأبعاد في التقدم والحضارة. . .

أبعاد في التعليم والتربية. . .

أبعاد كثيرة لا تزال راسخة وعميقة، ولا تزال تؤثر على حركة الحياة فوق كرتنا الأرضية.

فإذا قلت: بأن الحرب ضد الإسلام لا تزال دائرة، وأن المعركة ضد المسلمين لا تزال قائمة. . . فلأن هذه هي الحقيقة. . . الحقيقة التي لم يرها المستر بول حتى بالعدسة المكبرة. . .

الآنسة روث Ruth:

ـ إن زميلاتي يطلبن تحديد موعد آخر إذا سمح وقتكم بإتمام هذا اللقاء. . . فإذا وافق طلبهن قبولاً فليكن ذلك بعد يوم الثلاثاء.

ـ مرحبا بك وبزميلاتك يا روث. . . ؟

أيتها الفطرة الإنسانية الباقية على نقائها منذ المهد. . . !

مرحبا بكم جميعاً صباح الأربعاء. . . ومرحبا بكم جميعاً في كل صباح ومساء. . . !!!!

الحِوار الثَالِث

- التغيير المفاجىء . . .
- خواطر في محطة الأندرجراوند Under Ground .
- أوروبا والإسلام . . . أو . . . قصة الحمل مع الذئب ! . . .
- قصة الحاج عبد الكريم جرمانوس . . .
- الخطة الجديدة للملك لويس التاسع . . . للقضاء على
- الإسلام .
- في جحور الأفاعي . . . أو . . . المبشرون والمستشرقون . . .
- دير شبيجل والحرب الدائرة في لبنان . . .
- مذبحة زنجبار . . . من كان وراءها؟ . . .
- القانون الدولي . . . لا يعترف بالمسلمين . . .
- الإعلام الغربي المنحاز . . .
- ميلتون أوبوتي . . . وقتل ثلاثمائة ألف أوغندي . . .
- السفاحون . . . تجار الجماجم ! . . .
- عصر الاستعمار الدموي . . .
- القتل الجماعي . . . باسم المسيح . . .
- الحرب النووية . . . ونهاية الحياة . . . والحضارة .
- خمسون ألف قنبلة ذرية . . . في الانتظار ! . . .
- السؤال الذي يشغل العالم .

- فولتير . . . والتحدي السافر للأساقفة ورجال الدين . . .
- ولهذا . . . يحاربون الإسلام . . .
- مؤتمر للشياطين برئاسة إبليس ! ! .

صباح الأربعاء .

لقد تثاءبت مدينة سيدني من سباتها بعد ليل قصير هادىء ، ودبت الحياة في شوارعها المعطرة بأزهار فصل الربيع الدافىء ! . . .

لقد تذكرت قبل خروجي من البيت أن موعد دفع إيجار الشقة التي أسكنها قد فات ، وأن التأخر في الدفع يعرض الساكن للتشرد والشتات ! . . .

واتجهت مسرعاً إلى محطة القطار المتجه إلى الشرق . . . إلى ضاحية ستراثفيلد Strathfield حيث يقيم وكيل صاحبة البيت ، وحيث تقع هذه الضاحية بعد محطتين من أشفيلد Ashfield . . . ومن «ستراثفيلد» اتصلت بالمسجد لتأكيد إجراء اللقاء في موعده المحدد بالضبط .

لقد أخبرني الحارس بأن الآنسة فيكي Viki أخطرته بتأجيل اللقاء إلى الساعة الثالثة بعد الظهر . فوجدتها فرصة لقضاء بعض المصالح المؤجلة بسبب ضيق الوقت . . .

* * *

في ستراثفيلد يمكنك اختيار القطار الذي تحبه . . . فهذه

الضاحية ملتقى عدة خطوط حديدية مختلفة. هناك قطار يتوقف في محطة واحدة قبل سيدني هي محطة ردفرن Redfren وهناك قطار يتوقف في محطتين أو ثلاث قبل وبعد أشفيلد Ashfield وهناك البطيء أو «القشاش» الذي يتوقف في كل محطة... وتقرأ فيه صحيفتك قبل أن يصل القطار إلى مدينة سيدني... عاصمة ولاية نيوثوث ولز.

لم يكن معي ما أقرأه... فقد فرغت من قراءة صحيفتي المفضلة Sydney Morning قبل الخروج من البيت، وكان من الضروري توفير الوقت لما هو أهم من الانتظار والصمت!...

لقد توجهت فوراً إلى «إدج كليف» Edge Cliff حيث كانت القنصلية المصرية العامة توجد هناك في شارع اسمه «أوشن ستريت» Ocean street أو شارع المحيط...

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهراً حين غادرت مبنى القنصلية إلى شارع «بت ستريت» Pitt street في وسط مدينة سيدني City centre .

لقد أحببت هذه المنطقة لكثرة المكتبات الموجودة في هذا الحي... ثم لقربها من البنك الذي كان يحول إليه راتبي كل شهر...! وبعد تناولي الغذاء في مطعم شهير هناك اسمه

ماكدونالد Makdonald تحولت إلى مقهى صغير لتناول الشاي والاسترخاء بعض الوقت.

ولكن... من أين يأتي الاسترخاء لإنسان شارد العقل... غارق إلى أذنيه في هموم العالم الإسلامي التي لا يبدو لها في القريب العاجل حل...! ثم... لماذا تقف أوروبا من الإسلام هذا الموقف العدائي السافر دون سبب واضح لهذه العداوة وهذه الحرب...؟ وكيف بقيت مفاهيم القرون الوسطى ـ حتى يومنا هذا ـ كامنة في عقول الساسة والزعماء في الغرب؟

لقد لعبت الكنيسة ـ في هذه المرحلة ـ دوراً كبيراً في تحريف الإسلام... وفي الافتئات عليه... وفي التخويف منه... وفي الدعوة إلى القضاء عليه.

لم تكن أوروبا عشر معشار ما هي عليه اليوم... كانت لندن وباريس وغيرهما ـ من مدن أوروبا ـ بركاً ومستنقعات يعشش فيها المرض والموت، وكان الناس يعيشون في بيوت لا ينفذ إليها الهواء أو الضوء... ولم تكن عقول الناس لتختلف عن واقع هذه الحياة في أي شيء...

لم يكن هناك تعليم... ولا علم... ولم يكن للعقل من عمل سوى التسليم بما يقرره الكاهن أو القس... وكانت القذارة مظهراً من مظاهر التقى والورع، وقد نصب أحد الرهبان

قديماً لأنه عاش سبعين سنة لم يستحم فيها إلا مرة واحدة في العمر. . . !

وقد بقيت أوروبا ـ في هذه الغشاوة والجهل ـ قروناً طويلة، ومما زاد الطين بلة ما اقترفته محاكم التفتيش من جرائم ومآسي لم تسمع بها البشرية في أحلك عصورها ظلاماً. . . وظلماً. . . وهمجية. . .

وجاء عصر النهضة. . . وكان عصراً تحرر فيه الضمير والعقل من قيود الكنيسة وسيطرتها الباغية الطاغية. . . وكان بزوغ فجر هذا العصر إيذاناً بغروب شمس الكنيسة وانهيار مكانتها لدى الخاصة والعامة.

كانت حركة «مارتن لوثر» ووثيقته الشهيرة التي علقها على أبواب كنيسة «وتنبرج» ١٥١٧ ميلادية أول معول يسقط فوق رأس هذه المؤسسة الدموية الرهيبة. . . وقد ظهر في هذا العصر كتاب وفلاسفة ومفكرون من أمثال «جوان ستيوارت» و «مونتسكيو» و «جان جاك روسو» و «فولتير» و «أدم سميث». . .

لقد ألف «ستيوارت» في هذه المرحلة كتابه عن «الحرية». . .

وكتب «آدم سميث» كتابه الخالد عن «ثروة الأمم».

ونشر «مونتسكيو» كتابه «روح القوانين» التي تحكم سير

الجماعات والأمم وكتب «روسو» كتابه «العقد الاجتماعي» الذي يحدد علاقة المحكوم بالحاكم. . .

* * *

ثم تتابعت الكتابات والدراسات التي انهالت على رأس الكنيسة وأدانت عهودها الهمجية الظالمة.

فقد كتب «رينان» عن المسيح كتاباً يثبت فيه أن المسيح لم يكن إلّهاً. . . ولا ابن إلّه. . . إنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامي وبالروح الكريمة. . .

وإذا لم يكن المسيح إلّهاً. . . ولا ابن إلّه. . . فقد انهارت المسيحية من أساسها. . .

● وكتب آخرون يقولون:

لقد أعيانا البحث عن معرفة المسيح. وليس أمامنا إلا أن نقول «أن المسيح كان أسطورة». !

● ويعلل الأستاذ «بابيه» أستاذ علم الاجتماع بجامعة السوربون. السبب الرئيسي في اعتناق الامبراطور الروماني «قسطنطين» للمسيحية: أن الامبراطور لم يجد ديناً يحض على التعصب أكثر من المسيحية، وقد رأى فيها أو في هذا التعصب ما يساعد على حماية الامبراطورية من الانحلال والتفكك[1]. . .

* * *

(١) أوروبا والإسلام. دكتور عبد الحليم محمود ص ٢٤.

لقد هبت رياح الفكر . . . وأبحرت سفن العقل إلى مياه بعيدة عن الغرب . . . وقد ألقت بعض سفنه مراسيها على شواطىء الإسلام فتعرفت عليه بعيداً عن الكذب . . . والتعصب ، وكان من ضمن من تعرف على الإسلام قادة ومفكرون . . . من كل طائفة أو مذهب . . .

وقد انقسم هؤلاء إلى فريقين :

- فريق أعلن إسلامه في قوة وشجاعة . . .

- وفريق أحب الإسلام ودافع عنه في صراحة . . .

ومن طريف ما يذكر في هذه المناسبة أن المرحوم الحاج عبد الكريم جرمانوس - المستشرق المجري المعروف - يروي عن سبب إسلامه هذه القصة :

في إجازة صيف كان من حظي أن أسافر إلى البوسنة وهي أقرب بلد شرقي إلى بلادنا . وما كدت أنزل في أحد الفنادق حتى سارعت إلى الخروج لمشاهدة المسلمين في واقع حياتهم .

كان الوقت ليلاً ، فنزلت إلى الشوارع وكانت خافتة الإضاءة ، وسرعان ما وصلت إلى مقهى متواضع يجلس فيه رجلان من أهل البلاد على كرسيين قليلي الارتفاع ويتناولان «الكيف» يرتديان السراويل التقليدية الواسعة ، يمسك بها في الوسط حزام عريض مدجج بالخنجر ، فكان مظهرهما بما عليهما

من لباس غريب ، عليه مسحة من الغلظة والشراسة فدخلت المقهى «قهواخان» بقلب مرتجف وجلست منزوياً في ركن ناءٍ عنهما في هلع ووجل .

نظر الرجلان نظرة عجيبة مستطلعة ، وعندئذٍ قفزت إلى مخيلتي جميع قصص سفك الدماء التي قرأتها عن تعصب المسلمين في الكتب المتحيزة غير المنصفة ، كانا يتهامسان فيما بينهما وكان موضوع همسهم ولا شك هو حضوري غير المتوقع ، وفي أوهام الأطفال أدركني الهلع ، إنهما ولا شك سيوجهان طعنات خنجرهما إلى صدر هذا الكافر الوافد عليهما وتمنيت لو أنني استطعت الخروج والخلاص من هذا المأزق الرهيب غير أن قواي خانتني فلم أستطع الحراك . . . !

وبعد ثوان قليلة أحضر لي الخادم كأساً من القهوة يفوح أريجها وأشار إلى الرجلين الرهيبين ، فدنوت إليهما بوجه خائف ، فألقيا علي السلام في رفق مع ابتسامة مودة رقيقة وفي تردد اصطنعت على شفتي المرتجفتين ابتسامة باردة ، فقام هذان العدوان ، كما كنت أتخيلهما وحضرا إلى منضدتي ، وساورني شعور عجيب . . . ترى هل يريدان طردي وإخراجي؟ ولكنهما ألقيا علي السلام للمرة الثانية وجلسا إلى جواري ، قدم لي أحدهما لفافة تبغ وفي ضوئها الخافت الراقص لمحت أن وراء هذا المظهر الخارجي الرهيب أرواحاً طيبة كريمة ، فجمعت أطراف شجاعتي وخاطبتهما في لغة تركية

ركيكة، ومع ذلك فقد كان حديثي مثل العصا السحرية، فإذا بي أرى في محياهما عواطف الصداقة والمودة، وإذا بي أتلقى منهما دعوة لي إلى منزليهما بدل ما توقعته منهما من عداء، وإذا بهما يفيضان علي مشاعر العطف، فيما كنت أحسبهما سينهالان علي بأسنان الخناجر. !

وكان هذا أول لقاء لي مع الإسلام... والمسلمين[1].

ولسنا بحاجة إلى الحديث عن «تولستوي» أديب وكاتب روسيا الأعظم، لقد كان من هؤلاء الذين سمت نفوسهم إلى درجة لا نكاد نجد لها مثيلاً في التاريخ إلا نادراً، كانت سعادة الإنسانية همه الملازم في كل آونة، كان باستمرار يفكر في تخفيف ويلات الإنسانية في معالجة مرضاهم... في تسلية بائسهم، في إطعام جائعهم، في التخفيف عن منكوبهم، وككل العباقرة صادف في حياته العقبات والآلام، وبغض الحاقدين، وكراهية الذين لا يحبون الحق.

ومن مآثره الكريمة: أنه حينما رأى الحملة الظالمة على الإسلام وعلى رسول الإسلام كتب رأيه في هذا الدين الذي أعجب به وتحدث عن رسوله الذي نال إكباره، وكان جزاؤه على ذلك، أي على كلمة الحق التي يدين بها: أن حرمه البابا من رحمة الله»

---
(١) لماذا أسلمنا ص ٥٨.

يقول «تولستوي»

«لا ريب أن هذا النبي: من كبار رجال المصلحين، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخراً، أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا.

ويكفيه فخراً: أنه فتح طريق الرقي والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال».

* * *

كان لهؤلاء الرواد من رجال الفكر، أبعد الأثر في تفتح العقول على الحقائق التي ظلت طويلاً في معزل عن البحث، وعن الدراسة والفهم، وكان من أثر هذا التحرر وإنعام النظر في تاريخ الشعوب والأمم... أن اقتفى أثرهم كثيرون من مختلفي الثقافات، ومن فلاسفة وعلماء... رينيه جينو... أتيين دينيه... ليوبولد فايس... وبرنارد شو والجنرال بودلي... وتوماس أرنولد...

وكان من أشهر الكتب التي ظهرت بأقلام هؤلاء المفكرين والكتاب.

الشرق والغرب: لرينيه جينو.

أشعة خاصة بنور الإسلام... لأتيين دينيه.

الإسلام على مفترق الطريق ـ والطريق إلى مكة . . . لليوبولد فايس .

الدعوة إلى الإسلام . . . لتوماس أرنولد . . .

محمد رسول الله . . . للجنرال بودلي .

كما كان لكتابات المستشرقين ـ بالرغم من مجافاة أكثرها لروح العدل والإنصاف ـ دور في تفتح العقول والأذهان على ديانات الشرق وفي مقدمتها الإسلام . . .

ولم تكد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٩ تنتهي حتى كان للإسلام في أوروبا وأميركا مؤمنون وأتباع من مختلف الطبقات ، وقامت المساجد ـ ولأول مرة ـ في عواصمها المختلفة . . . رغم ما قوبل به قيامها من رفض واحتجاجات ، واستمر الحال على هذا المنوال بين جزر ومد ، وقبول ورفض حتى قامت الحرب العالمية الثانية[1] ، والتي كانت زلزالاً غيّر مجرى الحياة ، وأشكالها في كل ناحية .

كانت الحرب العالمية الثانية إعلاناً بإفلاس الحضارة الغربية بشقيها في موسكو ونيويورك . . .

وقد فشلت كل العقاقير والأدوية في إنقاذ هذه الحضارة وقيمها المهترئة . . . فشلت وعجزت . . . والخراب يزحف بقوافله السود على الحياة العامة والخاصة . لم يعد هناك

(١) ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ .

أمل . . . في الغرب كل شيء ينهار . . . الفضائح تزكم الأنوف برائحتها الكريهة . . . فضائح من كل نوع . . . فضائح من كل حجم ، فضائح أخلاقية وسياسية واقتصادية وعسكرية ، لا يمر يوم أو ساعة دون أن تسمع بفضيحة جديدة تهز أركان المجتمع من أساسه وتلطخ بالسواد وجهه وقيمه .

وفي الشرق . . . الشرق الشيوعي . . . لقد أصبح هو ونظرياته خرافة . . . وهما من الأوهام التي نسج عليها العنكبوت خيوطه . . . الفردوس المفقود أو المنشود ـ صار جحيماً . . . كل شيء فيه أحمر بلون الدم والغدر ـ والجريمة والجوع والفقر ـ والتخلف والحرمان والضياع والفظاظة والقسوة والخوف والرعب والموت .

أين هي سعادة البروليتاريا؟ أين الرخاء الذي يشربه الحاخام ماركس . . . والحبر لينين؟ ، وأين هي وحدة الطبقة العاملة؟ في الصين؟ إن قواتها لا تخاف إلا من هجوم مفاجىء من الرفيق على الجانب الآخر؟ في موسكو؟ إنها تستعد لمعركة كبرى مع الرفيقة بكين؟ وأقوى الفرق الروسية تحتشد على الحدود الروسية الصينية فقط؟ في المجر؟ لقد استحالت بودابست إلى مقبرة على أيدي الرفقاء ، وفاض نهر الدانوب بدموع اليتامى والدماء . . . في تشيكوسلوفاكيا؟ لقد ماتت البسمة . . . ومات الأمل في شوارع براج بالقذائف والصواعق الموجهة من الميدان الأحمر .

كل شيء ينهار . . . يتآكل . . . ويسقط ويتحطم .

وقد صور الكاتب الإنجليزي «جورج أورويل» واقع هذه الحياة والحضارة في روايته التي أطلق عليها اسم «عام ١٩٨٤» والتي صادفت رواجاً عالمياً بسبب ما جاء فيها من حقائق مرعبة عن الواقع الأوروبي في هذه المرحلة . . .

لقد مر أورويل في حياته بتجربتين تنقل فيهما من الرأسمالية إلى الشيوعية . . . ولكنه اكتشف في تجربته الثانية أن الشيوعية ألعن كثيراً من الرأسمالية ، لأنه إذا كانت الرأسمالية لا تخفي مساوئها فإن الشيوعية ترتكب أفظع الجرائم ضد الإنسان وحريته ولكن في الوقت الذي ترفع فيه لافتات بالعدالة والديموقراطية والمساواة .

ولقد عكس أورويل أفكاره في النطاقين الرأسمالي والشيوعي في رواية أطلق عليها اسم «مزرعة الحيوانات» وهي مزرعة يمثل فيها «مستر جونز» الرأسمالية المستغلة فالخنازير في المزرعة ومعها باقي الماشية والطيور هي التي تعمل وتحرث الأرض وتنتج اللبن والبيض وفي النهاية يقوم مستر جونز بذبحها وأكلها . . . ويقرر أحد الخنازير أن يقضي على هذا الظلم الذي يتعرض له هو وإخوته الحيوانات وإدارة المزرعة جماعياً ونشر العدل والمساواة . . . وبالفعل تنجح الحيوانات في القيام بثورة تستولي فيها على المزرعة وطرد الرأسمالي المستغل . . . ولكن الخنزير الذي قاد الانقلاب بدلاً من أن ينشر العدل

والمساواة بين جميع الحيوانات يحتكر هو وزملاؤه الخنازير السلطة أولاً ، ثم الامتيازات ثانياً . . . ثم يصبح الخنزير القائد هو المفكر والوصي على فكر جميع الحيوانات . . . ؟ !

وهكذا أصبحت الخنازير في النهاية هي «مستر جونز» ولكن بصورة أسوأ لأنها تمارس استغلالها وهي تتحدث عن الحرية والديموقراطية وسيادة القانون بينما هي فوق المساءلة وأبعد الجميع عن تنفيذ القانون والديموقراطية . . .

* * *

ومن شقوة الإنسان في هذا العصر كما يقول الدكتور «ألكسي كاريل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» : أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود في الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة ، ولكنهم في الوقت نفسه يهملون البحث في الوصول إلى علاج لهذه العلل ، وقد دمر هذا التناقض الإنسانية تدميراً . . . فالأجسام تحت الملابس البراقة أحوج ما تكون إلى الهدوء والسكينة ، والأبنية الفخمة تسكنها قلوب محطمة ، والمدن المتلألئة ببريق الحضارة مصابة بالدسائس والكراهية .

ولكن كيف حدث ذلك؟

يجيب «ول ديورانت» الكاتب الأمريكي المتفلسف على هذا السؤال قائلاً :

«. . . لأن ثقافتنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطرة. . . لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الروح، وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني، وانتزع منا العلم الأسس السامية لأخلاقياتنا. . . إننا نطوف بسرعة مذهلة حول الأرض، ولكننا لا نعرف أين نذهب، إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة. ولن ننجو منها بغير الحكمة».

* * *

وفجأة سمعت رجلاً يطالبني بالتأهب للذهاب إلى المسجد!! والتفت للتعرف على صاحب هذا الصوت الذي يذكرني بالموعد. . . !!

إنه المستر جراهام Graham والسيدة كارولين Carolyne .

لقد شكرتهما على هذه المبادرة الطيبة ثم اتجهنا جميعاً إلى مدخل المحطة. وركبنا القطار لنصل إلى المسجد قبيل الساعة الثالثة. . . لم يكن ممكناً استئناف الحوار قبل صلاة العصر. . . فأتيحت لنا فرصة للتعرف على بعض الأسماء الجديدة التي حضرت خصيصاً لمتابعة المعركة قبل أن تسكت المدافع ويتوقف القصف. . . !!

وهنا وقف شاب ليقدم نفسه:

● اسمي ألفريد Alfred .

ووقف شاب آخر اسمه رالف Ralph .

وجاء شاب ثالث يقول إن اسمه فرانك Frank .

ووقفت آنسة قدمت نفسها باسم دوريس Doris .

وقامت آنسة أخرى اسمها جودي Judy .

لقد جاء «المدد» لمؤازرة الكتيبة المحاصرة في خندق الحق. . . !! ورأيت الآنسة فيكي Viki تتحرك كالقائد الذي يخطط لبدء الهجوم وإعلان الحرب!!!

● وجاء السؤال الأول من السيدة نانسي هارولد Nancy Harold .

● إنني كما تعرف امرأة. . . والنساء ـ عادةً ـ أكثر حدة وعاطفة. . . إن ما سمعناه في جلستي الحوار السابقتين لا يمكن تفسيره بأية لغة!!

وبصدق وصراحة. . . فإن ما سمعناه عن الإسلام هنا نسمعه لأول مرة، ولا نشك فيما قلته. . . حتى في كلمة! إننا مدينون لك بالكثير من المعرفة. . . لقد رفعت عن عيوننا غشاوة كثيفة. . . وإنها لمأساة وكارثة أن تشوه صورة الإسلام على هذا النحو الذي نراه ونسمعه في حياتنا العامة. . .

ولكن. . . ألا ترى أن هذه المرحلة قد مضت. . . وأن تلك أمة قد خلت. ومن الخير أن تتطلع البشرية إلى علاقات أفضل مما كانت عليه فيما سبق. . . !!

* * *

شكراً للسيدة نانسي . . .

إن ما تقولينه لا يزال أملاً يحلم به أصحاب القلوب الطيبة . . . فليس هناك أجمل من السلام والمحبة، والصفح والمغفرة . . .

إنني - مثلاً - قد علمت بزواجك من رجل كان طياراً في سلاح الطيران الملكي .R. A. F وأن هذا الزوج كان ممن قصفوا مدناً مصرية إبان العدوان الثلاثي!!! إنني لا أحمل لزوجك هذا أدنى درجة من الضغينة!! . . . ولماذا أكرهه . . . وقد كان ضحية لسياسة رجل فقد عقله . . . ليس من المعقول أن أحمل زوجك جريمة المستر «إيدن»!! إن الضابط والجنود هم ضحايا من نوع آخر . . . !

وكم أتمنى أن تكون النوايا الطيبة هي الأصل في التعامل بين الأفراد وبين الدول ولكن الواقع أيتها السيدة . . . شيء يختلف تماماً عما نفكر فيه ونحلم . . .

لقد انتهت الحروب الصليبية . . . نعم . . . ! ولكنها انتقلت إلى مرحلة أخرى طبقاً لتطورات الأحداث في هذا العالم . . .

لقد بدأ الزحف على العالم الإسلامي . . . بدأ هذا الزحف منذ اليوم الأول لآخر هزيمة لحقت بالحملة الصليبية، وكان من أهم ما اعتمد عليه في هذا الزحف مؤامرات «التنصير» ضد العالم الإسلامي.

هل تريدين دليلاً أيتها السيدة نانسي . . . ؟

لندع التاريخ يتكلم . . . والتاريخ كما تعلمين أفضل معلم . . . !!

يقول المؤرخ جرانفيل الذي رافق الملك لويس التاسع . . . «إن خلوته في معتقله بالمنصورة أتاحت له فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين، وقد انتهى به التفكير إلى تلك الآراء والمآخذ التي أفضى بها لأعوانه المخلصين أثناء رحلته إلى عكا مقلعاً إليها من دمياط[١]».

وانتهى تفكير الملك لويس التاسع إلى أن النعرة الدينية في الغرب لم تعد كافية لإثارة الحروب ضد الإسلام والتغلب على المسلمين. فالحروب الصليبية أنهكت قوى الغرب البشرية والمالية، وأن قوى الصليبيين في الشرق أخذت في الانهيار ومات في قلب الصليبي ذلك الحافز الروحي الذي يحفزه على خوض الحروب الصليبية مات ذلك الحافز وتبدل بحوافز مادية لا تتصل بالروح، وإنما تتصل بالغنائم والأسلاب التي أصبح الأمل فيها هو الباعث الوحيد في اشتراك الصليبي في تلك الحملات.

ويوحي من هذا الغرض الزاخر بالعبر والأحداث والتجارب

(١) من الحروب الصليبية إلى حرب السويس «محمد علي الغتيت».

التي كانت تطوف برأس الملك في سجنه بالمنصورة، رأى أن القضاء على الإسلام أو على الأقل - وقف توسعه عند حد - هو هدف حيوي بالنسبة لفرنسا وأوروبا وتساءل: هل في وسع المسيحية أن تواصل وحدها الاضطلاع بمحاربة الإسلام؟

وفي ضوء تجاربه كان جوابه هو أنه لم يعد في وسع الكنيسة أو فرنسا مواجهة الإسلام، وأن هذا العبء لا بد أن تقوم به أوروبا كلها لتضييق الخناق على الإسلام وتقضي عليه، ويتم لها التخلص من الحائل الذي يحول دون تملكها لآسيا وإفريقيا[1].

يقول المؤرخ رينيه جروسيه «إن الملك لويس التاسع كان بذلك في مقدمة كبار ساسة الغرب الذين وضعوا للغرب الخطوط الرئيسية لسياسة جديدة شملت مستقبل آسيا وإفريقيا بأسرهما.

وهكذا رسم لويس التاسع التخطيط المبدئي للسياسة التي رأى أنها تمكنه من مواجهة الإسلام والنيل من قوته... وكان من بينها:

● تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سليمة تستهدف الغرض نفسه، لا فرق بين الحملتين إلا من حيث نوع السلاح الذي يستخدم في المعركة وتجنيد المبشرين

(١) نفس المصدر. وانظر كتابنا «أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية».

الغربيين في هذه المعركة السلمية، لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنوياً، واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنوداً للغرب.

● العمل على استخدام من يمكن إغراؤهم من مسيحيي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب. (الكنائس الوطنية).

● العمل على إنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق الإسلامي يتخذها الغرب نقطة ارتكاز ومركزاً لقواته الحربية ولدعوته السياسية والدينية، ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه كلما أتيحت الفرصة لمهاجمته. وقد عين لويس التاسع لإنشاء هذه القاعدة، الأراضي الممتدة على ساحل البحر المتوسط من غزة حتى الإسكندرية وتشمل فلسطين والأردن والبلاد المقدسة ثم لبنان بأسرها وجزءًا من سوريا.

يقول مفكر إسلامي اسمه مالك بن نبي [1]:

«... إن أوروبا التي جعلت نفسها المشرف الوحيد على الجنس البشري لم تعترف منذ كانت مدنيتها لا تزال في المهد، ترضع اللبن العربي بأية مدنية إسلامية».

وكما يقول: جوستاف لوبون معللاً السبب الذي يدفع علماء

(١) من كبار المفكرين المسلمين في الجزائر وقد تثقف ثقافة فرنسية، وتوفي عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م بعد أن اختير عضواً في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ومن أهم كتبه «الظاهرة القرآنية».

أوروبا إلى إنكار هذا الجميل ـ برغم أنهم يجب أن يبتعدوا عن التعصب ـ يقول:

الواقع أن استقلال الرأي ظاهري أكثر منه حقيقي، وذلك لأننا لسنا أحراراً قط في تفكيرنا حول بعض المعلومات. فقد استمر التعصب الذي ورثناه ضد الإسلام وزعمائه خلال قرون عديدة حتى أصبح جزءًا من تركيبنا العضوي[1].

* * *

ونحن لا نستطيع أن نفصل بين الاستشراق والتبشير، مهمة الاستشراق تسميم وإفساد عقول المثقفين بإبعادهم عن الإسلام، ومهمة المبشرين تسميم وإفساد عقول العامة بكافة وسائل الجذب والإغراء، وكلاهما يمشي في ركاب الاستعمار، يمهد لاستيراده ويمكن لبقائه، وقد نشأ أساتذة الاستشراق والتبشير في محاضن أقسام الدراسات الشرقية في الجامعات الغربية والأمريكية.

فقد أنشىء أول كرسي للغة العربية في جامعة «كيمبردج» في أوائل القرن السابع عشر وذكر في المراجع الأكاديمية المؤولة في الجامعة في تبرير إقامة ذلك «الكرسي»: «إن من جملة أهدافه تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين الذين يعيشون في الظلمات».

(١) مستقبل الإسلام مالك بن نبي ص ٢٩ ط بيروت.

وكانت أولى محاولات أول من جلس على ذلك الكرسي إعداد مشروع لتفنيد القرآن كما ذكر «Arbary»[1] في دراسته: «القسم العربي في كيمبردج» وتم إنشاء معهد الدراسات الشرقية في «أكسفورد» ثم في «هارفارد وبرنستون» وغيرها بأسلوب مماثل ولغاية مشابهة.

فمنذ البداية كان هناك تماثل في القصد وتمازج بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الإنجيلي، في إفساد الدراسات الشرقية الإسلامية، وكان يتولى التدريس في تلك المعاهد باحثون ينتظمون في سلك الكهنوت: The holy order وخَلَفَهم من بعدهم دهاقنة اليهود.

وحينما أسست الجامعة الأميركية في بيروت كانت تسمى: الكلية السورية الإنجيلية، وأعلن مجلس أمنائها: إن من أولى غايات الكلية أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة، وأن تكون مركزاً للنور المسيحي والتأثير المسيحي.

ولذا نجد أن معظم الإيديولوجيات الوافدة التي تناهض الإسلام وتدعو إلى العلمانية والإلحاد تحت ستار الليبرالية وحرية الفكر قد نشأت في ردهات تلك الجامعات وأخواتها... وجاءنا البلاء المنكر حينما تولى خريجو تلك

(١) سمعت أثناء زيارتي إلى لندن ١٩٨٥ أن هذا المستشرق قد أسلم قبل موته، وقد قابلته في كيمبردج عام ١٩٦٨.

الجامعات المراكز القيادية في العالم العربي بعد أن سلخ معظمهم ـ إلا من عصم ربك ـ سلخاً كاملاً عن تراثه وحضارته ودينه .

إن نشر الدين المسيحي لدى معظم الهيئات التبشيرية التي غزت وتغزو بلادنا هو أمر ثانوي ، وغطاء ـ فقط ـ لعملهم الإجرامي .

وللتدليل على ذلك نضرب مثلاً واحداً هو ما ذكره الدكتور حسين مؤنس في مقال له بمجلة المصور المصرية الصادر بتاريخ ٣٠/ ٥/ ١٩٧٣ قال : «في يوم من أيام الحركة الوطنية في مصر سنة ١٩١٩ ، واشتراك المسلمين والأقباط في جبهة وطنية متماسكة كشأنهم في تاريخ مصر على الدوام ، تسلل المبشر الأمريكي «زويمر» إلى الأزهر في زي طلبة العلم واندس في حلقات الدروس .

«وكان زويمر هذا صعلوكاً ينسب نفسه إلى الدين والعلم ، وهو في الحقيقة جاسوس خبيث تنفق عليه جماعة دينية في ولاية «كونيكتكات» ، وكان يحتمي بالسفارة الأمريكية ويكتب مقالات في مجلة تدعى «العالم الإسلامي» ما زالت تصدر إلى الآن في مدينة «هارنفورد» بالولاية المذكورة ، يطعن في الإسلام دون حياء أو خجل» .

«اندس زويمر بين الطلاب ، ثم دخل في حديث مع طالب ،

وتناول كتبه ينظر فيها ، ثم أعادها إليه بعد أن دس بينها وسائل من تأليفه في الطعن على الإسلام طبعها في مطبعة إحدى الجمعيات القبطية ، وكان غرضه من ذلك أن تقوم الفتنة بين الأقباط والمسلمين . ولكن هذه الدسيسة الخبيثة لم يلبث أمرها أن انكشف ، ونشرت الصحف مقالات لنفر من علماء الأزهر يستنكرون فيها عمل هذا المبشر الخسيس ، ونشرت «البلاغ» مقالاً عنيفاً لكاتب قبطي هو «كليم أبو سيف» بعنوان «المبشرون» قال في بعض فقراته :

«عجيب أمر هؤلاء المبشرين ، فهم ، رغم أنني أستطيع أن أقسم بأنهم لا دين لهم ، ما يزالون يرتكبون باسم الدين كل المنكرات والمحرمات التي نهاهم عنها الدين ، وهم ما يزالون يتمادون في صفقاتهم وتحديهم لشعور المصريين بتلك الأعمال تمادياً ، وما أظن أناساً رزقوا شيئاً من الحياء أو الأدب يستطيعون إتيانه وتحمل مسؤوليته» .

«أنتم أيها المبشرون لا أكثر من جواسيس للاستعمار أتيتم إلى هذه البلاد لا لنشر فضيلة دين معين ، بل لاتباع سياسة شريرة موحى بها من جهات معينة ، ومن نتائج هذه السياسة وقوع الخلاف بين المصريين أبناء الأسرة الواحدة» .

«إذن أنتم لستم مبشرين تستحثون الناس على التحلي بالفضيلة ، وإنما أنتم مجرمون ، تتخذون الدين ذريعة لارتكاب المنكرات وأنتم تعلمون» .

إنهم مجرمون حقاً، ولو كانوا شرفاء لبشروا بالفضائل الأخلاقية في مجتمعاتهم الغربية التي لا تؤمن بدين[1]!!...

السيد فوكس Fox:

- إنك تجعل تاريخنا سجلاً من السواد والجرائم!!

* * *

- نعم... ولكن ليس في كل شيء أيها السيد فوكس!! فالسواد والشر، أو البياض والخير... صفات لحقائق مجردة... والحقائق المجردة يحكم عليها من خلال الواقع والمشاهدة...

ولنضرب لذلك مثلاً بالحرب الدائرة في لبنان... إن وسائل الإعلام الغربية تعالج مأساة هذه الحرب من زاوية خاصة. بعيداً عن الحقائق التاريخية التي هي الفيصل والمرجع في هذه القضية.

وقد خرجت مجلة «دير شبيجل» الألمانية عن هذا الخط في محاولة لتسليط الضوء على جذور هذه المشكلة، والتي تتصل اتصالاً مباشراً بموضوع هذا «الحوار» في مرحلته الحاسمة.

يقول محرر مجلة «درشبيجل[2]»:

(1) الله... أو... الدمار - تأليف الأستاذ سعد جمعة رئيس وزراء الأردن السابق.

(2) سنة ١٩٧٩.

لو استطلعنا الواقع اللبناني واقتربنا من دور المسيحيين اللبنانيين ودوافعهم في الحرب الأهلية التي تدور رحاها الآن على أرض لبنان، وعدنا إلى الوراء قليلاً لوجدناهم حاربوا إلى جانب الجنود الصليبيين ضد جيرانهم المسلمين.

ولكن أثناء الاستعمار الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى، تصاعد نجمهم حتى صاروا من الطبقة الحاكمة في البلاد، والآن يريدون أن يدافعوا عن سلطانهم بكل الوسائل الممكنة... إن أطفالهم يرددون وهم يشيرون إلى مئذنة مسجد قرية «لاسا»: (أنهم هناك لديهم مدافع، ولكننا لن نرحمهم إذا فكروا في إطلاق النار علينا... فالسلطة والقوة هنا...)... وهنا... تعني عندهم قرية قرطبا التي تقع على ارتفاع ١٢٠٠ م فوق جبال لبنان، وتبعد عن بيروت حوالي ساعتين بالسيارة، وعدد سكانها في الأوقات العادية حوالي ألف نسمة... ويزيد عددهم إلى أكثر من ألفين في العطلات الصيفية حيث يهاجر بعضهم إلى المدن الدافئة شتاءاً ويعودون إليها صيفاً مع أطفالهم ولكن الآن من خلال ظروف هذه الحرب الأهلية الطاحنة وصل عدد سكانها إلى ما بين أربعة آلاف أو خمسة آلاف نسمة، لأن عدداً كثيراً منهم قد هاجر من بيروت وطرابلس ولجأ إلى القرية. فجميع سكان قرطبا حيث ترتفع تسع كنائس للمارونيين أكبر الفئات المسيحية اللبنانية نفوذاً... وهؤلاء اللاجئون ليسوا من الفقراء. إذ أنهم منذ أن

أقفرت شوارع الحمراء من روادها اكتظت شوارع قرطبا بسياراتهم الفخمة يجوبون الشوارع سيارة تلو الأخرى وبجوارهم الفتيات الجميلات المتحليات بأغلى الجواهر والرافلات بأحدث الموديلات.

والشباب قليل في هذه القرية... فمعظمهم الآن يحارب مع الميليشيا المسيحية في بيروت، والبعض الآخر يتلقى التدريبات في الجبال استعداداً للانضمام لصفوف ميليشيا الكتائب، ذلك الحزب الذي تأسس سنة ١٩٣٦ على النمط الإسباني.

ومما يلفت النظر... منظر فتاتين بملابسهما الخضراء الداكنة «اللون المميز للكتائب» تجوبان شوارع القرية في سيارتي (جيب) جديدتين لا تحملان أرقاماً وتتنقلان من بيت إلى بيت تجمعان التبرعات لمحاربي الكتائب.

والجميع يعطي بسخاء... فواكه... بيضاً... بصلاً... لحوماً... وأيضاً الكثير من النقود. وعلى الرغم من كل ذلك تصرخ الفتاتان فيهم: إنكم بخلاء...

ومن عادات سكان الجبال عندما يبلغ أطفالهم تلك السن التي تخول لهم تناول العشاء (سن العاشرة) تهدى إليهم المدافع الرشاشة بدلاً من لعب الأطفال ـ والزهور... وهؤلاء الأطفال بدورهم يطالبون بإلحاح بالاشتراك في الحرب الأهلية

ولكن بيير الجميل[1] يعدهم قائلاً: «انتظروا فسوف نستدعيكم عندما نحتاج إليكم».

وهذا قد يحدث قريباً لأن تلك الحرب الأهلية التي اندلعت نيرانها يتضاعف ضحاياها بسرعة مذهلة، ففي خلال ستة شهور سقط حوالي ستة آلاف قتيل وثمانية عشر ألف جريح... ولو دققنا النظر في هذا العدد الهائل من القتلى والجرحى بالنسبة لعدد سكان لبنان البالغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة لكانت نسبة عدد القتلى والجرحى في هذه الشهور الستة تفوق أضعاف ما فقدته أمريكا بالنسبة لعدد سكانها طوال سنوات الحرب في فيتنام... إن حياة الكلب في لبنان أكثر قيمة من حياة الإنسان لأن الكلب يستطيع أن يجوب شوارع بيروت دون أن يصاب بالرصاص. أما الإنسان فلا يستطيع ذلك[2]...!

وفي غمرة الحرب الطاحنة يحطم اللبنانيون مقومات حياتهم... المحلات التجارية... الأسواق... البنوك... المصانع... الفنادق... وسائل النقل، وقد بلغت الخسائر حتى الآن ستة مليارات ليرة. إن هذا الشعب ينتحر!!... وكل ما تستطيع الحكومة عمله هو حصر الجثث والضحايا... ومعظم الضحايا من المسلمين!!... الطبقة

(١) مؤسس حزب الكتائب ـ وقد توفي أخيراً.
(٢) لقد تجاوز القتلى في لبنان المائة ألف.

المغلوبة على أمرها في لبنان إذ أن الميليشيا المسيحية أحسن تنظيماً وتدريباً وقوة، ولكن المستقبل للمسلمين لأنهم مرتبطون بلا شك بالعالم العربي حولهم، وهذا ما يعلمه المسيحيون، ولذا فهم يتذكرون دائماً البيض في جنوب إفريقيا فبرغم أقليتهم، فهم الطبقة الحاكمة والمسيطرة في البلاد، وكما حدث في إفريقيا فيبدو أن التطور التاريخي سوف ينتصر في النهاية...

وقد اتهم المطران «غريغوار حداد» مطران بيروت الطائفة الكاثوليكية إخوانه في الدين المارونيين بأن لديهم عقدة القتل بالجملة... وعقدة القتل بالجملة هذه لها أسبابها... فقد جمع مسيحيو لبنان أنفسهم ما بين القرن الخامس والسابع الميلادي في المكان المعروف الآن بلبنان، وأثناء التوسع الإسلامي انسحبوا إلى جبال لبنان وحافظوا على شخصيتهم وأطلقوا على أنفسهم لقب المارونيين نسبة إلى القديس «مارون» «ولكن الجبل أصبح سجناً كبيراً لهم، وفي أثناء الحروب الصليبية انضموا إلى صفوف الجيوش الصليبية وحاربوا معهم ضد جيرانهم المسلمين وقدموا للغزاة شتى أنواع المعونة، ومكافأة على خدماتهم أعلن القديس «لودفيج» الفرنسي حمايته لهم ١٢٥٠ م وأعطاهم نفس حقوق أتباعه».

* * *

وقد تغير حال المسيحيين بعد الحرب العالمية الأولى عندما

هزم الفرنسيون الأتراك وحلوا محلهم في إدارة لبنان. إذ أنهم رأوا المسيحيين إخواناً لهم في الدين وعوناً لهم في الحرب ضد القومية العربية. وأصبح المسلمون هم الذين يتضورون جوعاً في شوارع طرابلس، وصارت تفرض ضرائب باهظة على المدن الإسلامية... في حين شيدت مدارس الإرساليات في «زغرتا» وأصبح معظم أفراد الجيش اللبناني من المسيحيين، وقد استغل المسيحيون هذه الظروف وصاروا يرسلون أولادهم إلى المدارس العليا في أوروبا والغرب وأصبح لهم اتصالات بالدول الصناعية الغربية المتقدمة وصار لهم متاجر ومحلات عديدة وسبقوا مواطنيهم المسلمين في التعليم وطريقة الإنتاج، وارتفع مستوى حياتهم كثيراً، والآن وبعد بضع عشرات من السنين صارت المعادلة السارية المفعول هي:

مسيحي + تعليم = رخاء...

مسلم + جهل = فقر...

لقد أظهر الميثاق الوطني سنة ١٩٤٣ والذي تم بين المجموعات المختلفة ما لتلك المجموعات من سلطان وقوة... فالمسيحيون الذين كانوا يتمتعون بأغلبية طفيفة في ذلك الوقت أسند إليهم رئيس الدولة وقائد الجيش وصار لهم ٥٤ مقعداً في البرلمان من أصل ٩٩ مقعداً وأصبح لبنان هو البلد العربي الوحيد الذي ليس الإسلام فيه دين الدولة الرسمي.

ولقد عبر الشاعر المسيحي «سعيد عقل» عن هذا بقوله: «إن

لبنان هو قلعة أوروبا في آسيا.. والواحة الغربية وسط الصحراء الشرقية والأفريقية»..

وبينما كانت أنظار مسيحيي لبنان موجهة ناحية الغرب، وكانوا يحلمون بحرب صليبية أخرى.

كانت أنظار المسلمين متجهة نحو الشرق وكان مثلهم الأعلى هم أبطال العرب المسلمين.

إن لبنان يجري تقسيمه اليوم إلى أقسام للمسلمين وأخرى للمسيحيين.. والبعض يحلم بنظام المقاطعات كما في سويسرا.. أما أعداء فكرة التقسيم فإنهم يهددون كل من يحاول تقسيم البلاد بالموت «الموت لكل من يريد تجزئة بلادنا».. ولقد أخذت الطبقة المسيطرة المسيحية مواقع دفاعية.. وفي نهاية سبتمبر عندما تشكلت لجنة مصالحة من جميع الأحزاب واجتمعت هذه اللجنة صمتت الأسلحة في بيروت وفي أحياء المسلمين ترك المسلحون أماكنهم خلف الحواجز وتدفق الناس من مساكنهم وفجأة أقيم السوق واكتظ بالناس.. أما في الأشرفية فلم يترك المسيحيون أماكنهم خلف التحصينات وأخذ ينظر الكتائبيون إلى كل حركة تحدث في قطاع المسلمين بنظرة من الشك والريبة متخيلين أنها فخ نصب لهم.. وعندما اتجهت لجنة المصالحة إلى أحد الأحياء انهمر الرصاص على أفرادها من كل صوب وسقط أحد أعضائها قتيلاً.. وفي إحدى القرى المارونية في الجبال سأل أحد

الفلاحين زواره من الأوروبيين «إذا أطبق المسلمون على رقابنا فهل ستمدون إلينا يد العون والمساعدة كما قدمناها لكم أيام الحروب الصليبية؟»!!

* * *

لقد كتب جوردن جاسكيل - في مجلة «ريدرزدايجست»: تحت عنوان «لبنان واحة الشرق الأوسط» - يقول: «يقول المثل: ألق حجراً على أي حشد لبناني وستكون واثقاً من أنك ستصيب أسقفاً واحداً على الأقل..!!

إن بيروت تزخر بالأساقفة، وبها اثنان من الكرادلة الكاثوليك، وهي المدينة الوحيدة التي تجمع مثل هذا العدد فيما عدا روما، وذلك فضلاً عن جيش ضخم من البطاركة والكهنة والأرشمندريت..

ولم كل هذه المحاولة..؟ من أجل تنصير لبنان وإنشاء وطن قومي مسيحي يكمل الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

فإذا لم ينجح هذا الأسلوب فليس هناك إلا الذبح والاستئصال للتغلب على المسلمين»[1]..!!!

لقد اتضح من وثيقة عثر عليها بأحد الأديرة منذ خمسين عاماً أن الذي يحدث للمسلمين اليوم جزء من خطة إجرامية تستهدف تصفية الإسلام والمسلمين في لبنان الشقيقة!!!

(١) انظر كفاح دين: ص ٤٣ - الطبعة الأولى للشيخ محمد الغزالي.

وتنفيذ هذه الخطة أولاً وبالدرجة الأولى على القوى الخارجية التي تساند القتلة والخونة في أرجاء العالم الإسلامي والعربي مستغلة ظروف القهر والتخلف التي فرضت على المسلمين نتيجة تخليهم عن مصدر القوة والعزة في دينهم. وهذه الوثيقة السوداء يتكرر صدورها وظهورها في أنحاء مختلفة من الوطن العربي بصيغ جديدة ـ وأسلوب أكثر وصوحاً ووقاحة..!!!

ومهما كانت هذه القوى التي يعتمد عليها الموتورون والخونة فإن مصيرها إلى زوال قريب جداً... وكما انتهى «المعلم يعقوب» الذي شكل من أبناء «جلدته» كتيبة لضرب الشعب المصري أثناء ثورته ضد الفرنسيين.. فلسوف تنتهي هذه القوى الشريرة نهاية «المعلم» الذي هلك على ظهر بارجة حربية فرنسية، ثم ألقي به إلى البحر في برميل خمر فارغ حتى لا ينجس أرض فرنسا بأدران الخيانة وميكروب العار والكراهية..

* * *

هل سمعتم بما وقع في نيجيريا في منتصف السيتينيات؟

لقد تم إبادة الزعامة الإسلامية في حركة انقضاض خاطفة قادها «السفاح» «إيرونس» ضد «أبو بكر تافاوا باليوا» و «أحمد وبللو».

أما لماذا؟ فإليكم هذه القصة:

لقد أعلن أحد المبشرين، بعد عودته من بريطانيا أنه سيعمل على تنصير شمال نيجيريا كله في مدى عشر سنوات على الأكثر.. وحين سمع الزعيم المسلم «أحمد وبللو» بهذا النبأ.. أمر بترحيل هذا «الأفعوان» إلى «لاجوس» العاصمة منعاً لإثارة القلاقل، وإثارة الفتنة بين القبائل.

إن هذا العمل الذي قام به «أحمد وبللو» يقوم به أي رجل يحرص على أمن بلده وسلامة وطنه.

ولكن.. لا.. فالأمن خاص لغير المسلمين فقط..! أما المسلمون فلا حرمة لأعراضهم ودمائهم قط..!

ومن ثم.. كان ولا بد من القتل.. وإراقة الدماء التي حرم الله إراقتها بغير حق..

وهل سمعتم بما حدث في «زنجبار»؟ لقد أبيد أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة في هذه الجزيرة؟ وبتخطيط وتدبير من الكنيسة، وبأسلحة عربية كانت مرسلة في الأصل إلى ثوار روديسيا وجنوب أفريقيا!!

ولكن المبشر «نيريري» الذي حكم شعب «تنجانيقا» المسلم قبل أن تدمج فيه زنجبار المسلمة حول هذه الأسلحة إلى المسلمين العزل في الجزيرة، واستقدم سفاحاً من أوغندا كان متهماً في جريمة سرقة دجاج!! واسمه «جون أوكللو» استقدم نيريري هذا السفاح لارتكاب جريمة أكبر من سرقة الدجاج

والبيض، وهي السطو على جزيرة زنجبار بتواطؤ سافر مع ما بقي من ضباط الأمن البريطانيين الذين مهدوا الطريق أمام اللصوص والقتلة، وإرشادهم إلى مخازن السلاح والذخيرة والقضاء على عشرين ألف مسلم ومسلمة. . . !!

وما يحدث في جنوب السودان؟ إنها صورة متكررة لأفاعيل التبشير التي لم تتوقف، والتي رسم خطتها الملك الفرنسي الأسير لويس التاسع. . ، والتي يؤازرها الفاتيكان والغرب بدءاً من البابا أوربانوس الثاني إلى البابا جون بول الحالي. . ومن ريتشارد قلب الأسد إلى ريجان ومرجريت تاتشر!!

* * *

وربما يقول أحدكم:

إن التبشير عمل إنساني محض، ونشاطه ينحصر في أعمال الإغاثة والتعليم والطب، أقول: ربما يقول أحدكم هذا القول. .

ولكن. متى كان للشعارات البراقة - في عصرنا الحاضر - أصل. . أو واقع يؤكد هذه الشعارات بالتطبيق والفعل. إن الأنظمة التي تصف نفسها بالديمقراطية الشعبية هي أبعد النظم عن الديمقراطية والشعب. . !!

ماذا فعلت الشيوعية بروسيا؟ وكم من الملايين أعدموا في عهد ستالين وبيريا؟ وما حدث في براج أو «وارسو»؟ ومذبحة

بودابست. ؟ هل نسينا ما حدث في المجر وما حدث في «ديمقراطيات شعبية» أخرى تحولت - باسم هذه الشعارات - إلى زنازن وسجون يذبح فيها البشر. . !!!

* * *

والتبشير في واقعه على نقيض اسمه في كل شيء. . فإذا كان الاستعمار «أفعى» فالتبشير هو الرأس والسم. . وإذا كان الاستعمار وحشاً. . فالتبشير هو الناب والظفر. . !! إنها قصة طويلة ومأساة دامية مفزعة. . .

إن جرائم «السي. أي. إيه» C. I A والكي. جي. بي» K. G. B تبدو عملاً إنسانياً رحيماً أمام جرائم التبشير البشعة. . . ولو عاد المسيح إلى الأرض لسلموه إلى إسرائيل لتعيد محاكمته. . !!!

* * *

في قصة الأخوة «كرامزوف» التي كتبها «ديستوفيسكي» أن المسيح عاد إلى الأرض وأخذ في وعظ الشعب وتبشيره بالملكوت فأقبلوا عليه واستمعوا له، وأوشكوا أن ينفضوا عن الكهنة والقساوسة فخاف هؤلاء على مكانتهم ومنزلتهم بين الشعب. . .

فأوعزوا إلى رئيس محكمة التفتيش فاعتقله، وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح نفسه. . !!!

أليس هذا هو ما دفع «برتراند رسل» إلى الإلحاد بالمسيحية؟.. لقد هاله الواقع المخزي للشعارات المرفوعة على أبراج الكارتدرائيات والكنائس.. فكتب كتاباً اسمه «لماذا أنا لست مسيحياً»!!! وقد ختم كتابه بقوله: إن أول وآخر مسيحي قد مات على الصليب قبل تسعة عشر قرناً...!!!

وفي كتاب آخر ألفه اسمه «لماذا يحارب الناس»؟؟؟ Why Men Fight? .

* * *

يقول: إن بريطانيا تحاول رفع مستوى الحياة للشعب البريطاني في الوقت الذي يموت فيه سكان المستعمرات من الجوع.. إنه عالم رياء وكذب. ونفاق.. حقاً.. وكما يقول المسيح في إحدى مواعظه:

«.. تنظر القذى في عين أخيك وأما الخشبة التي في عينيك فلا تفطن لها.. وكيف تقول لأخيك: دعني أخرج القذى من عينيك.. وها هي الخشبة في عينيك..

يا مرائي..!!

أخرج أولاً الخشبة من عينيك، وحينئذٍ تبصر جيداً.. لتخرج القذى من عين أخيك..».

* * *

ومما يثير العجب كما يقول أحد أئمة الإسلام العظام في

رسالته إلى مؤتمر الأديان العالمي الذي عقد في لندن سنة ١٩٣٦[١].

مما يثير العجب... إن أهل الأديان يحشدون جنودهم ويعدون عدتهم لمقاتلة بعضهم بعضاً مقاتلة أسرفوا فيها، وجعلتهم ضعفاء أمام عدوهم المشترك، وسلكوا طرقاً في التناحر مخالفة لأبسط قواعد المنطق، مما جعلهم سخرية أمام العلماء والفلاسفة، وجعل كل جهودهم عقيمة النتائج... فقد تركوا التأثير على الإنسان من ناحية عقله الذي هو موضع الشرف، وموطن العزة والكرامة واستعملوا طرق الإكراه والإغراء بالمال وغيره من الوسائل، وركن بعضهم إلى القوى المادية للدول، ونسوا أن الإيمان لا يحل القلب بالإكراه وأن العلم لا ينال إلا بالدليل، ونسوا أن العدو جادٌ في إنزالهم من مكانهم اللائق بهم، وأن شرور العالم تغمر الإنسانية، وتغطي على ما بقي في النفوس من هيبة واحترام للنظم الإلٓهية، وكان عليهم بدل هذا كله أن يتعاونوا على درء الخطر، وأن يحاربوا هذه الشهوات الجامحة، وهذه الإباحية التي يئن منها العقلاء، وهذه العادة المستحكمة التي تجر الويلات على الآمنين بين حين وآخر، وتستعار لها أسماء كاذبة من المدنية، والنظم، والحرية.

* * *

(١) الإمام الأكبر المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغي.

أليس هذا هو الواقع حقاً؟ أليس محو الإسلام والمسلمين لا يزال غاية وهدفاً؟ . .

* * *

«ومنذ نشأ القانون الدولي الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية، وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقررها هذا القانون، وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوروبيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية. ف «جروسيوس» أبو القانون الدولي قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية و «جنتيلس» هاجم فرنسوا الأول ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليم العثماني في عام ١٥٣٥ م ومع أن هذه المعاهدة أقامت سلاماً بين الدولتين مدة حياة الملكين، ومع أنها أعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التي كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا في دار الإسلام، فقد كانت هذه المعاهدة مرفوضة لأنها مع ملك أمة غير مؤمنة[1].

«وقد كان القرن التاسع عشر ولا ريب أسوأ من كل القرون

---

(١) انظر في هذا الموضوع «المجتمعات الدولية الإقليمية» تأليف الدكتور حافظ غانم، فصل: «العائلة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها: وكتاب «كفاح دين» تأليف المفكر الإسلامي الشيخ محمد الغزالي - ص ١١٢ - ١١٣، الطبعة الأولى.

التي تقدمته لأنه القرن الذي انبعثت فيه «المسألة الشرقية»[1] من بقايا الحروب الصليبية.

وكانت المسألة الشرقية تمخضت عن دور آخر وراء دور الحروب الصليبية وهو دور التفاهم بين دول الاستعمار على تركة «الرجل المريض»[2] وتبادل الإغضاء عن كل طرف متفق عليه يقع في قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على التركة وصاحبها على قيد الحياة»[3]. . . .

إن القلب ليمتلىء رعباً وهو يطالع تفاصيل هذه المؤامرة التي حيكت لتقسيم العالم الإسلامي وابتزازه، والعمل على تدميره وتحطيمه.

وقد ذكر لنا المرحوم شكيب أرسلان مائة مشروع وضعت لتقسيم دولة الخلافة، وفي هذا الحوار بين القيصر نيقولا امبراطور الروسيا، والسير هاملتون سيموز سفير بريطانيا تتضح أبعاد هذه المؤامرة الخطيرة، وكيفية التدبير أو التفكير تجاه العالم الإسلامي وتدميره[4].

---

(١) كانت المسألة الشرقية تعني في أول الأمر تخليص الممالك المسيحية من أيدي الدولة العثمانية وفي مرحلة ثانية أصبحت تعني تقسيم الدولة العثمانية والدول الإسلامية التابعة لها بين الدول الأوروبية.

(٢) اصطلاح أطلقته الدول الأوروبية على الامبراطورية العثمانية في مرحلتها الأخيرة.

(٣) عباس العقاد. . محمد عبده ص ١٠.

(٤) حاضر العالم الإسلامي ج ٣ ص ٣١٧ - ٣١٨.

«. . ففي ليلة سمر عند الغراندوقة «هيلانة» الروسية ـ ٩ يناير ١٨٥٣ م قال الامبراطور نيقولا للسير هاملتون :

«تأمل . . . نحن بين أيدينا رجل مريض . . ومريض جداً ، ويكون بالفعل وبالاً عظيماً علينا إن خرج أمره من أيدينا . . . » :

وفي مرة ثانية دعي السفير هاملتون إلى القيصر فقال له أيضاً :

ـ «أنت لا تجهل المقاصد والمرامي التي لا تزال في روسيا منذ عهد كاترينا . . وتركيا هي كما قلت لك ـ من قبل ـ رجل مريض ، ويجوز أن تموت بالرغم منا فتبقى عبئاً علينا ، وليس في استطاعتنا نشر الموتى» ! . .

ـ «أفلا يكون من الأفضل بحقنا ـ تفادياً من حرب أوروبية ـ أن نتفق من قبل على أمرها حتى لا نؤخذ على غرة ، وإنني أقول لك بصراحة . . . . إننا أن استطعنا أنا وإنجلترا أن نتفق في هذا الموضوع لم يهمنا الآخرون . !

وأنا لا أكتمك أنه إن كان في نية إنجلترا الاستيلاء على الأستانة فلن أتحمل ذلك لا أقول إن لكم هذه النية ، ولكن أقول إن صحت هذه النية فلن أكون راضياً . وأنا نفسي أتعهد أيضاً بأن لا أحتلها مالكاً . أما بصورة مؤقتة على سبيل الاستيداع فقد أرضى . . .

وأما إذا بقيت الأمور بدون قرار بشأنها فقد يجوز أني أحتلها قولاً واحداً .

فأجاب السير هاملتون : «ليسمح لي جلالتك بالقول أنه ليس عندنا أدنى سبب للظن بأن المريض هو على وشك الهلاك» .

فرد القيصر في حدة قائلاً :

«إذا كان عند حكومتك أمل بأن تركيا لا تزال فيها عناصر الحياة فتكون المعلومات التي لديها غير صحيحة . . . وأنا أؤكد لك أن المريض هو في حالة الاحتضار وأنه لا يجوز أن يموت ونحن عنه غافلون . . . بل يجب أن نتفق . . . ولست أكلفكم عقد معاهدة . . أو تحرير صك . . وإنما أطلب كلمة اتفاق عام ، وهذا كافٍ فيما بين الرجال الأكياس» . ! ! !

* * *

لم يحدث في التاريخ ، وفي أشد عصوره همجية أن تآمر رئيس دولة على دولة مجاورة ، والعمل على تدميرها بهذه الطريقة التي كان يفكر بها قيصر الروسيا ، ولم يحدث في أظلم عصور التاريخ ، وأشدها همجية ووحشية أن حكم رئيس دولة على دولة أخرى بالموت ، وحدد ساعة موتها بهذه الطريقة ولم يحدث ولن يحدث في المستقبل كما نظن ، ولكن الأحقاد التي تشعبت جذورها في العقل الأوروبي وغارت في أعماق مشاعره وإحساسه هي التي كانت تخطط لهذا العمل الهمجي وتنظيم هذا الهجوم الوحشي . . وتتفق على توزيع التركة قبل التنفيذ العملي . .

وسواء أكان موقف السفير الإنجليزي تعبيراً عن موقف

حكومته. . . أم لم يكن فإن الواقع ينفي كل اعتبار لحسن النية، واعتقادنا هو: أن بريطانيا لم تشأ أن تشرك روسيا معها في اقتسام الضحية.

لقد بدأ الهجوم على العالم الإسلامي في كل أقطاره، وأحاطت به الجيوش والأساطيل في عقر داره، ودمرت بريطانيا ممالك الإسلام في الهند، وسيطرت على الخليج واحتلت في طريقها عدن، وأبحرت أساطيلها شرقاً وغرباً فلم تدع جزيرة في بحر أو مدينة على ساحل.

وانطلقت فرنسا من وراء بريطانيا فاحتلت الجزائر والمغرب وتونس، وذهبت إيطاليا إلى الصومال وأرتيريا، وسيطرت هولندا على جزر الهند الشرقية بأكملها. . وأحيط بممالك الإسلام وسلطناته في شرق وغرب أفريقيا.

وأخيراً وقعت مصر والسودان في قبضة بريطانيا.

لقد سقط «المجدار» ومشت سكة الأجنبي في حقل الإسلام، وتداعت الأمم على المسلمين. كما تنبأ النبي «صلى الله عليه وسلم» قبل ذلك بأكثر من ألف وأربعمائة عام[1].

(١) في حديث عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أنه قال: «يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها». الحديث رواه أبو داود والبيهقي في دلائل النبوة. (انظر مشكاة المصابيح ج ٢ طبعة المكتب الإسلامي ١٣٨١ هـ).
=

كانت النازلة شديدة، والكارثة كبيرة، والمعركة ضد الإسلام والمسلمين ضارية عنيفة، كانت هذه الأيام والسنوات كما يقول المؤرخ الجبرتي. . أول سني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»[1].

كان أول عمل قامت به فرنسا بعد احتلالها الجزائر تحويل مسجد «كيشارو» التاريخي إلى كاتدرائية Cathedral وأصدرت هيئة البريد الفرنسي طابعاً تذكارياً يمثل الهلال رمز الإسلام وهو يقع منحدراً إلى قاع البحر على حين يرتفع الصليب رويداً ليغمر بسناه الأفق.

وخطب جلادستون رئيس وزراء بريطانيا مؤكداً: إننا لا نستطيع قهر المسلمين ما بقي فيهم المصحف والكعبة. . . والأزهر. . . !!!

وأكد ملك إسبانيا أمام البابا «إن إسبانيا قد جندت نفسها

= «المجدار» ما ينصب في الحقول على شكل إنسان لتخويف الطيور المتلفة للزرع.

(١) عجائل الآثار ـ الجبرتي ـ ط ـ الشعب.

لحرب المسلمين في أفريقيا حرباً لا تنفك عنها حتى تغرس الصليب في ديار المسلمين وتجعل أتباع محمد يخضعون له قهراً . . !!

وعندما فتحت قناة السويس : أرسل المهندس ديليسيبس إلى البابا يقول له : الآن أصبح الطريق إلى قلب العالم الإسلامي مفتوحاً . . . وكانت شركة القناة ـ قبل التأميم ـ تخصص في ميزانيتها خمسة ملايين من الجنيهات لأعمال التبشير فقط سنوياً .

وكان لإيطاليا نشيد يردده جنودها في أثناء الهجوم على طرابلس الغرب في ليبيا تقطر كلماته سماً وحقداً :

صلي يا أماه ولا تبكي . . بل اضحكي وتأملي . . ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية . . سأحارب بكل قوتي لمحو القرآن . ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطاليا حقاً . . يا أماه أنا مسافر . . ألا تعلمين أن الأمواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستلقي سفائننا على المراسي . . أنا ذاهب إلى طرابلس لأن رايتنا المثلثة الألوان تدعوني وذلك القطر تحت ظلها . . لا تحزني يا أماه لأننا في طريق الحياة . . وإن لم أرجع فلا تبكي على ولدك . . ولكن اذهبي إلى المقبرة ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذي يأبى الحداد على قبر فلذة كبدك . . وإذا سألك

أحد عن عدم حدادك علي فأجيبيه أن مات في محاربة الإسلام . . !!!

وعندما سقطت مدينة القدس في يد المارشال أللنبي في الحرب العالمية الأولى خطب وقال : الآن انتهت الحروب الصليبية .

وفي دمشق : التي سقطت في يد القوات الفرنسية ذهب القائد الفرنسي «غورو» إلى قبر البطل صلاح الدين قائلاً : لقد عدنا مرة ثانية يا صلاح الدين . .

وفي عام ١٩٥٦ في أثناء العدوان الثلاثي على مصر كتب المستر إيدن رئيس وزراء بريطانيا إلى الرئيس الأمريكي «إيزنهاور» يستنجد به لإنقاذ الحضارة المسيحية[١] .

ويقول راندولف تشرشل[٢] :

(١) انظر في هذا الموضوع :
الغارة على العالم الإسلامي ـ ترجمة محب الدين الخطيب . مساعد الياقي ، وكتاب التبشير والاستعمار ـ تأليف : عمر فروخ ، مصطفى الخالدي وكتاب لماذا تأخر المسلمون؟ للأمير شكيب أرسلان . وكتاب كفاح دين للشيخ محمد الغزالي وكتاب «حاضر العالم الإسلامي ج ١ ، ج ٢ ، وكتاب التعصب والتسامح بين الإسلام والمسيحية للشيخ محمد الغزالي ومذكرات إيدن الطبعة العربية ، وكتاب المبشرون والمستشرقون ، محمد البهي ، وكتاب «يوم الإسلام» لأحمد أمين .

(٢) حرب الأيام الستة ص ١٢٩ «الترجمة العربية» .

لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم اليهود والمسيحية على السواء. . إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود.

لقد خرجت القدس من أيدي المسلمين ولن تعود. .

فعندما دخلت قوات إسرائيل مدينة القدس عام ١٩٦٧ تجمهر الجنود حول حائط المبكى وأخذوا يهتفون :

هذا يوم بيوم خيبر. لقد ولى محمد وراح. . محمد مات بعد أن خلف بنات. . !!!

إن علينا كما يقول بن غوريون. . . واجباً مقدساً في الحيلولة بين الإسلام والحياة. . . إنه واجب مقدس في الغرب المسيحي كما هو واجب مقدس في إسرائيل، وعلينا أن نبذل معاً أقصى الجهود في منع ظهور أي «محمد من جديد».

* * *

ويقول : «يوجين روستو» مستشار الرئيس الأمريكي الأسبق «جونسون» :

«يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية. لقد كان الصراع محتدماً بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة، بصور مختلفة. ومنذ قرن ونصف

خضع الإسلام لسيطرة الغرب، وخضع التراث الإسلامي للتراث المسيحي.

إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي، فلسفته، وعقيدته، ونظامه، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام وإلى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية، لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها» إن روستو يحدد أن هدف الاستعمار في الشرق الأوسط هو تدمير الحضارة الإسلامية، وأن قيام إسرائيل، هو جزء من هذا المخطط، وأن ذلك ليس إلا استمراراً للحروب الصليبية[١].

وصرح سالازار رئيس البرتغال السابق في مؤتمر صحفي قائلاً :

إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيرون نظام العالم.

فلما سأله أحد الصحفيين : لكن المسلمين مشغولون بخلافاتهم ونزاعاتهم، أجابه : أخشى أن يخرج منهم من يوجه خلافهم إلينا. ؟!

* * *

---

(١) معركة المصير - صفحات ٨٧ - ٩٤ «سعد جمعة».

ومن الظواهر المحيرة. . . إن الإعلام الغربي. . بل العالمي. . يقف من الإسلام والمسلمين موقف العداء على طول الخط.

مثلاً: عندما تفكر باكستان في إنتاج قنبلة نووية. . فإن هذا العالم يشتعل بالغضب. . ولكن أن تملك الهند. . أو الصين. . أو إسرائيل هذه القنبلة فإن هذا الإعلام يصاب بالعمى والصمت. .

وعندما يتصرف عيدي أمين تصرف أي دكتاتور في أفريقيا. . فإن القيامة تقوم ضد هذا المسلم الوحش. . !! لكن عندما يقتل القس «ميلتون أوبوتي» ثلاثمائة ألف أوغندي كما نشرت ذلك صحيفة الأوبزرفر Observer فإن هذا الإعلام يصاب بالضغط وهبوط القلب. . !

وعندما يقتل الإمام عبدالله هرون في سجون جنوب أفريقيا لمناداته بالمساواة والعدل. . فإن وسائل الإعلام تتجاهل هذه الجريمة حتى لا تتيح لمسلم فرصة الظهور كبطل مدافع عن المساواة والعدل. .

أما حين يسجن نلسون مانديلا Nelson Mandela مجرد سجن. . أو حين يلقي الأسقف توتو Tutu مجرد خطاب في حفل. . فمجلة التايم Time ونيوزويك News Weak وشنطن بوست Washington Post تهلل كلها لميرابو العصر، وتقدم إليه

جائزة نوبل. . بمزيد من الاعتزاز والفخر!!

وعندما تثور الكنيسة في بولندا. . . ويقف رجال الدين وراء زعيم حركة التضامن ليخ فالنسا. . . يسارع هذا الإعلام إلى تمجيد رجال الكنيسة، والتنديد والتهديد لحكومة وارسو التعيسة!!

لكن أن يقف زعيم مسلم يشيد بإسلامه، أو يكتب مفكر مسلم دفاعاً عن دينه أو يتحرك شعب مسلم يطالب بحقوقه. . فالويل كل الويل للتتار الجدد. . !!، والقتل والشنق للمسلمين الهمج. . !

* * *

هل سمعتم بتجارة «الجماجم» البشرية التي تصدر إلى أميركا. . . ؟

لقد نشرت الصحف ووكالات الأنباء أن تجاراً من أمريكا يستوردون هذه الجماجم من الهند. . وأن هذه الجماجم يتم جمعها وتصديرها بعد قتل أطفال في مقتبل سنوات العمر. . !

هذا العمل الرهيب. . البشع. . المقزز. . لو قام به مسلم لقامت القيامة، وحكم بالإعدام على المسلمين في أي مكان من عالمنا ودنيانا. . . !!

ولكن الأميركان قوم فوق المسألة. .

والهندوس في نظر الإعلام الغربي شعب من الملائكة. . !

- السيد ماكفرلين:

لقد تحول هذا الحوار إلى محاكمة... ولم يعد في استطاعة أي منا الدفاع حتى بكلمة...

* * *

- ولماذا تسميها محاكمة أيها السيد ماكفرلين؟ لقد جئتم إلى هنا في مهمة البحث عن الحقيقة.. الحقيقة التي تصبح الحياة بدونها عبثاً وسفاهة.. وتعاسة.

لقد سئمت الإنسانية أساليب الخداع التي مارسها النازيون بقيادة «جوبلز» كما سئمت الأكاذيب التي أتقنها ونستون تشرشل وصديقه اللورد «بيفربروك».. وهل كانت الحرب العالمية الثانية إلا حصاداً مراً لهذه الافتراءات التي روجها كلا الطرفين في هذه الحرب؟

إن الإنسانية تبحث عن الأمل.. عن مرفأ تلقي فيه بمراسيها على شاطىء الأمان والسلم.. ولن يتوفر لها ذلك. ما بقيت الأكاذيب هي الأسلوب المفضل لدى من بيدهم القرار وإصدار الأمر...

لقد استبدل قادة العالم كتاب «الأمير» لميكافيللي بكتبهم المقدسة.. والمأساة أن يقع في شراكهم المؤرخون وقادة الفكر والمعرفة.

لقد هان كل شيء في هذا العصر.. هانت الفضيلة

والشجاعة.. وديس الحق تحت أقدام القوة الغاشمة.. وأصبح الحق والخير تراثاً وماضياً، وخرافة. إنها «الأنا» التي تتحكم في عقل القائد أو الزعيم والحاكم... وهذه «الأنا» هي التي حولت العالم إلى غابة.. إلى وحش يغرس - في الصغير والضعيف - أنيابه..!!

لقد استقبلتكم هنا كأصدقاء... لا بل كأخوة لي... فالإنسانية من وجهة نظري كمسلم أسرة واحدة... غير أن الحق ومن وجهة نظري كمسلم أيضاً... فوق كل شيء... لأن الحق هو الله... والله فوق الجميع.

ألم يختلف أرسطو مع أفلاطون... لقد كانا أكثر من صديقين، ولكن حين يكون الاختلاف حول الحق.... فالانحياز إلى الحق هو الفضيلة، وهو الواجب.

والحق يقول:

إن المسلمين يتعرضونِ للاستئصال والإبادة منذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي وحتى هذا اليوم..

بعد سقوط «ملقا» في الملايو.. أو ما يعرف اليوم بماليزيا كتب مفكر برتغالي اسمه «تومي بيرس» إلى الملك إيمانويل يقول له:

«إن البوكرك - القائد البرتغالي - يقاتل ضد محمد!! وإن «محمداً» محاصر ولن تقوم له قائمة بعد اليوم... بل سيهرب بأسرع ما يمكن».

ويقول «البوكرك» في خطاب ألقاه بهذه المناسبة:

إذا سقطت «ملقا» فلسوف تنهار القاهرة... ومن بعدها تنهار مكة!..

* * *

إنني لن أتحدث عن هذا «البوكرك» طويلاً فلربما يقول أحدكم: ذاك عهد مضى.. وليكن ذلك.. وسأكتفي هنا بثلاثة نماذج من التاريخ المعاصر.

النموذج الأول من فرنسا.

والنموذج الثاني من روسيا.

والنموذج الثالث من الحبشة أو ما يعرف اليوم باسم أثيوبيا..

وقد تم هذا الاختيار لاعتبارات أيديولوجية هامة..

فرنسا كمثال للعالم الرأسمالي الغربي..

وروسيا كمثال للعالم الشيوعي الماركسي..

والحبشة كمثال للعالم الثالث المتخلف عن ركب الحضارة العالمي.

إن هذا الاختيار لم يكن عبثاً.. أو جاء عفواً.. بل تم هذا الاختيار عمداً..

أولاً: لتأكيد التناقض بين هذه النماذج في نظام الحياة وفلسفة الحكم.

ثانياً: إنه ـ بالرغم من هذا التناقض ـ فإنها متفقة جميعاً على محاصرة الإسلام واضطهاد أبنائه في كل قطر..

ولنبدأ ـ أولاً ـ بفرنسا..

* * *

في كتاب «الجزائر الثائرة» الذي ألفه الفرنسيان «كوليت» و «.. جان جونسون» يقول هذان المؤلفان[1]:

كان العبث بالدين الإسلامي هو المجال المفضل للقائد «روفيجو»... فقد وقف هذا القائد الفاجر، ونادى بين بني قومه بأنه يلزمه أجمل مسجد في المدينة ليجعل منه معبداً لإله المسيحيين!! وطلب من أعوانه ذلك في أقصر وقت ممكن وأشار لهم إلى جامع القشاوة لأنه، كما قال، أجمل جوامع الجزائر طراً، وهو في وسط المدينة وفي قلب الحي الأوروبي فضلاً عن أن أفنيته تؤدي إلى مداخل السراي.

وبالفعل.. تحدد ظهر يوم ١٨ من ديسمبر ١٨٣٢ لإنجاز هذا العمل وتحقيق هذه الرغبة، ففي الميعاد المحدد تقدمت إحدى بطاريات الجيش، وأخذت أهبتها للعمل في ميدان السودان، وخرجت من بينها فرقة من سلاح المهندسين، فهاجمت أبواب المسجد بالبلط والفئوس، وإذ ـ بداخل المسجد أربعة آلاف مسلم اعتصموا كلهم خلف المتاريس، فاندفعت نحوهم القوة

(١) ص ٤٠ وما بعدها.

العسكرية، ودحرتهم بالسناكي، فخروا صرعي وجرحى تحت أرجل الجنود، واستمرت العملية طوال الليل حتى إذا كان الصباح كانت النظم قد تمت، والقرارات قد صدرت، وصار الجامع «كاتدرائية الجزائر».

وما أن انتهى الجنود من هذا حتى داروا على أعقابهم صوب مسجد القصبة الغني بذكريات الإسلام وأيامه المجيدة، فدخله القواد والضباط والجنود، وأقاموا فيه شعائرهم الدينية حتى إذا انتهى القداس شرع القساوسة في تمجيد «إله الجيوش» وترتيل «نشيد الغفران». !

ولعمر الحق، إذا ساغ للجنود الجهلة أو لضباطهم العابثين بأن يأتوا مثل هذه الأفعال... فكيف يسوغ للقس سوشيه وهو الوكيل العام لأسقف الجزائر أن ينضم إليهم، ويتزعم طابورهم..

فقد وضع هذا القس عام ١٨٣٩ كتاباً أسماه «رسائل مفيدة ومشوقة عن الجزائر» وجه فيه الكلام إلى عاهل فرنسا فقال: «إن مسيو فاليه رجل عميق التفكير، ذو ضمير حي، ولا تنقصه الحيلة.

إنه يحكم الجزائر كأكثر الملوك إطلاقاً في الحكم.

إنه الرجل الذي ليس للمستعمرة غنى عنه.

إنه يرغب في أن يستتب الدين المسيحي وأن يحترمه الجميع.

إنه يريد أن يضاعف من عدد الصلبان والكنائس في الجزائر.

إن مولاي ليستطيع أن يفعل ما يشاء مع رجل مثل المسيو فاليه الذي اختار أجمل مسجد في قسنطينة ليجعل منه أجمل كنيسة في المستعمرة». !!!

* * *

وقد وقع الاختيار على القس سوشيه ليكون راعياً لهذه الكنيسة التي كانت مسجداً، وما إن أطلقت يداه ليعد لنفسه منبراً للوعظ فيها حتى استولى على منبر الرسول محمد، أتى به من مسجد يقال له «المقدس» وهو آية في فن النقش العربي. وعلى هذا المنبر النفيس وقف سكرتير الحاكم بوجو ليقول:

«إن آخر أيام الإسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك على أي حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا ملكاً لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً..!!».

* * *

هذه هي فرنسا التي رفعت شعار الآخاء والمساواة والحرية..

فرنسا.. باريس.. عاصمة النور كما كان يطلق عليها في

النصف الأول من هذا القرن، والتي اقتحم ثوارها سجن الباستيل فهدموه في طرفة عين . .

* * *

أما عن روسيا فحال المسلمين فيها أسوأ وأمر . . . يستوي في ذلك حكم القياصرة بالأمس . . . أو حكم «البروليتاريا» التي لا تعترف بدين أو قومية وجنس . . . !

«لقد كان الاضطهاد في عصر القياصرة ناشراً جناحيه، في كنف الموظفين الروسيين (بريكاز) والمبشرين المسيحيين، بتأييد رسمي من الدولة القيصرية» لذلك لا يعتبر الاضطهاد الديني في روسيا أمراً حل بها حديثاً، إنما الاضطهاد الشيوعي المرعب الذي هز العالم الإسلامي والإنساني قاطبة، ضرب من برنامج مواصلة القضاء على الدين المحمدي، مع عظيم الفارق بين اضطهاده واضطهاد الدين المسيحي في روسيا الحمراء.

«رفع «هيرما هان» أسقف قازان في بداية العصر السادس عشر تقريراً إلى أعتاب مولاه القيصر تيودور، يسرد فيه ـ بلسان محرق بالغ الأثر ـ حوادث فشل التبشير المسيحي . . وارتداد المسيحيين الجدد إلى دينهم الأصلي الإسلامي، وجرأتهم في إقامة شعائرهم الدينية بمساجد أقاموها من جديد. وبناء على هذا التقرير الأسقفي قام القيصر المذكور بأخذ تدابير صارمة ضدهم، وأبلغهم حرمانهم من أملاكهم مع إجبارهم على الإقامة في حي أنشىء خاصة لهم بمدينة قازان، تحت إشراف أحد

أمراء الروس. ثم كلف الشبان تكليفاً بالزواج من روسيات، والبنات من روسيين. ومن خالف الأمر كان مصيره إلى السجن وتعذيبه فيه بوضع القيود في يديه ورجليه وضربه بالسياط، وكما لو كان هذا التعذيب غير كافٍ لإشباع نفسية القيصر فأمر فوق ذلك بهدم المساجد التي بنيت من عصور، وبطرد المسلمين من مدينتهم، وكان له ما أراد.

«وأما البلاشفة فقد كتموا بمهارة خططهم السرية، وحقيقة موقفهم من الدين، وتمكنوا من الظهور أمام الشعوب ـ إلى حين تركيز القوة في يدهم ـ بمظهر محبب إلى النفوس، وعلى أثر اطمئنانهم للموقف الخارجي، بدأ الحزب الشيوعي ينشر خلاياه المنظمة أدق تنظيم في أرجاء الاتحاد السوفيتي، فعمدت هذه الخلايا الإلحادية إلى استئصال شأفة الدين، أولاً: بالقضاء على القضاة، والمفتين، والمدرسين، والوعاظ، والخطباء، والأئمة والمؤذنين، واحتلوا المدارس، والجوامع، والمساجد، وألغوا في القرم والبلاد الإسلامية الأخرى المحاكم الشرعية وديار الإفتاء، وقد أصبح كل ذلك أثراً بعد عين. ثم حولوا المساجد والجوامع إلى مسارح واصطبلات لخيول قولخوز. أو مخازن لمؤن وذخائر، أو إلى أندية، أو إلى دور للسينما وما إلى ذلك من أشياء لا يقرهم عليها شرع ولا قانون، وقد جمع البلاشفة نسخ القرآن والكتب الدينية وأحرقوها حرقاً. لم يشهد الإنسان هذا الانحطاط

الخلقي حتى في القرون الهمجية الأولى، ونجت من أيدي الملحدين بعض الجوامع النادرة التي اعتبرت آثاراً عمرانية، أو أمرت موسكو بعدم مساسها لتتخذها عند اللزوم دليلاً ضد ما قد يتسرب إلى البلاد الخارجية من «أخبار مزورة وكاذبة»!! في نظرها، وبذلك انقطع الآذان المحمدي في أنحاء القرم، والبلاد الإسلامية السوفيتية، ولا أحد يجرؤ على أداء شعائره الدينية فيها لما فيه من خطر هلاكه.

«وصل الاضطهاد الديني في القرم ذروته عام ١٩٣٨ حيث لم يعد الناس يشاهدون فيها شيئاً باسم الدين بعد إحراق نسخ القرآن والكتب الدينية، وقلب المدارس والمساجد إلى مؤسسات شيوعية، وقتل العلماء والعظماء، أو نفيهم إلى سيبيريا، وقد حدث في ـ كوزلو ـ أن اعتقل في ليلة من ليالي عام ١٩٣٨ آخر من بقي من العلماء، وبعد التعذيب أتى الشيوعيون بهم منهوكي القوى إلى مبنى تكرير مياه المدينة المقام على شاطىء البحر الأسود، واسمه (فوداقنال) ثم زجوا بهم في سكون الليل وعلى الانفراد في عجلات الماكينات الخلفية المعدة بطريقة خاصة من قبل الإدارة الشيوعية، لتكون مذبحة للإنسان في (الفردوس الشيوعي) على أرض القرم، وأما العمال المكرهون على القيام بهذه العملية الشنيعة فلا يزالون على قيد الحياة لاجئين إلى أوروبا وتركيا».

* * *

هذه الصورة البشعة المروعة في القرم لا تبلغ بشاعة الصورة الوحشية التي تمثلت في التركستان الغربية والشرقية حيث يقطن ـ أو كان يقطن ـ أربعة وأربعون مليوناً من المسلمين، تناقص عددهم الآن على يد آلة الإبادة السوفيتية الشنيعة إلى ستة وعشرين مليوناً فقط.

فلندع كاتباً آخر يحدثنا عن وسائل التعذيب الجهنمية، التي سلطت على العنصر الإسلامي في التركستان الغربية الخاضعة لروسيا، والتركستان الشرقية التابعة للصين الشيوعية اسماً ولروسيا الشيوعية فعلاً.

إنه الأستاذ (عيسى يوسف آلب تكين) الذي قدرت له الحياة من جديد بعد فراره من الإدارة الجهنمية الرهيبة، ليكتب كتابه «المسلمون وراء الستار الحديدي» يحدثنا فيه عن (صور من التعذيب والقتل)، وسنضطر أن نغفل ذكر بعضها هنا لأنها من القذارة بحيث يخرس ذكرها كل أدب إنساني مكتفين بما تطيق الآداب الإنسانية أن نذكره للناس... وهذه هي:

١ ـ دق مسامير طويلة في الرأس حتى تصل إلى المخ.

٢ ـ إحراق المسجون بعد صب البترول عليه وإشعال النار فيه.

٣ ـ جعل المسجون هدفاً لرصاص الجنود يتمرنون عليه.

٤ ـ حبس المسجونين في سجون لا ينفذ إليها هواء ولا نور وتجويعهم إلى أن يموتوا.

٥ - وضع خوذات معدنية على الرأس وإمرار التيار الكهربائي فيها.

٦ - ربط الرأس في طرف آلة ميكانيكية وباقي الجسم في ماكينة أخرى، ثم تدار كل من الماكنتين في اتجاهات متضادة، فتعمل كل واحدة مقتربة من أختها حيناً ومبتعدة حيناً آخر حتى يتمدد الجزء من الجسم الذي بين الآلتين، فإما أن يقر المعذب أو أن يموت.

٧ - كيٌّ كل عضو من الجسم بقطعة من الحديد مسخنة إلى درجة الإحمرار.

٨ - صب زيت مغلي على جسم المعذب.

٩ - دق مسمار حديدي أو إبر الجراموفون في الجسم.

١٠ - تسمير الأظافر بمسمار حديدي يخرج من الجانب الآخر.

١١ - ربط المسجون على سرير ربطاً محكماً ثم تركه لأيام عديدة.

١٢ - إجبار المسجون على أن ينام عارياً فوق قطعة من الثلج أيام الشتاء.

١٣ - نتف كتل من شعر الرأس بعنف، مما يسبب اقتلاع جزء من جلد الرأس.

١٤ - تمشيط جسم المسجون بأمشاط حديدية حادة.

١٥ - صب المواد الحارقة والكاوية في فم المسجونين وأنوفهم وعيونهم بعد ربطهم ربطاً محكماً.

١٦ - وضع صخرة على ظهر المسجون بعد أن توثق يداه إلى ظهره.

١٧ - ربط يدي المسجون وتعليقه بهما إلى السقف وتركه ليلة كاملة أو أكثر.

١٨ - ضرب أجزاء الجسم بعصا فيها مسامير حادة.

١٩ - ضرب الجسم بالكرباج حتى يدميه، ثم يقطع الجسم إلى قطع بالسيف أو بالسكين.

٢٠ - إحداث ثقب في الجسم وإدخال حبل ذي عقد واستعماله بعد يومين كمنشار لتقطيع قطع من أطراف الجرح المتآكل.

٢١ - ولكي يضمنوا أن يظل المسجون واقفاً على قدميه طويلاً يلجأون إلى تسمير أذنيه في الجدار.

٢٢ - خياطة أصابع اليدين والرجلين وشبك بعضهما إلى بعض.

٢٣ - وضع المسجون في برميل مملوء بالماء في فصل الشتاء.

٢٤ - والنساء حظهن من مثل هذا العذاب أنهن يعرين ويضربن ضرباً مبرحاً على ثديهن وصدورهن. أما بقية تعذيب النساء فإننا نمسك عنه. لأن المواقع التي اختاروها من أجسامهن والطرق الدنيئة التي استعملوها تجعلنا نستحي من ذكرها وكتابتها.

ثم يتشدق المتشدقون هنا بالمادة ١٢٤ من الدستور السوفيتي

الذي عدله ستالين سنة ١٩٣٦ لأنها تقول: «صيانة لحريات اعتقاد جميع المواطنين يعلن أن الدين في روسيا السوفيتية يفصل عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة، فلجميع المواطنين حريتهم، في ممارسة الشعائر الدينية أو في الدعوة إلى الإلحاد».

فأما تعليم الإلحاد للتلاميذ الصغار فتتولاه الدولة بكل أجهزتها، وأما تعليم الدين فتنص الفقرة ١٢٢ من قانون العقوبات لروسيا السوفيتية المطبوع عام ١٩٣٨ في موسكو على ما يلي:

«.. إن تعليم الدين للأحداث في مدارس الدولة أو المدارس الخاصة أو في المعاهد الشبيهة بهما يعاقب عليه القائمون بأمره بالحبس لمدة أقصاها سنة مع الشغل».

وفي أثناء الحبس تتم وسائل التعذيب الوحشية التي سبقت الإشارة إليها»[1].

* * *

وأخيراً ننتقل إلى الحبشة... أو أثيوبيا... إن مأساة المسلمين في هذه الدولة لا تقل بشاعة عن مأساتهم في روسيا.. هل تعرفون كم عدد المسلمين في أثيوبيا؟.. سوف تفاجأون بالدهشة، ويعتريكم الذهول من هذه المفاجأة..!!

(١) دراسات إسلامية ص ٢٠٠ وما بعدها.

إن عدد المسلمين في أثيوبيا ضعف عدد المسيحيين فيها.. إنهم يمثلون الأغلبية الساحقة بين سكان الحبشة..!!

* * *

وهذه الظاهرة... منتشرة في معظم أقطار أفريقيا... فهذه القارة من حيث العدد... ومن حيث تعدد الأديان في كل بلد... هذه القارة الأفريقية معظم سكانها مسلمون فعلاً.. وكما هو الحال في أثيوبيا فإن هذا الحال لا يختلف في أي مكان آخر من أفريقيا..

شعوب أغلبيتها مسلمة يحكمها غير مسلمين بالقوة.. لقد حرص الاستعمار البريطاني والفرنسي على تنفيذ هذه المؤامرة، ومما ساعد على ذلك نظام تعليم متعصب أقامه المبشرون في هذه القارة.

كانت معظم المدارس والكليات.. مدارس وكليات تبشيرية.. هدفها الأول والأخير هو تنصير المسلمين في كل دولة.. ومن ثم... كان من المستحيل أن يذهب أبناء المسلمين إلى أية مدرسة أو كلية، وتمشياً مع المنطق.. فقد أسند حكم هذه الأقطار الأفريقية ـ بعد الاستقلال ـ إلى تلاميذ هذه المدارس الذين تربوا في أحضان الكهنة والقساوسة..! والذين تلقفتهم جامعات لندن وباريس لهذه الغاية والمهمة..

ولنضرب لكم مثلاً على ذلك بالسنغال في غرب أفريقيا..

إن عدد المسلمين في السنغال فوق التسعين في المائة، ولكن فرنسا فرضت على هذه الدولة «ليوبولد سنجور» أو «سان جورج» الذي نشأ في أوكار المبشرين ليمارس مهمته بعد رحيل فرنسا.

وجوليوس تيريري في شرق أفريقيا.

لقد لعب الدور نفسه في تنجانيقا قبل أن تتحد مع «زنجبار» في أعقاب مؤامرة كبرى...

إن الأغلبية الساحقة في اتحاد تنزانيا مسلمة... وقد كانت «زنجبار» مركز إشعاع إسلامي في شرق أفريقيا.. إن عاصمة تنزانيا اسمها «دار السلام» وهو اسم إسلامي كما سبق أن شرحنا في المقدمة..

نعود بعد ذلك إلى الحبشة أو أثيوبيا..

عندما كنت طفلاً صغيراً في قرية مصرية تبعد عن القاهرة - شمالاً - بحوالي ثلاثين ميلاً.. سمعت - ولأول مرة - عن الحبشة وحربها مع إيطاليا. لقد هب الشعب المسلم ليقف وراء أثيوبيا.. وقف وراءها يؤازرها ضد إيطاليا بالمساعدات المالية والمساعدات الطبية.. علاوة على الدعم السياسي الذي كانت تقدمه الدولة.. أي إن مصر - شعباً وحكومة - وقفت وراء الحبشة في معركتها مع إيطاليا..

فهل حفظ «هيلا سلاسي» لمصر هذا الجميل وهذا الموقف؟

لقد كان هذا الرجل شاذاً من نوع غريب حقاً.. أذكر في الستينيات أنه زار القاهرة وبعد أيام قضاها ضيفاً على الشعب والحكومة سافر إلى الولايات المتحدة، وهناك وقف في «الكونجرس» الأمريكي يهاجم مصر والإسلام هجوماً بالغ القسوة..

إن معنى كلمة «هيلا سلاسي» القوة المثلثة.. وهي تعني بذلك قوة الثالوث في المسيحية، ولكن صاحب هذه القوة العجيبة لم يثبت أمام الطليان في معركة، وفر هارباً لينجو بجلده بعد سقوط امبراطوريته العفنة..!!

لقد ذهب على أية حال إلى غير رجعة، ولكن هل تغيرت سياسة خلفه بعد موته؟ للأسف فإن شيئاً لم يتغير... ومانجستو هايلا مريم «الشيوعي» لا يزال يمارس الدور نفسه.

أليس ذلك هو ما حدث في روسيا؟ إن حكم القياصرة بقي كما كان بعد قيام الثورة.. وبعد سقوط الكرملين في أيدي «البروليتاريا» التي نسيت ما أصابها على أيدي القياصرة قبل الوصول إلى السلطة..

هل نذكركم مرة ثانية بقصة «جورج أورويل»؟ وبمزرعة الحيوانات التي كان يديرها السيد جونز؟ ثم بثورة الخنازير على أصحاب المزرعة واستبدادهم ببقية الحيوانات التي سقاها الخنازير - بعد هذه الثورة - كؤوس العلقم والذل؟.

لنعد إلى الحبشة . .

عندما استولى الإيطاليون على الحبشة خرج من سجن «هرر» وحده أكثر من سبعة آلاف شخص. ظل بعضهم مقيد الرجلين واليدين على شكل قوس لمدة أكثر من عشرة وخمسة عشر عاماً.

فلما أفرج عنهم لم يعودوا إلى حالتهم الطبيعية، إذ تشكل عمودهم الفقري بذلك الشكل القوسي.

واختفت السياط الرهيبة التي يزن الواحد منها أكثر من خمسة وعشرين رطلاً وهي عبارة عن سيور جلدية مضفورة بأحكام تتدرج في الدقة حتى الطرف. واختفى الرق أيضاً.

وتنفس المسلمون الصعداء، إذ وقفوا لأول مرة منذ أكثر من خمسة وأربعين عاماً سواسية مع المسيحيين، وأعيدت لهم معظم أراضيهم، وبدأوا يشعرون بأنهم بشر.

ونشطت حركة التجارة التي كانت قد ماتت تماماً، كما افتتحت المدارس العربية وظهرت الصحف المحلية، وجيء بمدرسين من طرابلس الغرب.

ولكن هذه الفترة لم تطل.

فما إن أطل شهر مايو من عام ١٩٤١ حتى عاد الأمهريون في ركاب البريطانيين وحدثت عدة ثورات تولت بريطانيا إخمادها بوحشية.

وانبعث من جديد عواء السلاسل، وفرقعة السياط، وعادت شهوة الانتقام والسيادة أعنف من ذي قبل، كأنما يستدركون الأيام التي فاتتهم إبان الاحتلال الإيطالي.

وانطلقت الكنائس معلنة لا عن التسامح والأخوة، بل عن الحق والكراهية. وبانطلاقها انطلقت كل الأشياء التي كانت تجعل من المسلمين عبيداً وخدماً.

فأزيحوا عن الوظائف التي كانوا يشغلونها، وسرح الجند منهم والشرطة، وصودرت الأملاك من جديد، حتى تلك التي وهبتها الحكومة الإيطالية عوضاً لمن لحقتهم خسائر مادية.

ولكم أن تتصوروا مدى البغضاء التي امتلأت بها نفس «هيلا سلاسي» حين رأى الجيش الذي هزمه في معركته ضد الإيطاليين (وكان معظمهم من المسلمين الطرابلسيين والصوماليين وغيرهم) . .

وهذا من الأسباب التي جعلته عازماً على استئصال شأفة الإسلام والمسلمين في الحبشة بأي ثمن، وذلك ما أشار إليه في الكونجرس الأمريكي متحدثاً عما زعمه أقلية مسلمة تعيش في الإقليم الجنوبي، وأنه وضع لها برنامجاً خاصاً.

وهنا ـ فقط ـ لم يتوخ الدقة في التاريخ، فبدلاً من اثني عشر عاماً كان أولى به أن يقول: خمسة عشر عاماً، وهو الوقت الذي تنازلت فيه الإدارة البريطانية له عن إدارة هذا الإقليم.

ومنذ ذلك الحين وضع خطة جديدة بدأها بالمصادرات الجماعية للأراضي التي كان الإيطاليون قد أعادوها إلى أصحابها الحقيقيين، ثم مطالبة ملاك الأراضي الصغار بضرائب السنين الخمس وما قبلها حتى عجز صغار الملاك عن الدفع، فاستولى عليها، ووزعها على عائلته، وهي بدورها بدأت تؤجرها بأجور مرتفعة للفلاحين.

ثم عزل سكان المدن عن الريف، وحرم على أهل المدن الانتقال إلى القرى إلا بإذن خاص، كما عزل المديريات بعضها عن بعض، وفرض قيوداً ثقيلة على التنقل بينها، ذلك إلى جانب الدعايات الكنسية ضد المسلمين، ويتحمل كل مسيحي تبعة حماية الدولة...

وبذلك أصبح لكل فرد منهم حق اتهام أي مسلم لأقل سبب وتقديمه للمحاكمة. وأي موظف لا يركع له المسلم في مكتبه حينما يدخل عليه يعتبر ذلك إهانة موجهة إلى السلطة العليا التي تمثل الذات الملكية، وجزاؤه أن يجلد ٤٥ جلدة - ربما لا يبقى حياً بعد عشرين منها - وأن يحبس مدة تتراوح بين سنتين وخمس سنين.

وأي كلمة يقولها المسلم يمكن أن تفسر تفسيراً سياسياً ضد الدولة، وتعتبر جريمة يعاقب عليها.

وبذلك تعرض المسلمون للون جديد من الإرهاب، أساسه

الظنة والاتهام. وإذا كان الحاكم والقاضي والشرطي وسائر الموظفين مسيحيين وجميع السلطات مسيحية فإلى أي مدى يمكن أن يتعرض المسلم للظلم؟.

وأي إجحاف واضطهاد يقعان عليه دون أن يملك رداً، أو يستطيع دفاعاً؟.

المحاكم دائماً ملأى بالمتهمين، والسجون غاصة بالمظلومين، وكثرتهم من المسلمين.

فهم دافعو الضرائب والغرامات، ومتحملو الخسارات، وهم الذين أرهقتهم الأثقال الجائرة، فعجزوا عن الدفع... فاستضافتهم السجون.

وما أسهل أن تنسب الحوادث التي ترتكب ولا يعرف فاعلها إلى المسلمين وهاكم حادثة وقعت سنة ١٩٤٦:

«في قرية صغيرة من قرى «كمبولتشا» إحدى المراكز شرقي العاصمة «هرر» وجد جندي أمهري قتيلاً.

فبعثت الحكومة كتيبة مؤلفة من مائتي رجل بكامل أسلحتهم، واقتحموا القرية ليلاً، وقتلوا منها أكثر من ثمانين شخصاً، منهم الشيخ والطفل والمرأة. وأحرقوا الأكواخ عن آخرها، ونهبوا المواشي، وزجوا بالعشرات في السجون وذلك كله قبل أن يتحروا عن الحادث.

وبعد مضي مدة تبين أن القاتل كان زميلاً للقتيل . . في فرقته نفسها اتهمه بعلاقته بامرأته .

وهكـذا ذهب أولئك المساكيـن ضحيـة الخيـانة والانتقام والحقد والكراهية .

هذا واحد من مئات الأمثلة التي حدثت ، ولا تزال تحدث في كل وقت ما دام هناك حاكم أمهري ، ومحكوم مسلم ، وما دام المسلمون يقرأون القرآن العربي .

ولقد كانت خلال هذه السنوات ثورات ضد هذا الظلـم ، ولكـن قوى الشر والاستعمار ، وأصحاب المصالـح تكتل ضدها ، فتخمدها . . .

ففي «جرسم» مثلاً ـ إحدى المديريات الهررية التسع ـ ثار الشيخ عبد القادر آدم ضد الضرائب الفادحة التي فرضت على هذه المديرية ، وضد الأوامر التي كانت تقضي بأن يخبز نساء المركز المسلمات جوالقاً من الدقيق كل أسبوع للمعسكر ويحملنه إليه .

وبعد أن دخل رجال الثورة الغابات للمقاومة جمعت الحكومة الشيوخ والأطفال والنساء في أكـواخ كل عشريـن أو ثلاثيـن منهم في كوخ . . ـ وهو يبنى عادةً من الحشيش أو القصب ، وسكبت عليها صفائح البنزين ، فأحرقت جميعاً بمن فيها . ! !

أما المواشي فقد أبيدت بالسم والرصاص .

وكـان هذا العمل انتقاماً من الـرجال الذيــن لجأوا إلــى الغابات .

ومن جهة أخرى لبثٍّ الرعب في القرى المجاورة .

وكانت هذه الأعمال تسير جنباً إلى جنب مع جميع أساليب الاضطهاد الوحشية ، سواء في المحاكم أو في السجون أو في المصالح الحكومية ، بل في المستشفيات ، والمراكز التبشيرية .

وللمبشر الأرثوذكسي ـ وهو الدين الرسمي للحكومة ـ حق مطالبة إعدام أي مسلم دون إبداء الأسباب أحياناً ، واتهامه بانتقاص الدين الرسمي أحياناً أخرى .

وهذه الأشياء لا تظهر في المدن بالطبع ، بل تتركز في القرى النائية البعيدة عن العمران ، ولهم في تكتم الأخبار ألف وسيلة ووسيلة .

وما إن أهلَّ عام سنة ١٩٤٨ ، وقد بلغ الظلم حداً بعيداً حتى هبت «هرر» تطالـب بحقوقها العادلـة ، ومساواة أهلها بالمسيحيين ، مما اعتبرته الحكومة وقاحة وخيانة .

فجـردت له ثلاثـة ألـوية من الجيش اقتحمـت المدينـة ، وأعملت فيها السلب والنهب والتعذيب .

واشترك معهم رجال الشرطة والمدنيون ـ وقـد رخص لهـم

باقتناء السلاح في هذه الحملة الإرهابية . .

فصودرت المتاجر والمدارس والمزارع ، وأقيمت محاكم للتطهير واعتقل الآلاف ، ووضعوا في معسكرات التعذيب .

وأخذت أوقاف المساجد وضمت إلى الكنائس، وأرسل الزعماء إلى مناطق نائية .

وكان التعذيب وحشياً لم يقتصر على إطفاء السجائر في الأجساد .

أو تعريض الناس للشمس اللافحة في حالة جوع وظمأ شديدين ، وقد وضعت على مقربة منهم براميل من الماء والطعام .

أو هتك الأعراض على مرأى من الأزواج والآباء . . أو العبث في ظهورهم بالسياط، بل تعداه إلى دق «خصيات الرجال» بأعقاب البنادق ، وإلى قذفهم بين أسلاك شائكة تمزق أجسادهم والجنود يتلذذون بذلك المنظر الوحشي .

واستخدمت كل وسائل العنف والتعذيب في الاستجواب .

واستمرت هذه الأعمال الفظيعة سبعة أشهر كاملة ، قتل فيها من قتل وهلك من هلك بسبب الجوع والبرد .

وفي تلك الأيام قدم وفد من مسلمي «هرر» إلى القاهرة ليعرضوا شكواهم على العالم الإسلامي ، فلم يجدوا سنداً ولا نصيراً ، والظروف لم تكن في صالحهم .

ومن يومها اعتبرت «هرر» منطقة مفتوحة لكل أنواع التبشير - ما عدا الإسلام إن كان هناك تبشير إسلامي - للتعجيل بتنصيرها .

وعين لها حاكم عسكري هو نفسه الذي كان يتولى التحقيق والتعذيب والاستجواب في تلك الحركة .

وفي «هرر» الآن البعثات البروتستانتينية والكاثوليكية ، وبرج المراقبة ، والأرثوذكسية والسويدية والمنهجية .

وخصصت مديرية «عروس» للتبشير الأرثوذكسي ، ولا يقربها أحد .

كما منح رجال الدين هناك - مع السلطات المحلية - حق الإجبار ، ومطاردة الأشخاص الخطرين (المشايخ) .

ونتيجة لهذه الموجة من الإرهاب والنهب اللذين حدثا في «هرر» قلت موارد الناس ، وهبطت حركة التجارة ، وكثر العاطلون ، وعجز الناس عن دفع ضريبة ، مما سهل للحكومة الاستيلاء على الممتلكات والمزارع .

وفي الوقت نفسه افتتحت بعض المدارس الأمهرية المسيحية ، وطلب إلى المسلمين أن يدخلوا أبناءهم فيها بعد أن أغلقت مدارسهم الخاصة .

ومن المعلوم أن المدرسين فئة منتقاة من الجزويت والهندوك المعروفين بميولهم العدائية نحو الإسلام .

وعليه فإن التحاق أبناء المسلمين بتلك المدارس نوع من الانتحار الديني والوطني، فضلاً عن البرنامج الذي يدرس، والمبثوث فيه كل ما من شأنه إهانة الإسلام والمسلمين.

والتعليم الديني إجباري.

وليس للمسلمين حق افتتاح مدارس خاصة بهم، كما أنه يحرم على أي هيئة أو طائفة إسلامية أن تزور أرضهم، أو أن تتصل بهم مثل ما فعل بالبعثة الأزهرية إذ منعت من الدخول إلى منطقة «هرر».

ومن الأساليب التي تلجأ إليها الحكومة لتقوية التبشير الأرثوذكسي أسلوب غريب.

هو إشاعة أن روح جبريل ظهر في دير صغير في قرية «قلبي» بوساطة القسيسين.

وهذه القرية تبعد حوالي ٤٥ كليومتراً من «هرر» وهي أشد مناطق «هرر» ازدحاماً بالريفيين السذج)، وأن هذا الروح طلب من المسيحيين من كل بقعة في الحبشة أن يجتمعوا سنوياً في هذا المكان، ويؤدوا اليمين المقدسة لنصرة المسيحية.

وأحيطت هذه الإشاعة بهالة من الخرافات وخوارق العادات التي عرضت لمن زار هذا المكان.

وكان أول من استجاب لهذا النداء هو الامبراطور نفسه مع

جميع أفراد عائلته ووزرائه، وقدم النذور والتبرعات.

وبذلك صار الذهاب إلى هذا المكان حجاً مقدساً، يفد إليه المسيحيون من كل أطراف الحبشة.

والهدف الذي يرمون إليه من وراء هذا العمل هو جعل هذا المكان أرضاً مقدسة يدافع عنها كل مسيحي ضد أي تحرر أو اضطراب من جانب المسلمين الذين تخصهم هذه الأرض، ثم استغلال العاطفة الدينية لجمع التبرعات التي تبلغ سنوياً ثلاثة ملايين من الدولارات مخصصة كلها للتبشير في مقاطعة «هرر».

ويستعرض القساوسة هناك النتائج أمام الوزراء والكبراء ورجال الحكم والعائلة المالكة.

ويقدمون من هداهم الله على أيديهم إلى الدين المسيحي - بحسب زعمهم - بين عاصفة من التصفيق وقراءة المزامير والموسيقى، وتطلق الأعيرة النارية ابتهاجاً بهذا النصر.

ويقوم الجيش باستعراض، ثم تقدم العطايا والبركات من الامبراطور أو أحد أعوانه لأولئك المرتدين، ثم توزع عليهم النياشين.

كل ذلك بغية التأثير على غيرهم من القرويين الذين يحيطون بهذا المكان.

ولا غرابة في أن يكون لها تأثيرها إذ كان المسلمون في تلك

النواحي متأخرين وقد أرهقتهم الضرائب والمطالب التي لا تنتهي من جانب الحكومة.

فهم - بذلك - يحاولون التخلص من الأثقال التي عليهم، ولا يدري بذلك أحد.

وليست «هرر» إلا صورة من الصور المنتشرة في جميع المقاطعات الإسلامية.

وما في (جمة) من الاضطهاد والظلم لو وزع وحده على إفريقية كلها لأصبحت أرض الجوع والدموع.

* * *

وقضايا جنوب السودان..؟ وقبرص، وأرتيريا، ونيجيريا..؟ وفلسطين؟ والصومال[1]؟..

كلها قضايا خلقها تعصب النصرانية على الإسلام، وتربص الصليبيين بالمسلمين للإيقاع بهم وعرقلة نهضتهم.. فإيقاف السودان لنشاط المبشرين الذي جاوز كل الحدود في جنوب بلاده.. أدى إلى إشعال نار الحرب والمطالبة بانفصال هذا الجزء من الوطن السوداني نتيجة لتدخل الدول الاستعمارية من أمريكان وغيرهم، ومساندتها للثوار مادياً وأدبياً، الأمر الذي كان زنوج أمريكا أولى به من المبشرين الأجانب في

(١) إسلام رائد: عبدالله كنون ص ٢٨ وما بعدها.

السودان. فإن هؤلاء لم يحق بهم من الظلم والحيف وفظائع التميز العنصري ما يحيق بأولئك، وغاية الأمر أن الدولة لما رأت تصرفاتهم تكاد تؤدي إلى قيام حكم أجنبي يتحدى الحكم الوطني، ضربت على أيديهم، فقامت قيامة حماتهم ودبرت تلك الثورة الرعناء.

وفي نيجيريا كان كافياً للإطاحة بحكامها المسلمين وبث الفتنة في شعبها الآمن أن يعلن أولئك الحكام عن شعورهم الإسلامي ويستنكروا إقامة دولة العصابات في قلب العالم العربي، وقد صارت بفعل الدسائس الاستعمارية الصليبية والصهيونية فريسة الفوضى وضحية الحقد لكونها أكبر دولة إسلامية في أفريقيا من حيث عدد سكانها المسلمين الذين يناهزون سبعين مليوناً. فلم يقنع خصوم الإسلام بما اجترموا فيها من آثام حتى صاروا يعملون على تقطيع أوصالها وتقسيمها إلى دويلات صغيرة يسهل القضاء عليها والتحكم فيها كلما قضت المصالح الاستعمارية بذلك. ولولا الموقف الحازم الذي وقفه رئيسها في وجه المتآمرين لبلغ الخصوم مناهم.

ولم لا يقسمون الحبشة، والحال أن المسلمين فيها أكثر من المسيحيين وما يعانونه من اضطهاد ديني وحرمان من أبسط الحقوق الدينية، يخول لهم بكل وجه أن يطالبوا بقيام دولة حبشية مسلمة منفصلة عن دولة أديس أبابا المسيحية المتعصبة، وعلى الأقل أن يتمتعوا بامتيازات سياسية نظير ما للمسيحيين في

البلاد العربية والإسلامية عموماً!!

إن الحبشة المدللة التي تحصل على أعظم حصة من المساعدة الأمريكية للدول النامية في أفريقيا تحمل شعار الصليب، ويعلق عليها الأمل في اكتساح الشعوب الصغيرة المسلمة التي بجوارها وضمهم إلى الأسرة المسيحية، ولذا فإن شعب أرتيريا المسلم ما كاد يحصل على حق تقرير مصيره من الأمم المتحدة حتى رأينا الحبشة تستتبعه بحكم تزوير عملية التصويت التي أشرفت عليها بريطانيا قبل الانسحاب من ذلك القطر.

وكذلك يقال في الصومال الذي اقتطعت أطراف منه وأضيفت إلى الحبشة وإلى كينيا، نكاية به، لأنه شعب مسلم، وينتمي إلى العروبة.

والمؤامرة التي دبرها الاستعمار على قطر جيبوتي منذ مدة قريبة يعرفها الجميع، فإن هذه المقاطعة من الصومال، ما كادت فرنسا تعترف لها بحق تقرير المصير، حتى هبت الحبشة للمطالبة بها متذرعة بأنها منفذها إلى البحر وأن مصالحها فيها تخول لها حق الإشراف عليها، وقام الامبراطور هيلا سلاسي برحلة طويلة إلى البلاد العربية، نعم (ويا للوقاحة) إلى البلاد العربية طمعاً في الحصول على تأييدها، وإلى فرنسا مراراً، مما اضطر بعض الأحزاب السياسية في جيبوتي لما رأى خطر

الاستيلاء الحبشي قد فغر فاه لابتلاعها، أن يصوت لصالح البقاء في حظيرة الوحدة الفرنسية.

إن الحبشة مدفوعة ولا شك من طرف الدول الاستعمارية الصليبية للعب دور خطير في القارة الأفريقية، فهي تنفذه بكل دقة، مستعينة بالدعم المادي الأوفر الذي تلقاه من تلك الدول، ومستغلة حسن نية الدول العربية والإسلامية الأفريقية، وسياسة التسامح التي تسلكها هذه الدول، والأمر يهدف إلى مناهضة الإسلام وانتشاره السريع في هذه القارة التي لا يريد لها الصليبيون المتعصبون أن تصبح قارة إسلامية خالصة. فإذا كانت آسيا على وجود أكبر الدول الإسلامية فيها لا تعتبر قارة إسلامية بسبب مكاثرة الديانات الأخرى من بوذية وهندوسية فيها للدين الإسلامي، وأوروبا وأمريكا لا جدال في أنهما قارتان مسيحيتان، فإن القارة المرشحة لأن تكون قارة إسلامية هي أفريقيا التي يعتنق الإسلام فيها أكثر من ثلثي سكانها، ولا يزال الإسلام يتقدم فيها بخطى ثابتة لإدخال الثلث الباقي من سكانها الوثنيين في حظيرته... إذا كان هذا الأمر حقيقة ثابتة فيجب أن يوضع في طريقه كل العراقيل ويقاوم بجميع وسائل المقاومة.

وليس من ينتدب للقيام بهذه المهمة غير الحبشة التي تعد رسمياً دولة مسيحية، وهي عريقة في ذلك ليست مثل بعض الدول الناشئة التي فرضت عليها حكومات أو رؤساء مسيحيون، والتي هي من صنع الاستعمار، فإن الأفارقة لا يمكن أن

يخضعوا لها ولا أن يولوها ثقتهم، وهكذا وضعت الحبشة على رأس منظمة الوحدة الأفريقية وجعلت عاصمتها أديس أبابا مقر هذه المنظمة لتعزيز السيطرة والنفوذ، تماماً كما في جعل مقر الأمم المتحدة بأمريكا التي أصبحت تسيطر عليها وتتحكم في مقرراتها على ما هو مشاهد، حتى إن ذلك ليدعو بعض الدول المتحررة إلى المطالبة بنقل هذا المقر إلى دولة محايدة.

والمقصود على كل حال أن يرى الأفارقة أن السيطرة والنفوذ مقصوران على الدول المسيحية، وإنهم إن خرجوا من حصار الاستعمار، فلا مندوحة لهم من البقاء في قبضة المسيحيين أهل النفوذ والسيطرة على العالم، وليس أدل على هذه الحقيقة من موقف الحبشة من حرب العدوان الصهيوني على البلاد العربية.

هذا بعض ما يمكن أن يقال في قضايا أرتيريا والصومال والحبشة ومخططات الاستعمار والصليبية بإزاء مسلميها.

وأما قبرص فإن الحرب الإبادية التي يقوم بها المسيحيون اليونان هناك ضد الأتراك المسلمين، الذين هم من أقدم سكانها والذين كانوا حكامها فيما سبق، إن هذه الحرب يناصرها كلٌ من دول الشرق والغرب المسيحية، ويتضامن فيها للأسف بعض الدول الإسلامية مع المسيحيين، وبقطع النظر عن هذا التضامن، فإن الغاية من تلك الحرب معروفة، وهي القضاء على العنصر الإسلامي في الجزيرة بإبادته أو باضطراره إلى الهجرة.

هل تصدقون هذه القصة عن الملكة إليزابيت الثانية؟ أعني ملكة بريطانيا وأستراليا وسائر أقطار الكومونولث.

إنني أحترم هذه الملكة.. بل إنني أحترم النظام الملكي في أوروبا كلها.. إن هذا النظام في حقيقته قريب من القيم الإسلامية العريقة...، ولكن هذا لا يمنعني من رواية هذه القصة:

عندما تقرر أن تجرى مباراة في الملاكمة بين البطل المسلم محمد على كلاي وبين البطل الإنجليزي «كولبير».. استدعت الملكة إليزابيت كولبير هذا، وأقامت له مأدبة غداء احتفاء به وتشجيعاً له على منازلة كلاي، وأعربت له عن رغبتها في هزيمة خصمه، وما ذلك إلا لأن كلاي مسلم يحمل اسم محمد ويعتز بدينه ويرى أن انتصاراته في معاركه الكاسحة إنما هو من بركة الدين الإسلامي ومزاولته لشعائره وخاصة الصلاة بإيمان وإخلاص.

إنه لم يسبق أن استدعت ملكة بريطانيا العظمى لتناول الغذاء على مائدتها في مثل هذه المناسبة بطلاً رياضياً مهما كان شأنه، وتعبر له عن رغبتها في انتصاره على خصمه، ولذلك فهم الناس من هذا الاهتمام أن شعورها الديني كان غالباً عليها في هذه الحالة، وأنها إنما تصرفت بحسب إيحائه، وهي معذورة في ذلك لأنها بحكم الدستور رئيسة الكنيسة، وحامية حمى المسيحية...!!!

● السيدة ليندا Linda :

يبدو وكأن السلام حلم . . . وأن «جنون» الحرب أقوى من «حكمة» العقلاء ودعاة السلم؟ . .

*   *   *

ومتى تحقق هذا السلم؟ ثم كيف يتحقق إذا كانت العلاقات بين الأمم والشعوب قائمة على العدوان والظلم . . . إن العالم يندفع بسرعة إلى الهاوية كما يقول «أينشتاين» أما لماذا فلأن «القوة» هي العقل الذي أصبح يفكر به القادة، ولأن «الضمير» لم يعد له وجود في قلوب الحكام والسادة . . . ! !

هل تعرفون كم مات في الحرب العالمية الأولى؟

لقد قتل حوالي ١٠ عشرة ملايين في هذه الحرب؟ وهل تعرفون : كم مات في الحرب العالمية الثانية؟ لقد قتل حوالي ٧٠ سبعين مليوناً في هذه الحرب؟

وهل تعرفون كم مات في محاكم التفتيش؟ لقد قتل وذبح وحرق حوالي ١٢ اثني عشر مليوناً بلا جريرة ولا ذنب .

وهل تعرفون كم قتل في حروب إقليمية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية؟

لقد قتل حوالي ٢١ واحد وعشرين مليوناً في شتى أنحاء الأرض . .

وأخيراً هل تعرفون كم قتل أو استشهد في غزوات النبي . . . ؟

إن عدد الشهداء والقتلى لم يتجاوز ١٠١٨ ألفاً وثمانية عشر رجلاً من جيش المسلمين وجيش العدو.

السيد فوكس Fox :

لا تنسى أبداً أنك مسلم . . ! !

*   *   *

نعم . . أيها السيد فوكس ! ! غير أن ذلك لا يعني شماتة بالغير، أو تمني الضرر لذلك الغير . . فالمسلم كما يريد الإسلام خير كله . . . خير لنفسه . . وخير لغيره . . . فخير الناس أنفعهم للناس كما يقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

أذكر أنني قمت بمهمة إلى الصحراء الغربية في عام ١٩٦٠ . . . هذه الصحراء التي كانت ميداناً لحروب طاحنة بين الحلفاء ـ بقيادة الفيلد مارشال مونتجومري ـ وبين الألمان بقيادة الفيلد مارشال روميل .

كانت إقامتي في مدينة «مرسى مطروح» . . وهي مدينة صغيرة لم يكن يتجاوز عدد سكانها ـ أثناء هذه الزيارة ـ بضعة ألوف أكثرهم من البدو.

لقد فوجئت بمدفع كبير محطم على ساحل البحر . . كما

فوجئت ببقايا سفينة حربية تبدو مقدمتها حين ينحسر الموج . .

لقد اهتاجت نفسي بمشاعر جياشة ، وبدأت أسأل هذا المدفع ككائن حي أنتظر منه الإجابة . . !

من جاء بك؟ ومن ألقى بالقنابل عليك؟ وكم مات حولك من الجند قبل أن تموت أنت . . !! وهل دفنوا بجوارك أم جرفهم الموج إلى البحر؟ وهل بقي من دمائهم شيء؟ أم جفت هذه الدماء وتبخرت في الجو . . ؟!!

* * *

إن المسلم وغير المسلم سواء في حق الحياة والعدل . . غير أن ذلك لا يجب أن ينسينا الواقع الذي تمارس فيه هذه الحياة وهذا العدل . .

لقد قتل في «هيروشيما» و «نجازاكي» أكثر من ثلاثمائة ألف . . ومن بقي على قيد الحياة بقي في انتظار الموت الذي لم ينج منه كائن حي . !

في مجلة تايم Time وعلى صفحتها الأولى من الغلاف كانت أول كلمة نطق بها الكابتن «روبرت لويس» Robert Lewis بعد إلقاء القنبلة الذرية على مدينة «هيروشيما» Hiroshima في السادس من شهر أغسطس ١٩٤٥ م .

كانت أول كلمة قالها ذلك الضابط: My God What Have We Done?

يا إلَهي . . ما هذا الذي فعلنا؟!

إن ما حدث كان شيئاً رهيباً . . ومفزعاً . . وكما يقول شاعر ياباني كان في الحادية عشرة من عمره عند وقوع هذه الكارثة :

كان يوماً قاتماً دميم الوجه . . ! كل شيء فيه أسود كلون اليأس . . . !!

السماء والناس والأرض . .

حتى الخضرة . .

كساها لون من السواد الداكن . . .

لقد أصبح النصر بعيداً . . بل مستحيلاً . .

وفجأة . .

في اليوم السادس من أغسطس . .

اشتعلت السماء بوهج أصفر برتقالي اللون . .

لقد بدأت النهاية . .

واحترق كل شيء فوق اليابسة . . .

لقد انتصر الشيطان في معركته الأخيرة . . !!!

* * *

في زيارة قمت بها إلى لندن . . . احتبسني المطر في الفندق . . . لم تكن القراءة ممكنة . . . كما لم تكن نفسي مهيأة لهذه القراءة ، وبلمسة أصبع . . بدأ التلفزيون يبث برامجه من خلال القناة الرابعة . . .

كان أول ما وقعت عليه عيناي من خلال الشاشة سؤال ينضح كآبة ووحشة . . . سنحيا أم سنموت؟ Shall We Pass or Shall We Die? ماذا يجري في هذه الدنيا؟ هل عاد هتلر إلى الحياة مرة ثانية؟ أم بدأت الحرب العالمية الثالثة؟ ثم ماذا يعني هذا السؤال المثير للكآبة والوحشة؟

لقد كان هذا السؤال عنواناً لفيلم تسجيلي عن قنبلية هيروشيما ونجازاكي . . . لم يكن هذا الفيلم تمثيلاً . . بل كان حقيقة وواقعاً . .

فمنذ اللحظة الأولى لتحرك الطائرات القاذفة . . والكاميرا تسجل ذلك خطوة . . خطوة . . لقد تصورت أن هذه الطائرات ستلقي بحمولتها فوق الفندق . وتوقعت انفجاراً نووياً في قلب لندن . . !

نموت أو نحيا؟ هذا هو السؤال الذي يشغل العالم كله . . . وللعالم ـ بحق ـ أن يعرف هذا المصير الذي ينتظره .

إن ما يبلغ مجموعه ٥٠,٠٠٠ خمسين ألف قنبلة ذرية يوجد في مخازن الدول الكبرى . . . إن هذا المخزون يكفي لتدمير العالم أربع مرات ونصف مرة . . وإن نصيب كل فرد في العالم من هذه الأسلحة هو أربعة أطنان من الديناميت والمواد الناسفة ! !

وهذه الحرب النووية قد تشتعل فجأة . . . ومهما قيل عن

الاحتياطات التي اتخذت لمنع وقوع الكارثة . فالكل يعلن ويؤكد احتمال وقوع هذه الحرب في أية لحظة .

فهل من الممكن حقاً أن تنشب هذه الحرب فجأة؟ والجواب : نعم . وقد كادت هذه الحرب تنشب بسبب إنذارات كاذبة . . . وقد تكرر هذا أكثر من مرة . . . ولسوف يتكرر هذا الخطأ مهما تكن الاحتياطات التي تتخذ لمنع وقوع هذه الكارثة . . .

وفي هذا التقرير الذي كتبه الدكتور «فرانك برنابي» المدير السابق لمعهد «الأبحاث الدولية للسلام» في ستكهولم ، وصف تفصيلي لهذه الاحتمالات العفوية التي يمكن أن تنشأ بسببها هذه الحرب ، وقد اختار الدكتور فرانك ـ لتأكيد فكرته ـ ما يمكن أن يحدث في داخل غواصة نووية تعبر المحيطات من الشرق إلى الغرب .

وقد اختار بارنابي أن يبدأ السيناريو الذي وضعه للحرب من على متن غواصة نووية أمريكية نظراً إلى تمتعها باستقلالية تامة في إطلاق صواريخها الحاملة للرؤوس النووية .

ويتساءل بارنابي في مقدمة السيناريو عن مدى السهولة التي تتيح لأحد أفراد طاقم الغواصات الاستراتيجية النووية إطلاق صواريخها سواء بمفرده ، أو بالتآمر مع الآخرين ، من دون الرجوع إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، أو تلقي أمر

مباشر منه. أي هل بإمكان رجل مجنون، أو متطرف، سواء بمفرده، أو بالاشتراك مع آخرين، أن يشعل حرباً نووية بمبادرة شخصية منه؟

● لقد قام بارنابي بطرح هذه الأسئلة على الكابتن جيمس بوش من البحرية الأمريكية الذي كان قبل تقاعده من الخدمة العسكرية قائداً لإحدى مثل هذه الغواصات، التي تدعى «سيمون بوليفار».

● يقول الكابتن بوش أن المهم في الأمر هو أن «الحائل الوحيد الذي يمنع قائد الغواصة من إطلاق صواريخه، هو حائل إداري فقط إذ لا توجد أية موانع ميكانيكية تمنعه من تنفيذ ذلك إذا أراد».

● والإجراءات المتبعة للإطلاق أثناء الحرب تبدأ برسالة موجهة من القيادة المركزية إلى الغواصة تقول فيها: «أطلقوا صواريخكم»، وتكون الرسالة مذيلة بالشيفرة الخاصة بذلك.

ويتلقى عامل الراديو ـ الذي يجلس عادة وحيداً في غرفة صغيرة معزولة ـ الرسالة، وهذا الشخص هو الوحيد من بين سائر أفراد طاقم الغواصة الذي يتلقى مثل هذه الرسالة، فيقوم فوراً بإبلاغ مضمونها إلى الضابط المناوب بقوله: «لدينا رسالة بالإطلاق».

فيجري عندئذٍ إرسال ضابطين إلى غرفة اللاسلكي للتحقق

من الأمر، أي من استلام مثل هذه الرسالة فعلاً، ومن الشيفرة الخاصة بها، ولا يتطلب مثل هذا الإجراء الرسمي قيام الكابتن ذاته بالتوجه إلى عامل اللاسلكي للتحقق بنفسه من الرسالة. لكن الكابتن بوش يعتقد أن معظم قادة الغواصات سيتوجهون في مثل هذه الحالة إلى عامل الراديو للتأكد شخصياً من هذا الأمر العظيم الذي قد يتضمن في طياته القضاء في النهاية على الجنس البشري على كوكب الأرض.

ولدى كل من الضابطين اللذين تحققا من الرسالة مفتاح لفتح خزانة صغيرة مستقلة خاصة بكل منهما تحتوي على كتب الشيفرة اللازمة، ويقوم الضابطان بمقارنة إشارة الشيفرة الواردة في الرسالة مع الشيفرة الموجودة في هذه الكتب، والتي تتغير باستمرار مع كل يوم من أيام السنة.

وبعد قيام هذين الضابطين بإبلاغ الغواصة أنهما تيقنا من صحة الشيفرة، تبدأ فوراً عملية الإطلاق. إذ يقوم القائد بإذاعة بلاغ مقتضب على بحارته عبر المذياع الداخلي يخبرهم فيه أنهم أصبحوا الآن في حالة حرب، وأن صواريخ الغواصة باتت في طريقها الآن إلى الانطلاق، ويقوم ضابط الصواريخ في غرفة المراقبة الخاصة بذلك بتشغيل مفتاح خاص لإعداد الصواريخ للإطلاق. عندئذٍ يدير ثلاثة ضباط، كل في قمرته الخاصة، وهم ضابط الإطلاق، وضابط الملاحة، والضابط التنفيذي، مفاتيحهم الخاصة عندما يصبحون مستعدين بدورهم

للإطلاق، ومثل هذه العمليات المتعاقبة من قبل الضباط الأربعة ليست تصويتاً حول ما إذا كان يتوجب إطلاق الصواريخ أم لا، بل إنها مجرد إشارات فقط تؤكد على أن الصواريخ أصبحت جاهزة للانطلاق.

● وأخيراً، وبعد إدارة هذه المفاتيح الأربعة، يقوم القائد بإدارة المفتاح الأخير كي تنطلق هذه «الطيور» العملاقة وسط عاصفة من الصوت والضجيج إلى أهدافها المشؤومة. ومفتاح القائد ليس مفتاحاً كهربائياً كسائر المفاتيح الأخرى، بل إنه عبارة عن قطعة معدنية يتوجب إدخالها في شق صغير وإدارتها.

● وإطلاق مثل هذه «الطيور» من غواصة نووية استراتيجية ليس إجراءاً هائلاً عظيم المسؤولية فحسب، بل إنه عمل أقل ما يقال عنه أنه يحمل في طياته الموت والدمار إلى جزء كبير من العالم. إذ إن بمقدور غواصة واحدة من هذا النوع حمل ١٦٠ رأساً نووياً (بمعدل عشرة رؤوس لكل صاروخ) إلى ١٦٠ هدفاً مختلفاً، وهو أمر كاف بحد ذاته لإزالة كل مدن الاتحاد السوفيتي من الوجود ـ التي يزيد عدد سكان الواحدة منها عن ٢٠٠ ألف نسمة. وبالطبع فإن بمقدور أي غواصة سوفيتية من طراز مشابه إلحاق الدمار ذاته في الولايات المتحدة الأمريكية.

* * *

إن الوصف السابق ذكره هو في ما يتعلق بإطلاق نووي مصرح به من قبل القيادة السياسية العليا.

● ولكن ماذا عن «عملية إطلاق» غير مصرح بها؟؟

الكابتن بوش يقول إن هذا ممكن بالطبع، إذا ما تآمر عامل اللاسلكي بالغواصة، والضابطان اللذان أرسلا إليه للتحقق من مضمون الرسالة، والقبطان (قائد الغواصة). كما أن ذلك ممكن أيضاً إذا تآمر القبطان مع عامل اللاسلكي. إذ بإمكان الأخير أن يزعم أمام الضابط المناوب أنه تلقى رسالة بالإطلاق في الوقت الذي يقوم القبطان بالتصدي للضابطين المتوجهين لغرفة اللاسلكي للتحقق من الأمر وإبلاغهما أنه قام لتوه بالتحقق شخصياً من صحة الرسالة، وأنه لا ضرورة مطلقاً بالتالي لـ «إزعاج خاطرهما»، والتأكد بنفسهما من ذلك.

فإذا كان هذان الضابطان من النوع الذي لا يحب الجدال ومناقشة رئيسه (والكثير من الضباط هم من هذا النوع)، فإن بإمكان قائد الغواصة الإطلاق دون الرجوع إلى أحد.

● وعلى الصعيد النظري فإن بمقدور عامل اللاسلكي القيام بذلك بمفرده. إذ بإمكانه إقناع القبطان أنه سمع على الراديو أن حرباً نووية قد نشبت، وأن الولايات المتحدة قد تعرضت إلى هجوم بالأسلحة النووية، وأن القيادة المركزية قد دمرت عن بكرة أبيها قبل أن تسنح لها الفرصة لبث رسالة إلى الغواصات النووية المنتشرة في محيطات العالم وبحاره. فإذا ما صدق القبطان هذه الرسالة، فإنه قد يقرر إطلاق صواريخه، لأن مهمة غواصته في النهاية، الانتقام من الاتحاد السوفيتي إذا

ما بادر هذا الأخير إلى شن هجوم على الولايات المتحدة.

وإذا كان مثل هذا السيناريو الأخير بعيد الاحتمال، فإن الأكثر احتمالاً هو قيام عامل اللاسلكي والقبطان بالتآمر سوية وإقناع بحارة الغواصة أن الولايات المتحدة قد دمرت كلياً أو جزئياً بفعل هجوم نووي سوفيتي، وأن واجبهم بالتالي الرد على الهجوم عن طريق إطلاق صواريخ الغواصة. ومثل هذا السيناريو، استناداً إلى الكابتن بوش، هو الأكثر مصداقية، إذا ما جرى في ظل ظروف خاصة، كحصول أزمة دولية كبيرة، وفشل المحاولات المتكررة لنزع فتيلها.

● والقوة النووية الأمريكية تدير نحو ١٠٠ غواصة استراتيجية مسلحة بالصواريخ ذات الرؤوس الذرية، وكمعدل عام هناك نحو ٤٠ غواصة منها منتشرة بصفة دائمة في بحار العالم ومحيطاته وجاهزة للحرب في أي لحظة، ومثل هذا الوضع الذي يواكبه احتمال قيام القبطان وعامل اللاسلكي في إحدى هذه الغواصات الأربعين بالتآمر سوية للبدء بسلسلة من الأحداث التي قد تؤدي إلى تدمير نصف الكرة الشمالية من الأرض عن بكرة أبيها على أقل تقدير، هو أمر بدأ يقلق الكثير من الدوائر السياسية والعسكرية المسؤولة.

● ومما يزيد الوضع خطورة، هو أن الغواصات الحاملة للصواريخ النووية تعتبر السلاح الثاني في القوة الضاربة الأمريكية على الصعيد الاستراتيجي، وبالتالي فقد يستدعي

الأمر في حالة تدمير السلاح الاستراتيجي الأول من جراء هجوم مباغت الطلب من الغواصات إطلاق كافة صواريخها على عجل من دون المرور في كافة المسائل والاعتبارات الروتينية التي تسبق ذلك، والتي هدفها التحقق من صحة أي هجوم.

● ولزيادة البلبلة فإنه من المحتمل أن يقطع أي هجوم نووي مهما كان صغيراً أو محدوداً الاتصالات اللاسلكية فترة من الزمن بسبب النبضات الكهرا ـ مغناطيسية التي ترافقه، وهذا سيجعل الغواصات معزولة عن قيادتها فترة حرجة من الوقت، وبالتالي عرضة للتصرف على هواها، من دون الرجوع إلى أي سلطة، مما يترك المجال واسعاً أمام قائد الغواصة لإطلاق صواريخ الدمار والموت[١].

● وفي تقرير اشتركت في إعداده مجموعة من الهيئات الأمريكية الخاصة أن العالم ينفق ١,٣ مليون دولار كل دقيقة للأغراض العسكرية في حين يموت ٤٠ طفلاً كل دقيقة في العالم بسبب الجوع وعدم الحصول على الرعاية الصحية الكافية، وحذر التقرير من أن المخزون العالمي من الأسلحة النووية تصل قدرته التدميرية إلى ٥ آلاف أضعاف حجم الذخيرة التي استخدمت خلال الحرب العالمية الثانية.

وأوضح التقرير الذي أعدته «روث ليجرسيفارد» تحت

---

(١) نشر هذا التقرير في مجلة «المجلة» التي تصدر في لندن ـ العدد ٢٤٥.

إشراف مجموعة من الهيئات الخاصة منها اتحاد «ضبط سباق التسلح» ومؤسسة روكفلر وتضمن المقارنة بين الإنفاق العالمي على التسليح والإنفاق على البرامج الاجتماعية أن سباق التسلح العالمي يتجاوز حدود الواقع ويعد حالياً عاملاً حاسماً يكاد يزيد على الإنفاق على البرامج الاجتماعية في كافة الدول.

وأكدت «روث سيفارد» في تقريرها أن تكلفة إنتاج غواصة نووية جديدة يساوي ميزانية التعليم السنوي لحوالي ٢٣ دولة نامية يوجد بها أكثر من ١٦٠ مليون طفل في سن التعليم وأنه في الوقت الذي تدفع فيه الحكومة الأمريكية تعويضات سنوية للمزارعين للتوقف عن زراعة مليون فدان يعاني ٤٥٠ مليون شخص في العالم من الجوع.

وشمل التقرير عدة إحصاءات أخرى تشير إلى أن العالم ينفق ٨٦٠ مليار دولار سنوياً على التسليح وهناك ٢٥ مليون شخص يشكلون الجيوش النظامية في دول العالم بالإضافة إلى عدد يصل إلى ٥٠ ألفاً من الأسلحة النووية.

* * *

العالم ينفق على التسليح كل دقيقة ١,٣٠٠,٠٠٠ مليوناً وثلاثمائة ألف دولار. في الوقت الذي يموت فيه حوالي ٥٨ ثمانية وخمسين ألف طفل كل يوم، وكما يقول جيمس جرانت James Grant الرئيس السابق لمنظمة اليونيسيف Unicef عندما يموت هذا العدد من الأطفال كل يوم.. فإن ذلك يعني سقوط

قنبلة ذرية على العالم كل ثلاثة أشهر.

ومن العجيب والغريب معاً... أنه في الوقت الذي تتفاقم فيه مأساة هؤلاء الجياع كل يوم يوجد فائض من الإنتاج الزراعي والحيواني في أوروبا وأميركا يكفي لإطعام أضعاف هؤلاء الجياع في كل الدنيا.. ولكن هذا الفائض يعدم ويحرق بدلاً من شحنه لإنقاذ هؤلاء الجياع في آسيا وأفريقيا.

إن الدول الكبرى كما يقول: «فيلي برانت» المستشار الألماني السابق تدفع العالم إلى كارثة محققة، وأن الحل أو الوسيلة لإقامة سلام عالمي تكمن في تحقيق تنمية اقتصادية عادلة، وإيقاف سباق التسلح الذي سيقود العالم إلى هذه الكارثة..

* * *

وداعاً للسلاح!!!! إنه الاسم الذي اختاره «أرنست همنجواي» لروايته الشهيرة غير أن هذا السلاح قد تضاعف خطره وتفاقم... ولهذا مات «همنجواي» منتحراً قبل أن يشاهد بعينيه انتحار هذا العالم!!!

ومن قبل «همنجواي» أصدر «اللورد برتراند راسل».. و.. «ألبرت أينشتاين» تحذيراً إلى دول العالم من هذه الحرب.. وهو ما عرف بعد ذلك ببيان «أينشتاين ـ راسل»..
وقد وقع «أينشتاين» على هذا البيان قبل يومين من وفاته بضغط من اللورد....؟!!!

ويقول هذا البيان الذي وقعه أينشتاين وراسل :

«أمام الوضع المفجع الذي يواجه البشرية فإننا نشعر أن على العلماء أن يجتمعوا في مؤتمر ليوضحوا الأخطار التي نجمت عن تطوير الأسلحة بقصد الدمار الجماعي وليبحثوا في إصدار قرار عن ورقة المسودة المرفقة».

«ونحن نتحدث في هذه المناسبة ليس بوصفنا أفراداً من هذه الأمة أو تلك أو من قارة بعينها أو جنس بعينه، ولكن كبشر من نسل الإنسان الذي يقف مصيره في الوجود موقف الشك. والعالم زاخر بالصراعات وهي إذ تخفي وراءها كل الصراعات الصغيرة، يبدو الصراع الجبار بين الشيوعية ومناهضي الشيوعية.

«ونحن سنحاول ألا نقول كلمة واحدة نهيب بها بمجموعة دون أخرى فالكل متساوون في مواجهة الخطر، وإذا أمكن تفهم هذا الخطر فإن هناك أملاً في أن يتضامن الجميع في تفاديه . . .

« . . . والواقع أن أفضل السلطات مجمعة على القول بأن حرباً بالقنبلة الهيدروجينية من الممكن أن تضع نهاية للجنس البشري، والذي نخشاه أنه إذا استخدمت أي قنبلة هيدروجينية فإنه سيحدث بعدها موت جماعي عالمي . . .

«وإلغاء الحروب يتطلب أمراً كريهاً هو الحد من السيادة

القومية». ومع أن اتفاقاً لاستنكار الأسلحة النووية بوصفه جزءاً من خطة عامة لخفض الأسلحة قد لا يؤدي إلى حل نهائي إلا أن ذلك قد يخدم بعض الأهداف الهامة.

القرار: «نحن ندعو هذا المؤتمر، وعلماء العالم والرأي العام عن طريقه، أن يوافقوا على القرار التالي :

نظراً إلى الحقيقة في أي حرب عالمية قد تنشب في المستقبل فإن من المؤكد أن تستخدم فيها الأسلحة النووية، ومن حيث أن مثل هذه الأسلحة يهدد استمرار البشر في الحياة فإنا نحث حكومات العالم أن تدرك، وأن تعترف علناً، بأن أهدافها ومراميها لا يمكن أن تتحقق عن طريق حرب عالمية، ونحن نحثها تبعاً لذلك على أن تجد الوسائل السلمية لتسوية كل الصراعات القائمة بينها».

وقد أذيع هذا البيان لأول مرة في الجمعية العالمية للبرلمانيين من أجل حكومة عالمية الذي دعا إليه راسل وانعقد فعلاً بلندن عام ١٩٥٥، وكان هذا بداية لكل المحادثات التي جرت حول نزع السلاح والدعاية لتجميد النواة وإذاعة برامج تلفزيونية عن أهوال الحرب النووية من قبل رجل **كان قد اقترح هو نفسه منذ سبع سنوات مضت إنزال ضربة قاضية نووية على نطاق واسع ضد السوفيت ما لم يوافقوا على الاستسلام لامبراطورية العالم الأنجلو سكسوني؟!!**.

* * *

وبعد . . . وقبل أن ينصرف هذا الجمع وينفض ! !

أعيد توجيه السؤال الذي وجهه السيد جراهام Graham من قبل .

هل الإسلام دين سلام أم حرب . . ؟

وهل يعتمد في دعوته على الإقناع أم الإكراه والضغط؟

أراكم ملتزمين بالصمت . . والصمت . . علامة الرضا والقبول ـ عند طلب الزواج ـ من الفتاة البكر . . ! !

لقد ضحك الجميع بصوت مرتفع . . . والتقت العيون بالعيون في حياء غير مألوف ولا معروف بهذا المجتمع . . . !

إنهم قوم بسطاء . . بسطاء حقاً . . وضحايا فعلاً . .

ضحايا المناهج «العنصرية» في معاهد العلم . . .

وضحايا «الأوكار الخفية» في دواوين الحكم . . .

وضحايا الكنيسة وكراهيتها للإسلام منذ ظهر الإسلام وحتى هذا اليوم . . ؟ ! !

* * *

أما لماذا هذا التحامل والكراهية للإسلام كما تسأل الآنسة «روث» Ruth . . . فلأن الإسلام هو «المستقبل» . . هو «الأمل» بعد أن فقدت الإنسانية هذا «الأمل» ، وبعد أن فشلت كل النظريات والأيديولجيات التي جعلت من حياتنا جحيماً لا يطاق ولا يحتمل . . .

يؤكد ذلك . ما كتبه المستشرق الألماني «باول شمتز» في كتاب ألفه وسماه «الإسلام قوة الغد» ! !

يقول هذا المستشرق : إن التاريخ سيعيد نفسه مبتدئاً من الشرق عوداً على بدء من المنطقة التي قامت فيها القوة العالمية الإسلامية في الصدر الأول للإسلام ، وستظهر هذه القوة التي تكمن في تماسك الإسلام ووحدته العسكرية ، وستثبت هذه القوة وجودها . إذا ما أدرك المسلمون فعالية هذه القوة[1] والاستفادة منها . . .

وقد وصف ذلك شاعر الإسلام العظيم محمد إقبال في قصيدته الرائعة «برلمان إبليس» حيث قال :

إن إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى ، وتباحثوا في شؤون العالم ، وأخطار الغد ، وما يتهدد مملكة الفساد والشر فقال أحد الشياطين :

إن الخطر على هذه المملكة الشيطانية من الحكم الجمهوري . .

فقال شيطان آخر : لا يهولنك أمرها ، إنها ليست إلا غطاء للملوكية ونحن الذين كسونا الملوكية هذا الغطاء إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته وخفنا ثورة على نظامنا

---

(١) الإسلام قوة الغد . ترجمة د/ محمد شامة .

فألهيناه بلعبة الجمهورية. أما رأيت نظام الغرب الجمهوري له وجه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيز خان. !!

فقال شيطان آخر: لا. لا. إن الخطر يتهدد مملكتنا من الشيوعية هل عندكم نبأ هذه الفتنة التي أثارها ضدنا اليهودي كارل ماركس؟ لقد أثار العبيد على السادة حتى تزعزعت مباني الإمارة والسيادة..

فقال إبليس معترضاً على أعوانه مهدئاً:

إني أملك زمام العالم وأتصرف فيه كيف أشاء..

إني لا أخاف هؤلاء ولا هؤلاء إني أخاف فقط من أمة لا تزال شرارة الحياة فيها كامنة، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم سَحَراً.

إن الإسلام هو فتنة الغد، وداهية المستقبل. ليست الشيوعية ولا الجمهورية.

وأنا أعلم أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً.

وإنها شغفت بالمال وفتنت بجمعه.

أنا خبير بأن ليل الشرق داج مكفهر وأن علماء الإسلام وشيوخه لم تعد لهم تلك اليد البيضاء التي تشرق بها الظلماء، وتضيء بها العالم.

ولكني أخاف أن قوارع الدهر ستقض مضجعها وتوقظ هذه الأمة.

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس.

اضربوا على أذان المسلم فإنه يستطيع أن يبطل سحرنا بأذانه وتكبيره..

يا ويلتنا وشقوتنا إذا انتبهت هذه الأمة ودبت فيها الحياة[1]...!!!

* * *

ترى هل أقنعك ذلك يا آنسة روث Ruth ؟

لكن لا بأس من الإدلاء بشهادة أخرى، وهي - أي هذه الشهادة - تأتي هذه المرة من فرنسا.. وعلى لسان رجل يحفظ اسمه كل مثقف في أوروبا... أتدرون من يكون هذا الرجل؟ إنه «فولتير» الذي طبقت شهرته آفاق هذه الدنيا.. والذي أصدر البابا قراراً بحرمانه كما حدث مثل ذلك مع «تولستوي» في روسيا..

يقول فولتير:

أيها الأساقفة والرهبان والقسس..!!!!

أكرر لكم القول أيها الجهلة الأغبياء.. الذين غرر بهم جهلة أغبياء، وأفهموكم أن عقيدة محمد عقيدة لذات وجنس... في حين أنه أبعد ما يكون عن هذا الوصف.

---

(١) روائع إقبال: ترجمة العلامة أبو الحسن الندوي.

لقد خدعتم في هذا الفهم.. كما خدع أباؤكم من قبل...

أيها الأساقفة والرهبان والقسس..!!

إذا فرض عليكم قانون يحرم عليكم تناول الطعام من الرابعة صباحاً.. وحتى العاشرة مساءً... وفي شهر يوليو القائظ... عندما يجيء الصيام في هذا الشهر.

وإذا حرم عليكم لعب الميسر، وإلا لحقت بكم لعنة الله...

وإذا حرم عليكم شرب الخمر تحت التهديد بالجزاء نفسه..

وإذا فرض عليكم الحج في صحراء محرقة..

وإذا فرض عليكم إخراج اثنين ونصف في المائة من أموالكم للفقراء..

وإذا كنتم تتمتعون بثماني عشرة زوجة فجاء من يحذف أربع عشرة زوجة من هذا العدد..

هل يمكنكم الإدعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذات وجنس...

أو شريعة حرب وسيف؟..

* * *

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون..

فإنكم كالقبور المطلية.. تبدو جميلة من الخارج...

ولكنها من الداخل ممتلئة بعظام الموتى وكل نجاسة..!

كذلك أنتم تبدون أمام الناس أبراراً ولكنكم من الداخل ممتلئون بالرياء والفسق... يا أولاد الأفاعي..!!

كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم فجرة[1]...!!!!!

* * *

لقد عقدت الجلسة الأخيرة من هذا الحوار في ظروف مضطربة الطقس، وفي جو عاصف تضيق به النفس... فالشوارع شبه خالية والمنطقة التي يقع فيها المسجد أمست خلاء من الحياة والحركة... إن سيدني Sydney هي أهم مدينة في هذه القارة..، وحي «سري هيلز» Surry Hills الذي يقع فيه المسجد من أشهر الأحياء وأهمها في هذه المدينة. فكيف استحالت المدينة إلى شبه مقبرة؟، وماذا جرى كي يهرع الناس إلى بيوتهم في هذه الساعة المبكرة؟.. ظاهرة كئيبة ينقبض منها الصدر.. ومما ضاعف من هذه الكآبة صراخ السكارى الذين سقطوا على جوانب الطريق من شدة السكر..!!

وفجأة... وقف المستر جراهام Graham ليعلن دخوله في الإسلام؟!!

ما هذا؟ لقد هدأت العاصفة، وتسللت أشعة الشمس إلى

(١) من كلام المسيح عليه السلام.

الحاضرين من خلال النافذة . . . وعادت الحركة والحياة إلى الشوارع الخالية المقفرة . .

هل هي المصادفة؟ أم الطبيعة المتقلبة؟ أم القدر الذي هيأ ـ لنهاية الحوار ـ هذه الظاهرة الجميلة الطيبة؟

* * *

في ميناء سيدني Sydney Harbour كانت السفن تتهيأ للإقلاع بعد أن هدأت العاصفة ، وفي لحظة واحدة امتزج صوت المؤذن بتغريد الطيور المهاجرة وهي ترفرف بأجنحتها في السماء الصافية ، وكانت الشمس قد انسحبت عبر خليج بوتاني Botany بعد أن ألقت على مدينة سيدني نظرة وداع أخيرة . . !!

فكيف تحول الطقس فجأة إلى النقيض والعكس ، وكيف تغير الجو في نهاية الحوار على هذا النحو؟

والتفت لأرى الآنسة روث . . . وهي تهمس في أذن البعض ثم ترفع يدها في حركة تشير بها إليّ !!

ـ ماذا تريدين أن تقولي أيتها الآنسة روث Ruth ؟

● أقول إني مسلمة . . وإنني على ما فات من عمري نادمة . . !

* * *

واحتبس صوتي من رهبة الموقف . . . واغرورقت عيناي

بالدمع الذي لم يتوقف . . وقبل أن تبدأ الصلاة أقبل الجميع يودعونني بعاطفة بعيدة عن الزيف والتكلف . .

السيدة ليندا Linda .

والسيدة نانسي Nancy .

والآنسة فيكي Vieki .

والآنسة أريس Arice .

والآنسة أليس Alis .

والآنسة كرستين Kristin .

والسيد بول Paul .

والسيد إدوارد Edward .

والسيد جون John .

والسيد ريتشارد Richard .

والسيد ماكميلان Macmilan .

والسيد أندرو Andrew .

وأخيراً السيد فوكس Fox الذي ظهر فجأة في نهاية الصف . . !!!

ولكن أين السيد جراهام Graham والآنسة روث Ruth ؟

كان يتحدثان إلى المؤذن ، ويستقبلان معه الناس الذين حضروا للصلاة في المسجد . . . !!!

وهذه هي المعجزة .

معجزة الإسلام حين ينشرح له الصدر . .

ومعجزة الإيمان حين يتمكن من القلب . . والعقل . .

ومعجزة الفطرة . . حين ترجع إلى الحق بعد أن حال الزيف والباطل بينها وبين هذا الحق . . !!

فهرس

- السؤال الذي يشغل العالم؟ Shall we pass or shall we die
- فولتير. . . والتحدي السافر للأساقفة ورجال الدين. .
- ولهذا . . . يحاربون الإسلام. . .
- مؤتمر للشياطين برئاسة إبليس. !